



د. محمد الجوهري حمد الجوهري

الثقافات والحضارات

اختلاف النشأة والمفهوم

الثقافات والحضارات

اختلاف النشأة والمفهوم

الجوهري ، محمد الجوهري حمد .

الثقافات والحضارات - اختلاف النشأة والمفهوم / محمد الجوهري

حمد الجوهري . - ط 1 . - القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2008

288 ص ؛ 24 سم .

تدمك : 6 - 412 - 427 - 977

1 - الثقافة 2 - الحضارة

أ - العنوان 301.2



الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 + 202

فاكس: 23909618 + 202 - ص ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 19271 / 2008

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : محرم 1430 هـ - يناير 2009 م

الثقافات والحضارات

اختلاف النشأة والمفهوم

دكتور

محمد الجوهري حمد الجوهري

لدار المصرية اللبنانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا^١ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ^٢ رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ
أَخْطَأْنَا^٣ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ^٤
عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا^٥ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا
طَاقَةَ لَنَا بِهِ^٦ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ
مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ^٧ ۞

(البقرة : 286)

مُتَكَلِّمَاتُ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين .

هذا البحث يتناول موضوعات مهمة تتعلق
بالثقافة والحضارة ، وهي موضوعات كثر الخلاف
حولها عندنا وعند الآخرين ، وأصبح هناك خلط في
مفاهيمها ومعانيها ليس بين الثقافات والحضارات
المختلفة ، بل بين أبناء الثقافة والحضارة الواحدة .

وقد حاولت أن أصل لجذور هذه الموضوعات
وخاصة موضوع الثقافة ، فتناولت كيفية نشأة اسم
ومفهوم الثقافة ، وأسباب اللبس والغموض في ذلك ،
وكذلك موضوع الحضارة ، فتناولت حضارتنا
الإسلامية والحضارات الأخرى .

المحتويات

الصفحة

الموضوع

7

مقدمة

الباب الأول

الثقافة .. والحضارة

الفصل الأول

كيف نشأت فكرة الثقافة ؟ وما مفهومها ؟

- (أ) كيف تم التوصل لـ «اسم» و «مفهوم» الثقافة في الفترة الممتدة من 1780 إلى 1850م ؟ 17
- أولاً : الظروف الأوربية التي أدت إلى البحث عن مفهوم جديد أطلق عليه اسم «الثقافة» 17
- 1 - البحث عن وسائل تعويضية للجفاف الروحي الذي أصاب المجتمعات الأوربية بعد سيطرة العلمانية 18
- 2 - العلمانية أحدثت نمطاً عاماً محدداً للتفكير في أوروبا وأمريكا أثر على الفكر وجميع شؤون الحياة 19
- ثانياً : المراحل الأولى لظهور فكرة الثقافة 19
- ثالثاً : بداية ظهور المفهوم الجديد واختيار اسم ثقافة له - القلة المهيمنة Cultivated في مواجهة الغوغاء 22
- (ب) تطور مفهوم الثقافة بعد 1850م 27
- إدوارد تيلور - ت . س إليوت 27
- شترأوس والمحافظون الجدد والتغيرات الثقافية 31
- (ج) تعريف الثقافة .. الاختلافات حول مفهوم الثقافة 34
- تعريفات عديدة للثقافة :
- 1 - مفهوم الثقافة من منظور علماني غربي 36

الموضوع	الصفحة
2 - مفهوم الثقافة من منظور صيني	43
3 - انتقال المفهوم العلماني الغربي للثقافة إلى البلاد العربية والإسلامية	46
4 - نقد مختصر للتعريفات التي وضعها المفكرون الأوروبيون لمفهوم الثقافة :	48
* الثقافة بديل عن الدين المسيحي	48
* بعض المفكرين الأوروبيين والأمريكيين رفضوا مفهوم الثقافة بديلاً عن الدين المسيحي	49
* الدين المسيحي ليس إلا عنصراً من العناصر المكونة للثقافة العلمانية للمجتمعات الأوروبية	50
* الالتباس والغموض في معنى الثقافة عند الأوروبيين والأمريكيين يرجع إلى الفكر العلماني نفسه	51
خلاصة	55

الفصل الثاني

كيف نشأت فكرة الحضارة ؟ وما مفهومها ؟

أولاً : عبد الرحمن بن خلدون - مكتشف علم الاجتماع - أول من استخدم فكرة الحضارة كفكرة مستقلة لها مفهومها	59
ثانياً : في العصرين اليوناني والروماني لم تكن كلمة Civilization حضارة ولا مفهوم حضارة معروفاً	62
ثالثاً : أول معرفة للأوروبيين بمفهوم حضارة ، وتطور هذا المفهوم	63
رابعاً : ارتباط مفهوم حضارة بمفهوم ثقافة في الغرب بعد معرفة مفهوم الثقافة وتبلوره	66
خلاصة	71

الباب الثاني

مفهوم الثقافة والحضارة من منظور إسلامي

الفصل الأول

كيف قامت كل من الثقافة والحضارة الإسلامية ؟

- (أ) الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية قامتتا مع قيام المجتمع الإسلامي
75 الأول في المدينة المنورة
- (ب) الدين الإسلامي دين شامل .. والثقافة والحضارة الإسلامية تستمدان
78 مفاهيمهما من هذا الدين
- (ج) هل يمكن أن تلغى فكرة الثقافة ؟
89
- 91 خلاصة

الفصل الثاني

تعريف كل من الثقافة والحضارة الإسلامية

- (أ) إلقاء الضوء على بعض التعريفات الحالية لمفهوم الثقافة عند بعض
93 المفكرين العرب
- (ب) تعريف الثقافة من منظور إسلامي
- (ج) تعريف الحضارة عند بعض المفكرين العرب المعاصرين
- (د) تعريف الحضارة من منظور إسلامي
- 100
- 102 خلاصة

الباب الثالث

الدين الإسلامي والثقافة والحضارة

الفصل الأول

المقومات الأساسية التي جاء بها الدين الإسلامي

وقامت عليها الثقافة والحضارة الإسلامية

- 105 مقدمة
- 106 أولاً : العقيدة الإسلامية في القرآن الكريم

الصفحة	الموضوع
116	ثانيًا : الشريعة الإسلامية في القرآن الكريم
122	ثالثًا : الأخلاق في القرآن الكريم
125	رابعًا : بناء عقيدة الفرد والمجتمع المسلم في بداية مبعث الرسول ﷺ
127	خامسًا : بناء الأمم الفكرية الثقافية والحضارية للفرد المسلم والمجتمع المسلم ..
133	سادسًا : العقيدة والشريعة هما الأساس الذي قام عليه المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية والثقافة والحضارة الإسلامية
135	خلاصة

الفصل الثاني

هل الحضارات الجديدة تقوم بقيام اعتقاد ديني جديد ؟ ..

وهل تنهار الحضارات بانحيار الاعتقاد الديني الذي قامت عليه ؟

أولاً :	الذين اعتنقوا الإسلام كانوا يتخلون عن معتقداتهم الدينية السابقة وما كانت تفرضه عليهم من قيم وسلوكيات وثقافات وحضارات ويؤمنون بما جاء به الإسلام في هذه المجالات
141	ثانيًا : كيف قامت الثقافة والحضارة على الدين الإسلامي ؟ :
145	1 - بناء المجتمع الإسلامي وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية
145	2 - أساس الثقافة والحضارة الإسلامية القرآن الكريم والسنة النبوية
152	ثالثًا : ما هو مشترك عام بين الحضارات يتناقل بينها
155	رابعًا : حضارات انهارت عندما اعتنقت شعوبها ومجتمعاتها الإسلام وتحلت عن معتقداتها السابقة ولم يعد هناك مَنْ يؤمن بمعتقداتها
163	خامسًا : حضارات انهارت وماتت وأخرى أُعيد تفعيلها بعد انهارها
166	سادسًا : استفادة المسلمين بما هو مشترك عام بين الثقافات والحضارات ..
168	خلاصة ..
178	

الباب الرابع

عوامل قيام الحضارات وانهارها في القرآن الكريم

الفصل الأول

الكفر والفساد والبغى وانهار الحضارات

أولاً: حضارات انهارت بسبب الشرك والكفر والفساد والطغيان والبغى	
واكتشفت الآثار الدالة عليها :	183
1- عاد وحضارتهم	184
2- ثمود وحضارتهم	187
ثانياً: أمم وأقوام وحضارات أخرى هلكت بسبب الكفر والفساد والطغيان	
والبغى	190
ثالثاً: الإصلاح وعدم الفساد وعدم الطغيان والبغى وانهار الحضارات	192
رابعاً: صور من الفساد تهدد الحضارة العلمانية الغربية المعاصرة :	199
أ - اختلال أدى إلى أمراض خطيرة واستنزاف الموارد الطبيعية	199
ب - اختلال يهدد الجنس البشرى بسبب ما قد يتبع عن الاستنساخ	
والهندسة الوراثية	201
خامساً: تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بحمى المجتمعات الإسلامية ويحفظ	
الحضارة الإسلامية	204
خلاصة	207

الفصل الثاني

السنن الإلهية والحفاظ على الحضارات

(أ) التدافع بحفاظ على الحضارات	213
(ب) عدم الأخذ بسنة التدافع يعرض الحضارة للضعف والانهار	222
(ج) التنافس والسبق يحمى الحضارات	226
(د) التدافع يحمى الأرض من الفساد .. والتدافع ليس بين الناس وبين	
المخلوقات الأخرى	227

231 خلاصة
-----	-------------

الفصل الثالث

التغيير في الدين والتحريف في الكتب المقدسة وسقوط الحضارات

236 أولاً: تغيير العرب لدين إبراهيم وعبادتهم الأصنام
 ثانياً: التغيير والتحريف في الكتب المقدسة والدين عند اليهود والنصارى
237 والآثار التي تربت عليه :
237 1- بعض ما جاء في القرآن الكريم عن ذلك
245 2- قيام الحضارة المسيحية في العصور الوسطى
249 3- الثورة على الكنيسة والحروب الدينية وقيام العلمانية في أوروبا
 4- هل العلمانية معتقد وثقافة وحضارة جديدة للغرب ؟ وهل تسير
258 نحو الانهيار ؟ :
258 أ - هل العلمانية معتقد وثقافة وحضارة جديدة للغرب ؟
263 ب- هل تسير العلمانية نحو الانهيار ؟
268 خلاصة

الفصل الرابع

العلم والحضارة

273 المسلمون أول من قاموا بوضع المنهج التجريبي للعمل
275 المسلمون من رواد الفكر العلمي
281 الإعجاز العلمي في القرآن الكريم
284 خلاصة
285 أهم المراجع

الباب الأول

الثقافة والحضارة ؟

الفصل الأول

كيف نشأت فكرة الثقافة ؟ .. وما مفهومها ؟

الفصل الثاني

كيف نشأت فكرة الحضارة ؟ .. وما مفهومها ؟

الفصل الأول

كيف نشأت فكرة الثقافة ؟ وما مفهومها ؟

(أ) كيف تم التوصل لـ « اسم » و « مفهوم » الثقافة

في الفترة الممتدة من 1780 إلى 1850 م ؟

أولاً - الظروف الأوربية التى أدت إلى البحث عن مفهوم جديد أطلق عليه اسم «الثقافة» :

بعد أن أطبقت المفاهيم العلمانية وسيطرت وسادت على المجتمعات الأوربية بعد صراع استمر خمسة قرون مع الكنيسة والكهنوت ، وبعد أن انتشرت أخلاقيات الملاحدة الجدد التى ستموها الأخلاق الطبيعية ، والتى طُبعت فى كتيبات ويدرسها الأطفال فى أوربا فى مقرراتهم الدراسية ، والتى تحضّ على الإلحاد وتدعو إلى حب الذات ، وأن كل اللذات متاحة ومجازة ومسموح بها ، والتى تدعو إلى استعمال العقل ونبذ المعتقدات اللاهوتية الكنسية ، كما حلت قضية الإخلاص للجنس البشرى محل عبادة الله ومريم والقديسين⁽¹⁾ .

(1) ول وإيريل ديورانت ، قصة الحضارة ، رقم 38 ، ترجمة محمد على أبو ذرة ، مراجعة على أدهم ، ص 254 ، اختارته وأنفقت على ترجمته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، 1983 م .

في ظل هذه الظروف بعد أن تبلورت مفاهيم البيئة الجديدة ، والتي أطلق عليها العلمانية ، كانت هناك مشكلة مربكة مرهقة واجهت الفكر الأوربي كما جاءت في كتابات المفكرين والفلاسفة والكتّاب - في ذلك الوقت - أمثال : فولثير ، وديدرو ، وجان جاك روسو ، وآدم سميث ، وديفيد هيوم ، ومايلي ، وماريللي ... وغيرهم - وهي : كيف يكتب البقاء للدولة دون ديانة تدعم النظام الاجتماعي وتحفظه من التحلل والفساد ؟ .. وظلت هذه المشكلة معلقة⁽¹⁾ .

في ظل هذه الظروف العلمانية التي سادت وسيطرت على المجتمعات الأوربية جاء البحث عن مفهوم جديد أطلق عليه فيما بعد اسم «ثقافة» Culture ، وهذا ما سنحاول أن نبرزه في هذا المجال ، فالمجتمعات الأوربية التي كانت العلمانية الشاملة قد طبقت عليها أصابها جفاف روحي خطير .

1 - البحث عن وسائل تعويضية للجفاف الروحي الذي أصاب المجتمعات الأوربية بعد سيطرة العلمانية :

فالفكر العلماني المادي الذي شمل حياة الأفراد والمجتمعات الأوربية كان قد ابتعد كثيراً عن الأفكار المسيحية في ذلك الوقت ، وبالتالي أصبحت الحياة الروحية للأفراد جافة قاحلة كالأرض الجذباء التي غطتها الرمال من طول جفافها ، حيث كانت المقاييس الاجتماعية والنظم والقواعد الاجتماعية الأوربية مادية بحتة ، ولم يسلم من ذلك إلا القلة التي احتفظت بمفاهيمها المسيحية . وفي ظل هذا الجفاف الروحي والبنوار والسيطرة المادية اتجهت أفكار بعض المفكرين والكتّاب إلى البحث عن وسائل تعويضية لهذا الجفاف الروحي .

ومن هنا قاد البحث الذي استمر من سنة 1780 إلى سنة 1850م إلى التوصل إلى هذا المفهوم الجديد الذي أطلق عليه اسم «Culture» ثقافة .

(1) المصدر السابق تحت عنوان : الأخلاقيات الجديدة ، ص 251 .

2- العلمانية أحدثت نمطاً عاماً محدداً للتفكير في أوروبا وأمريكا أثر على الفكر

وجميع شئون الحياة :

في الحقيقة إن سيطرة العلمانية على المجتمعات الأوروبية أحدثت نمطاً عاماً محدداً للتفكير في هذه المجتمعات ، وهذا النمط العام شمل جميع مناحي الحياة الأوروبية والأمريكية التي اصطبغت بالمفاهيم العلمانية .

ومحاولة العلماء والمفكرين في أوروبا للوصول إلى المفهوم الجديد ، والذي أطلق عليه اسم «ثقافة» - وذلك في الفترة من 1780 إلى 1850م - تبين هذا النمط المادي العلماني لدى هؤلاء العلماء والمفكرين ، فكتابات آدموند بيرك ، ووليام كوانت وماثيو أرنولد ، وج . هـ . نيومان ، وجون استيوارت ميل ، وجيمس بنتام ، وصمويل تيلور كولردج ، وتوماس كارليل ... وغيرهم ، وهم من أوائل الذين كانوا يبحثون عن المفهوم الجديد والذي أطلق عليه اسم «ثقافة» . كانت تتجلى في كتاباتهم هذا النمط من التفكير المادي العلماني ، حيث كان القلق والحيرة والاضطراب العقلي والمعنوي من أهم سمات هذا التفكير الذي يفتقد النواحي الروحية .

وهذا النمط المحدد للتفكير ما زال هو المسيطر حتى الآن في معظم البلاد الأوروبية والأمريكية ، حتى بعد تصاعد الأصوليين والإيفانجليكيين في الولايات المتحدة الأمريكية ، وسيطرة المحافظين الجدد وفوزهم في الانتخابات الأمريكية الأخيرة بعد تحالفهم مع اليمين الأمريكي المتطرف .

ثانياً - المراحل الأولى لظهور فكرة الثقافة :

كانت المراحل الأولى لاكتشاف فكرة الثقافة هي محاولة تبين مجموعة من النشاطات العقلية والمعنوية منفصلة عن المجرى العام لحياة المجتمعات الأوروبية ، واتخاذ هذه المجموعة من النشاطات المعنوية والعقلية كمرجع يحتكم إليه أو اتخاذه كمحكمة إنسانية عامة ، وكانت الفنون في تلك الفترة قد اكتسبت مفهوماً جديداً .

كانت كلمة «فن» قبل تلك الفترة تعنى مهارة إنسانية ، فيقال : فن الخطابة ، فن فلاحه الأرض ... إلى غير ذلك ، فتغير معنى الكلمة وأصبحت كلمة فن تعنى مجموعة من النشاطات ذات طبيعة تخيلية خاصة⁽¹⁾ ، وأصبحت كلمة فن تعنى شخصاً يتصف بالخيال . وهذه الفكرة الجديدة عن الفن نمت وتطورت كما جاءت في كتابات المفكرين في تلك الفترة .

وأصبحت المشاعر الوجدانية التي يستشعرها الإنسان عند قراءته لعمل أدبي أو تأمله لعمل فني ، والتي تبعث في النفس الإحساس بالجمال وكأنها تعويض عن النواحي الروحية المفقدة .

وأصبحت الفكرة الجديدة عن الفن يطلق عليها الحقيقة الأسمى ، وقد عبر الشاعر «بليك» عن ذلك في قصيدة له⁽²⁾ :

فقد الفن سحره العقل الآن ..

وسوف تخضع فرنسا العالم بقوة السلاح ..

هكذا تحدث ملك في يوم ميلادى ..

ثم قال اهبط إلى الأرض ..

وجدد الفنون على شاطئ بريطانيا ..

وعندئذ تختر فرنسا صريعة وتهيم بكم ..

وبأعمال الفن تلتقى جيوشهم ..

(1) ريموند وليامز ، الثقافة والمجتمع 1780-1950م ، ترجمة وجيه سمعان - مراجعة محمد فتحى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986م .

(2) المصدر السابق .

وتغوص الحرب تحت أقدامكم ..
ولكن لو رفض موطنك الفنون ..
ولو احتقر ربة الشعر الخالدة ..
عندئذ تستعيد فرنسا فنون السلام ..
وتخلصكم من الشاطئ الجاحد ..
أيتها الروح التي تحب الجزيرة البريطانية ..
ومن حولها تبسم شياطين التجارة ..

ومرت الفنون بتطورات عديدة وحركات ونظريات عديدة ، مثل : حركة تسليع الفن التي ظهرت في كتابات آدم سميث والحركة الرومانتيكية والحركة الكلاسيكية .
وكان للفنون دور في ظهور ألفاظ مثل : ذوق ، مهارة ... وهي ألفاظ تنتمي في معظمها إلى ملكات أو عادات ذات ارتباط بالممارسة والفن ، ولا ترتبط بأي حالة من حالات الذهن في حد ذاته .

وعندما ظهرت لفظة تهذيب Cultivation ، وظهر تعبير القلة المهذبة Cultivated في مواجهة الغوغاء كان هناك من المفكرين والفلاسفة من يربط كلمة تهذيب Cultivation بالناحية الفنية الجمالية في القصائد الشعرية .

يقول مل : « لاح أن هذه القصائد إنما هي التهذيب الحق للمشاعر الذي كنت أبحث عنه ، وبدا أنني أنهل من مصدرها منبعاً لبهجة داخلية ولذة تخيلية وتعاطفية يمكن أن تشترك فيها جميع المخلوقات»^(١) .

(١) ريموند وليامز ، الثقافة والمجتمع 1780 - 1950 م ، ترجمة وجيه سمعان ، مراجعة محمد فتحي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986 م .

ثالثاً : بداية ظهور المفهوم الجديد واختيار اسم ثقافة له .. القلة المهذبة Cultivated في مواجهة الغوغاء :

كانت حالات القوضى تهب في موجات على المجتمعات الأوروبية من آن لآخر ، وكانت الكتابات عن حالات القوضى متداولة كثيراً بين المفكرين والأفراد العاديين .

وفي تلك الفترة ظهر تعبير القلة المهذبة Cultivated في مواجهة الغوغاء الذين يثرون القوضى ، وانتشرت هذه الكلمة بين الكتاب والمفكرين ، وظهرت تعبيرات تهذيب العقل وأهمية ذلك في مواجهة الحضارة الصناعية المادية .

وقد نادى بعض المفكرين بأهمية تهذيب العقل ، وبأهمية تلك النشاطات المعنوية والعقلية واتخاذها كمحكمة إنسانية تخضع لها جميع التدابير الاجتماعية في أوروبا ، وكان من دعاة ذلك الاتجاه صمويل تيلور كولردج المفكر والأديب البريطاني .

وعلى عكس ذلك كان هناك بعض المفكرين أمثال بتام ، الذي كان يرى أن هذه المفاهيم العلمانية التي فرضت نفسها على النظم والقواعد الاجتماعية الأوروبية يجب تركها لتأخذ مجراها .

يقول كولردج⁽¹⁾ : «يعتمد دوام الأمة .. وتقدمها وحريتها الشخصية .. على حضارة متواصلة ومستمرة في تقدمها ، لكن الحضارة في حد ذاتها إنما هي خير ممتزج بالشر إن لم تكن ذات تأثير مفسد بدرجة كبيرة ، فهي تورد المرض ، وليست عنوان الصحة . وأن أمة تمايزت على هذا النحو يصبح ملائماً بوصف شعبها بأنه ذو مظهر براق خادع أكثر من كونه مهذباً Cultivated مزدهراً ، لأن هذه الحضارة لم تستند للتهذيب والتطور المتناسق لتلك السجايا والملكات التي تميز طبيعتها الإنسانية» .

(1) ريموند وليامز ، الثقافة والمجتمع 1780 - 1950 م ، ترجمة وجيه سمعان - مراجعة محمد فتحى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986 م .

فكرة تهذيب Cultivation التي استخدمها المفكرون والكتّاب أصبحت تعنى تهذيب النفس والعقل ، وأصبحت تعنى التدريب الإنسانى للعقل ، وكان معناها قبل ذلك اتجاه النمو الطبيعى ، وهو معنى يتعلق بالنبات ونموه ، وبالزراعة .

وكان كولردج هو أول من استخدم لفظة تهذيب Cultivation أو ثقافة Culture لتشير إلى وضع عام أو حالة عقلية أو عادة عقلية عامة .

وبذلك تم اختيار لفظة ثقافة ، وقد تغير معناها القديم الذى كان يعنى اتجاه النمو الطبيعى لتحمل معنى جديدًا هو تهذيب العقل ، ثم تغير معناها ليصبح حالة أو عادة عقلية عامة .

والمفكرون والكتّاب الأوربيون يعتبرون كولردج وراسكن هما أصل اختيار لفظة ثقافة وأصل الوصول لهذا المفهوم الجديد ، أى أن الثقافة اسمًا ومفهومًا قامت نتيجة لمجهودات كولردج وراسكن ، وهذا لا ينفى مجهودات الآخرين فى تطوير هذا المفهوم . ومنذ اكتسبت لفظة تهذيب Cultivation أو ثقافة Culture وضعًا عامًا ، بدأت فكرة الثقافة Culture تدخل بشكل حاسم فى التفكير الاجتماعى الإنجليزى .

وقد نادى كولردج بأهمية وجود فئة أو طبقة تكون مهمتها «التهذيب العام» ، ويسمى هذه الفئة أو الطبقة باسم الكنيسة القومية ، وتضم الحكماء والأساتذة من كل الطوائف فى المجالات المختلفة كالعلوم والفنون ... «وهذه الكنيسة القومية يجب ألا تفهم على أنها (كنيسة المسيح) فقط ، فهذا الأمر يمكن أن يختزل الكنيسة إلى معتقد دينى»⁽¹⁾ ، وذلك تمشيًا مع خلفيته العلمانية .

(1) ريموند وليامز ، الثقافة والمجتمع 1780 - 1950 م ، ترجمة وجيه سمعان - مراجعة محمد فتحى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986 م .

وفي ذلك الوقت الذى كان فيه كولردج يتوصل إلى فكرة الثقافة بعد أن اكتسبت وضعاً عاماً ، أو صارت حالة عقلية عامة ، كان هناك بعض الفلاسفة والمفكرين لا زال يعيش في تحبط فكري بحثاً عن مفهوم يسبر غور المجتمعات الأوربية وحاجتها إلى بدليل عن النواحي الروحية المتقدمة .

في عام 1852م كتب ج . هـ . نيومان يقول : « سيكون رائعاً لو أن اللغة الإنجليزية حظيت مثل اللغة اليونانية ، بلفظة ما محددة لتعبر ببساطة وعمومية عن المقدرة أو الكمال العقلى . كما تستخدم لفظة « صحة » في الإشارة إلى جسم الحيوان ، ولفظة « فضيلة » في الدلالة على طبيعتنا الخلقية ، ولم أستطع أن أجدها هذا المصطلح ... و خلاصة القول أن هذا ضرورى لعدة أسباب : أولاً : لكى توضح فكرة ليست صعبة في حد ذاتها وهي فكرة تهذيب الذهن كفاية في حد ذاتها . وثانياً : لكى تمتدح ما يعد هدفاً معقولاً بكل تأكيد . وأخيراً : لكى نحقق للعقل الكمال المعين الذى يتكون منه ذلك الهدف »⁽¹⁾ .

ويقول ريموند وليامز عن هذه الفقرة التى كتبها نيومان : « والحقيقة التى تثير الدهشة في هذه الفقرة أكثر من غيرها هي أن نيومان لم يقابل الحاجة إلى لفظة محددة ما ، بلفظة ثقافة »⁽²⁾ .

وكانت مساهمات ماثيو أرنولد في بلورة فكرة الثقافة مهمة في ذلك الوقت للمجتمعات الأوربية ، فوضع كتابه « الثقافة والفوضى » ، وكان يرى أن الثقافة تعنى تطور الحياة الإنسانية للمجتمعات الأوربية العلمانية .

يقول ماثيو أرنولد : « الثقافة » ، وهي دراسة الكمال ، تقودنا ... لأن نفهم الكمال

(1) ريموند وليامز ، الثقافة والمجتمع 1780 - 1950م ، ترجمة وجيه سمعان - مراجعة محمد فتحى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986م .

(2) المصدر السابق .

الإنسانى الحقيقى باعتباره كمالاً متناسقاً يطور إنسانيتنا من جميع جوانبها ، وهو كمال شامل يطور مجتمعا بأسره⁽¹⁾ .

فماثيو أرنولد كان يرى أن الثقافة هى عملية دراسة الكمال الإنسانى وتطور الحياة الاجتماعية للمجتمعات الأوروبية .

وتطورت فكرة الثقافة كما جاء فى كتابات مفكرين آخرين أمثال : مل وكارليل وغيرهم ، وظهرت فكرة الثقافة كوعاء للفنون ، ثم اتحدت فكرة الثقافة كوعاء للفنون ، وفكرة الثقافة كوعاء لقيم أسمى .

ويعنى ذلك بداية التحلل التدريجى من المفاهيم المادية العلمانية ، ومن مفاهيم مذهب المنفعة الذى كان يتنام قد وضع أسسه ، وزعم أن مصدر السلوك هو المنفعة الشخصية ، والصفة الأساسية فى البشر هى الأنانية ، وأن مقياس الخير الوحيد هو تحصيل أكبر قدر من اللذة ، وبذلك لا تعدو الأخلاق إلا أن تكون تنظيماً للأنانية ، واعتبر الخير هو اللذة الوحيدة والشر هو الألم .

وكان كارليل يرى ضرورة صياغة أشكال جديدة لمعتقدات الأوروبيين التى أعلن وفاتها⁽²⁾ .

وفى ذلك الوقت الذى كان يبحث فيه المفكرون الأوروبيون عن المفهوم الجديد الذى أطلقوا عليه اسم ثقافة ، فإن كثيراً منهم كان يعرف جيداً اسم ومفهوم حضارة تلك التى كان عبد الرحمن بن خلدون أول من وضع اسماً وتعريفاً لها فى القرن الرابع عشر الميلادى .

(1) ريموند وليامز ، الثقافة والمجتمع 1780 1950م ، ترجمة وجيه سمعان ، مراجعة محمد فتحى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986م .

(2) المصدر السابق .

وكارليل (1795 - 1881م) كان يعرف معنى الحضارة ويذكرها في كتاباته ، في الوقت الذي لم تكن فكرة الثقافة ومفهومها قد تبلورت بعد .

يقول كارليل : «إن الحضارة العصرية تجدد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا ، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا»⁽¹⁾ .

وبعد أن تبلورت فكرة الثقافة وأصبحت وضعًا عامًا ، وبدأت تدخل في التفكير الاجتماعي للمجتمعات الأوروبية ، بدأت تتطور وأصبحت فكرة عامة مستقلة عن مناشط الحياة المختلفة ، وأصبح لها كيانها المستقل عن الحضارة ، وإن كان في ذلك الوقت مدى ارتباط الثقافة بالحضارة لم يكن بذلك الوضوح الذي هو عليه الآن ، إذ كانت الحضارة ينظر إليها الأوروبيون في ذلك الوقت على أنها الحضارة الصناعية ، أو بمعنى أصح هو التصنيع والتقدم الصناعي ، وأن الثقافة جاءت لتهدب حياة الفرد وحياة الجماعة تجاه هذا الكيان الصناعي المادي الذي لا يعترف إلا بالعقل وبالمادة ولا يعترف بالغيبيات .

(1) ريموند وليامز ، الثقافة والمجتمع 1780 - 1950م ، ترجمة وجيه سمعان · مراجعة محمد فتحى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986م ، ص 38 .

(ب) تطور مفهوم الثقافة بعد 1850م

1- بعد أن تحدد مفهوم الثقافة وأصبح يمثل وضعًا عامًا أو حالة أو عادة عقلية عامة ، بدأ هذا المفهوم الجديد يتطور بعد النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي .

في سنة 1871م قام المفكر البريطاني إدوارد ب . تيلور بوضع تعريف للثقافة لاقى قبولاً كبيراً لدى الأوربيين منذ ذلك التاريخ وحتى الآن .

وترجع أهمية هذا التعريف عند الأوربيين لإدخال الدين المسيحي كمكون أساسي من مكونات الثقافة العلمانية .

وقد عرف إدوارد ب . تيلور الثقافة بأنها : «ذلك المركب الكلي المعقد الذي يشمل : المعرفة ، والاعتقاد الديني ، والفن ، والقانون ، والتعاليم الأخلاقية ، والعادات ، وأى عادات أو مقدرات مكتسبة بواسطة الفرد بوصفه عضواً في المجتمع»⁽¹⁾.

ومن ذلك يتضح أن إدوارد تيلور اعتبر الثقافة العلمانية مكونة من عدة عناصر ، وأن الدين أحد هذه العناصر ، أى أن الدين المسيحي جزء من الثقافة العلمانية للمجتمعات الأوربية .

أما في المجتمعات الإسلامية يشمل جميع شئون الحياة بما فيها الثقافة والحضارة . أى أن إدوارد تيلور اعتبر العلمانية هي المهيمنة والمسيطرة على جميع شئون الحياة في المجتمعات الأوربية ، وأن الدين المسيحي يمثل جزءاً من الثقافة العلمانية .

وقد تناول كثير من الكتّاب والمفكرين الأوربيين والأمريكيين مفهوم الثقافة ، وظهرت لهم آراء متعددة طوال القرن العشرين في ذلك ، ومنهم ف . ر . ليفس الذى

(1) Grolier Academic Encyclopedia Culture also published under the title American Encyclopedia.

نشر مقالة سنة 1930م أشار فيها إلى أهمية الأقلية المثقفة التى تهتم وتصون التقاليد الأدبية، وتهتم بالقدرات الكامنة فى اللغة، وتنقب وتهتم بالمصادر الأدبية والتاريخية والمعمارية والرسم والموسيقى والفلسفة واللاهوت والنظريات السياسية والاجتماعية والعلوم الطبيعية والأنثروبولوجيا، كما ذكر أهمية التجارب غير المدونة التى تتمثل فى العلاقات والعادات والتقاليد، وخص الأدب بأهمية خاصة لأنه التدوين الرسمى للتجارب غير المدونة.

وكان ذلك اعترافاً بالثقافة كتجمع لهذه المناشط، وفى الحقيقة فإن ليفس تأثر بأفكار من سبقوه فى المجال أمثال: كولردج، وأرنولد، وإدوارد تيلور.

2- برز مفهوم جديد للثقافة فى علم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا فى القرن العشرين، وهذا المفهوم الجديد هو: «الثقافة طريقة شاملة للحياة الروحية والعقلية والمادية».

وقد جاء هذا المفهوم الجديد فى كتابات بعض علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، وقد تأثر بهذا المفهوم المفكرت. س. إليوت، وتناوله فى كتاباته، وإيرازت. س. إليوت للثقافة على أنها طريقة شاملة للحياة أعطى هذا المفهوم تأكيداً خاصاً، بعد أن كان مجرد رأى مثل بقية الآراء الأخرى حول الثقافة.

ولا شك أن مجهودات ت. س. إليوت فى تطوير مفهوم الثقافة فى المجتمعات الأوربية كان له مردود كبير ومستمر فى التأثير على المفاهيم العلمانية الأوربية والأمريكية.

وت. س. إليوت بنى العودة لمجتمع أوربي مسيحي حقيقى فى كتابه «فكرة مجتمع مسيحي» الذى صدر سنة 1939م⁽¹⁾، ويقول فى كتابه: «إن المجتمع المسيحي هو

(1) ت. س. إليوت، ملاحظات نحو تعريف الثقافة، ترجمة وتقديم د. شكرى محمد عياد مراجعة عثمان نوية -- تحرير د. محمد عنانى، مكتبة الأسرة، 2003م.

الذى يسوده قانون دينى اجتماعى موحد للسلوك⁽¹⁾ ، ويرى «أنه لن يتحقق مجتمع مسيحى بمجرد تغيير هذا النظام الآلى الذى يتصف بتضخيم دافع الربح إلى حد أن يصبح مثلاً اجتماعياً أعلى ، والتمايز بين استخدام الموارد الطبيعية واستغلالها . . بالإضافة إلى المزايا التى تتجمع للتاجر بغير عدل فى تضاد مع ما يتجمع للمنتج الأساسى ، وسوء توجيه النظام المالى ، وظلم الربا الفاحش ، وغيرها من قسائم مجتمع يقوم على أساس تجارى ، والذى يجب فحصه بدقة على أساس المبادئ المسيحية» .

وقد استخلص إليوت عدة نتائج مهمة تتعلق بالثقافة ونظورها ، وخاصة فى اتجاه العودة إلى المسيحية ، ولكن على ما يبدو دون التخلّى عن المفاهيم العلمانية ، وهو فى ذلك كان يسير على منوال من سبقوه ومتأثراً فى الوقت نفسه بالظروف التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، وخاصة الحرب العالمية الأولى والثانية .

ومن النتائج التى استخلصها إليوت ، والتى تتعلق بالثقافة ، والتى جاءت فى كتاب له عن الثقافة سنة 1945م⁽²⁾ :

(أ) فى الوقت الذى اعتبر أرنولد أن الثقافة خاصة بالكمال الإنسانى بالنسبة للفرد ، أى أن الثقافة فى رأى أرنولد هى ثقافة الفرد ، فإن إليوت كان يرى أن الثقافة تشمل الفرد والجماعة أو الفئة ، وتشمل المجتمع كله . فالثقافة هى ثقافة الفرد ، والجماعة والمجتمع⁽³⁾ .

(ب) النقطة المهمة التى يذكرها هى علاقة الثقافة بالدين ، وهى فى الحقيقة عدة نقاط وليست نقطة واحدة .

يقول إليوت : «أول دعوى مهمة أقيمها هى أنه لم تظهر ثقافة ولا تمت إلا بجانب

(1) ت . س . إليوت ، ملاحظات نحو تعريف الثقافة ، ترجمة وتقديم د . شكرى محمد عباد -مراجعة عثمان نوبة - تحرير د . محمد عنانى ، مكتبة الأسرة ، 2003 م .

(2) المصدر السابق .

دين ، ومن هنا تبدو الثقافة نتيجة من نتائج الدين ، أو الدين نتيجة من نتائج الثقافة طبقاً لوجهة نظر الناظر⁽¹⁾ .

وكانه يقصد بقوله : إن الثقافة نتيجة من نتائج الدين بالنسبة للذين يؤمنون بالدين السماوى ، فهذه وجهة نظرهم .

ويقصد بقوله : أو الدين نتيجة من نتائج الثقافة بالنسبة للعلمانيين ، فهذه وجهة نظرهم .

أوربما يقصد من قوله هذا إنه لم يستقر على رأى فى علاقة الثقافة العلمانية بالنسبة للدين المسيحى ، لأنه يقول فى موضع آخر من كتابه : « الثقافة هى الدين والدين هو الثقافة »⁽²⁾ . أى أنه لم يكن قد وصل إلى المفهوم الحقيقى القاطع لمعنى الثقافة ، وعلاقتها بالاعتقاد الدينى الذى يدين به المجتمع .

فالمجتمعات التى تدين بالمعتقدات البوذية ثقافتها تحمل المفاهيم البوذية ، والمجتمعات التى تدين بالمعتقدات المادية العلمانية ثقافتها تحمل المفاهيم العلمانية ، والمجتمعات التى تدين بالدين الإسلامى ثقافتها الإسلامية تحمل المفاهيم الإسلامية⁽³⁾ .

والىوت يعترف بأنه لا يدرك العلاقة بين الدين والثقافة إلا لمحا . والحقيقة أن إالىوت وهو يعيش فى بيئة مادية علمانية كان يغلب على تفكيره بصفة عامة التردد وعدم اليقين ، فهو يأتى بالفكرة ونقيضها وكل شىء نسبى ، وهو يقول : « إن ما حاولت التلويح به من نظرة إلى الثقافة والدين لجد عسير بحيث لا أحسبني أدركه أنا نفسى إلا لمحا ، ولا أحسبني واقفاً على جميع دلالاته ، وهى نظرة تنطوى على خطر الوقوع فى

(1) ت . س . إالىوت ، ملاحظات نحو تعريف الثقافة ، ترجمة وتقديم د. شكرى محمد عياد - مراجعة عثمان نوبة - تحرير د. محمد عنانى ، مكتبة الأسرة ، 2003 م .

(2) المصدر السابق .

(3) د. محمد الجوهري حمد الجوهري ، الثقافة العربية والحضارة الإسلامية ، دار الأمين ، 1998 م .

الخطأ في كل لحظة ، لعدم التنبه إلى تغير في المعنى الذى يكون لكلمات الكلمتين حين تقترنان على هذا النحو بصيرورتها إلى معنى قد يكون لإحدهما بمفردها⁽¹⁾ .

(ج) إليوت يرى أن في الثقافة جانباً كبيراً غير واع وهو يتعلق باللاشعور⁽²⁾ . أما القسم الواعى للثقافة فهو يتعلق بالدين والأخلاق والفنون ، وهو القسم الذى ذكره إدوارد تيلور في تعريفه للثقافة . وإليوت بذلك لا يربط بين الجانب غير الواعى في الثقافة والدين ، لأنه يعتبر أن المسيحية جزء من أجزاء الثقافة العلمانية في المفهوم الأوربي .

3- شتراوس والمحافظون الجدد والتغيرات الثقافية : منذ سنة 1950م استخدمت البنيوية في النقد الأدبي ، ومنذ ذلك الوقت بدأت تأخذ مكانتها عند الأدباء والفلاسفة والمفكرين الأوربيين .

والبنيوية هي اتجاه علماني في النقد والفكر والفلسفة تصور واضعوها في بداية ظهورها أن هناك أبنية عقلية كلية لا واعية في كل مجال من المجالات ، مثل الأبنية الموجودة في نظام القرابة : الأب ، الأم ، الابن ، الأخ ، الأخت ، العم ، الخال . واعتقدوا أن هناك أبنية عقلية كلية لا واعية في الأدب والفلسفة والرياضيات والثقافة .

ومن أعلام البنيوية : كلود ليفي شتراوس - ويعتبر أبو البنيوية - وميشيل فوكو ورومان بارت ... وقد نشر شتراوس كتابه «المدارات الحزينة» عام 1955م وكان له أثر كبير في نشر وانتشار البنيوية .

لقد انصب عمل شتراوس وأبحاثه في التنقيب والبحث عن البنية العقلية للغة ، واعتقد أنه سيستطيع أن يتوصل إلى الأبنية العقلية - ليس في اللغة فقط - ولكن في

(1) ت . س . إليوت ، ملاحظات نحو تعريف الثقافة ، ترجمة وتقديم د. شكرى محمد عياد - مراجعة عثمان نوبة - تحرير د. محمد عناني ، مكتبة الأسرة ، 2003م .

(2) المصدر السابق .

شئى المجالات الأخرى ، فطفق⁽¹⁾ يبحث عن هذه الأبنية العقلية الكلية اللاواعية ووعده بالبحث عنها والوصول إليها ، منطلقاً فى ذلك المجال من منطق علمانى لا يعتقد إلا فى المعتقدات المادية العلمانية بعيداً عن الدين وبعيداً عن الميتافيزيقا والغيبيات والنواحي الروحية ، وقد اتخذ اللغة ميداناً لأبحاثه ليطبق ما يتوصل إليه من نتائج على النواحي الأخرى . وبعد جهد وطول بحث قاده أبحاثه إلى ميتافيزيقا وغيبيات فانهارت البنيوية .

لقد انطلق شتراوس فى أبحاثه عن البنيوية من أساس مادى لا دينى لا يعترف بأن الله سبحانه وتعالى علّم آدم الأسماء كلها ، وأخذ يبحث عن أبنية عقلية لا واعية خلف اللغة - ليطبقها على مجالات الحياة المختلفة - باعتبار أن اللغة قد تعلمها الإنسان الذى تطور حسب نظرية النشوء والارتقاء لداروين وليس عن سيدنا آدم (عليه السلام) الذى خلقه الله سبحانه وتعالى وعلمه ، ولما قاده أبحاثه إلى أن خلف هذه الأبنية غيب أو ميتافيزيقا انهارت البنيوية .

عندما اتضح للمفكرين العلمانيين فى أوروبا أن أبحاث ليفى شتراوس قاده إلى غيب أو ميتافيزيقا حقيقية ، انهالت عليه السهام من كل جانب يسفّهون آراءه ويهاجمون البنيوية ويصفونها بالسخف ، فانهارت البنيوية وتبعها مرحلة ما بعد البنيوية .

إن انهيار البنيوية - والبنيوية فى حقيقتها قائمة على أفكار داروين ودى سوسير وكارل ماركس⁽²⁾ - يعنى فى حقيقته أن الغيب والغيبيات حقيقة لا يمكن إنكارها ، فالله سبحانه وتعالى خلق آدم وعلمه الأسماء كلها .. فخلق الله لآدم حق ، والملائكة حق ، وكل ما قاله الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم حق ، وكل ما ذكره رسولنا ﷺ فى أحاديثه الصحيحة حق ، يقول تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى

(1) لمزيد من التفصيل : كتاب «العولمة والثقافة الإسلامية» ، د. محمد الجوهري حمد الجوهري ، دار الأمين ، القاهرة ، طبعة أولى 2002م ، وأعيد طبعه 2004م .

(2) المصدر السابق .

الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَيُّهُنِي بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٦١﴾ ﴿١﴾

كان انبهار البنيوية عند المفكرين الأوروبيين والأمريكيين يعنى الانحياز للأفكار التى تدعو للعودة لمجتمع مسيحى ، وهى الأفكار التى تنبأها ت. س. إليوت وغيره من المفكرين ، ويعنى التراجع عن العلمانية دون التخلي عنها .

فى الخمسينيات من القرن الماضى كان شتراوس أستاذًا للفلسفة فى جامعة شيكاغو ، وكان من تلاميذه وحواريه عدد ممن يطلق عليهم الآن فى أمريكا «المحافظون الجدد» منهم : رامسفيلد ويول ووليفيتز ووليام كريستول ... وغيرهم ، فتأثروا بأفكار شتراوس تأثرًا كبيرًا .

وبمرور الوقت ازدادت أعداد المحافظين الجدد ، وقد استطاعوا أن يفوزوا فى الانتخابات الأمريكية الأخيرة بعد تحالفهم مع اليمين الأمريكى المتطرف والصهيونية الأمريكية بقيادة الرئيس الأمريكى جورج بوش ونائبه تشينى ..

وكان للمحافظين الجدد دور بارز فى التغيرات الثقافية التى حدثت فى الولايات المتحدة الأمريكية ، إذ تعزز دور الدين المسيحى فى مجابهة العلمانية ، وهو ما سوف نتناوله فيما بعد .

(جم) تعريف الثقافة

الاختلافات حول مفهوم الثقافة

كما رأينا سابقاً أن مفهوم الثقافة لم يكن معروفاً قبل الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي .

كما رأينا الأسباب الكامنة وراء البحث عن هذا المفهوم الجديد - الذي أطلق عليه اسم ثقافة - وأنها كانت أسباباً خاصة بالمجتمعات الأوروبية في العصور الوسطى⁽¹⁾ ، نتيجة التغيرات العميقة التي حدثت فيها وحولتها من مجتمعات مسيحية إلى مجتمعات علمانية .

كما رأينا سابقاً كيف تم التوصل إلى هذا المفهوم ، وكيف تم اختيار لفظة ثقافة ليحمل هذا المفهوم .

ومن هنا كان البحث الذي أدى إلى التوصل إلى المفهوم الجديد ، والذي أطلق عليه اسم «ثقافة» . فالثقافة جاءت كبديل للدين المراق في المجتمعات الأوروبية على حد قول بعض المفكرين الأوروبيين في نهاية القرن الثامن عشر⁽²⁾ .

وفي ظني أن الإيفانجليكية في المجتمعات الأمريكية جاءت كبديل للعلمانية المراقبة في العقود الأخيرة على يد «المحافظون الجدد» المتحالفين مع اليمين الأمريكي المتطرف الذي يحكم أمريكا الآن ، وأن التعصب الأصولي هو الصفة الغالبة عليهم الآن .

(1) العصور الوسطى في أوروبا هي الفترة الممتدة من سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الرابع الميلادي إلى القرن الخامس عشر الميلادي . انظر قيام الحضارة المسيحية في العصور الوسطى في الصفحات القادمة من هذا الكتاب .

(2) ريموند وليامز ، الثقافة والمجتمع 1780 - 1950 م ، ترجمة وجيه سمعان - مراجعة محمد فتحي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986 م .

وقد رأينا سابقاً أن مفهوم الثقافة مر بمراحل متعددة في أوربا :

- في الفترة الممتدة من عام 1780 إلى عام 1850م : قبل عام 1780م كانت كلمة ثقافة في اللغة الإنجليزية تعنى اتجاه النمو الطبيعي وهى خاصة بالنبات وزراعته ، ثم شاعت كلمة تهذيب Cultivation في مواجهة تعبير الغوغاء الذى انتشر آنذاك بين الناس في أوربا ، ثم استخدمت فكرة تهذيب العقل في كتابات المثقفين والمفكرين في مواجهة الحضارة الصناعية المادية البازغة ، ثم أصبحت كلمة تهذيب Cultivation أو ثقافة Culture تعنى تهذيب العقل والنفس ، وتعنى التدريب الإنسانى للعقل .

وكان صمويل كولدرج أول من استخدم كلمة ثقافة Culture لتشير إلى حالة أو عادة عقلية عامة .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت «الثقافة» شيئاً مستقلاً في حد ذاته ، ثم أصبحت بعد ذلك تعنى الحالة العامة للتطور الفكرى للمجتمع بأسره . واعتبرت بعد ذلك الكيان العام للفنون .

- من ذلك يتضح أن طوال الفترة الممتدة من عام 1780 ، حتى عام 1850م ، وهى الفترة التى جرت فيها محاولات الوصول لفكرة أو حقيقة مرجعية إنسانية ، والتى انتهت بالوصول إلى فكرة الثقافة ، كان المفكرون والفلاسفة الأوربيون ينطلقون من خلفية علمانية بحثة ، ولذلك جاءت كل محاولات الوصول لفكرة الثقافة خالية في أغلبها من النواحي الروحية الدينية ، وهو ما انعكس على معنى الثقافة في تلك الفترة .

- تطور مفهوم الثقافة عند المفكرين الأوربيين بعد عام 1850م ، وكان هناك من يهتم بالمسيحية كمكوّن أساسى من مكونات الثقافة في المفهوم العلمانى ، أى اعتبار الدين المسيحى عنصراً أساسياً من عناصر الثقافة العلمانية - وهناك الآن من المفكرين الأوربيين من يعتبرون العلمانية لا تتعارض مع المسيحية كما ذكر الإنجيل : «دع ما لقيصر وما لله لله» . ومن هؤلاء الذين اهتموا بذلك إدوارد ب . تيلور

البريطانى الذى قام بوضع تعريف للثقافة لاقى قبولاً كبيراً عند الكتاب والمفكرين . يعرف تبلور الثقافة بأنها : «ذلك المركب المعقد المكون من المعرفة والاعتقاد والفنون والأخلاق والقانون وأى مقدرات مكتسبة بواسطة الفرد باعتباره عضواً فى المجتمع» ، وقد تم وضع هذا التعريف عام 1871م .

وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أصبح معنى الثقافة : «طريقة شاملة للحياة مادية وعقلية وروحية» .

وهذا المعنى الأخير تأثر به ت . س . غليوت الذى كان له إسهاماته فى الوصول إلى ارتباط الثقافة بالدين ، واعتبر أنه لا تقوم ثقافة دون اعتقاد دينى ، وأن الثقافة بها جانب لا واعى . أما النشاطات مثل : الأدب والفنون ... فهى تمثل الجانب الواعى للثقافة ، وروضع فى عام 1939م كتاب «العودة لمجتمع مسيحي» نادى فيه بأهمية العودة للمسيحية .

وكان لانحياز البنيوية أثر كبير فى بروز الاتجاهات الدينية فى أوروبا وأمريكا ، وخاصة بعد تولي المحافظين الجدد - تلاميذ شتراوس أبو البنيوية - الحكم فى الولايات المتحدة الأمريكية بعد فوزهم فى الانتخابات الأخيرة التى تولى فيها جورج دبليو بوش الحكم .

تعريفات عديدة للثقافة

1- مفهوم الثقافة من منظور علمانى غربى :

فى عام 1952م أورد ألفرد كروبر وكلويد كلوكهون مجموعة مكونة من 200 تعريف للثقافة⁽¹⁾ ، وهذه التعريفات الكثيرة للثقافة جاءت بعد أن تبلورت فكرة الثقافة ، وأصبح لها اسم ، وهو ثقافة . وبعد أن أصبحت فكرة مستقلة بواسطة كولردج ، فى الفترة من عام 1780 إلى عام 1850م .

(1) Wikipedia .. Free Encyclopedia شبكة الإنترنت .

ففى تلك الفترة كان عدد الذين أسهموا فى الوصول إلى تلك الفكرة واختيار لفظ ثقافة اسماً لها قليل .

وإن كانت فكرة الثقافة قد جاءت فى بدايتها بديلاً عن النواحي الروحية المسيحية المفتقدة فى المجتمع الأوربى العلمانى ، إلا أنه فى عام 1871م بعد أن قام إدوارد تيلور بتقديم تعريفه للثقافة ، وأصبحت المعتقدات المسيحية جزءاً من الثقافة العلمانية - كما جاء فى هذا التعريف - واكتسب هذا التعريف انتشاراً وقبولاً واسعاً ، وبدأت التعريفات تتزايد .

فالتعريفات العديدة للثقافة جاءت بعد سنة 1871م ، وخاصة فى القرن العشرين .
والتعريفات العديدة للثقافة هى تعريفات مختلفة فى أغلبها ، ويرجع اختلاف التعريفات إلى عدة أسباب سوف نتناولها بعد ذلك .

بالإضافة إلى التعريفات السابقة التى ذكرناها ، والتى جاءت فى الفترة من 1780 إلى 1850م ، مثل تعريف كولردج وراسكن ونيومان ، والتى تعتبر الثقافة حالة تهذيب الذهن وتدريبه .

ومثل جهود كولردج التى أدت إلى اعتبار فكرة الثقافة عادة أو حالة عقلية عامة ، كما أكسبت فكرة الثقافة الاستقلالية .

ومثل تعريف ماثيو أرنولد للثقافة بأنها دراسة الكمال الإنسانى .

ومثل تعريف الثقافة بأنها وعاء للفنون ، وتعريف الثقافة كوعاء لقيم أسمى .

ومجهودات مل وبنتام وغيرهما .

بالإضافة لما سبق فإن التغير الكبير لمفهوم الثقافة حدث بعد سنة 1850م ، وبالتحديد عام 1871م ، بواسطة الأنثربولوجى البريطانى إدوارد تيلور ، إذ جعل تيلور المسيحية جزءاً من مكونات الثقافة العلمانية .

والتغير الكبير في مفهوم الثقافة حدث في القرن العشرين ، حيث اعتبر علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع : «الثقافة طريقة شاملة لحياة المجتمع مادية وعقلية وروحية» .

وكان ت . س . إليوت من أهم المفكرين الذين أبرزوا علاقة الثقافة بالدين ، مع تأكيد أن الثقافة طريقة شاملة للحياة المادية والروحية والعقلية ، وذلك عام 1945 م . وبعد ذلك توالت التعريفات العديدة للثقافة ، وكلها تخريجات لهذه التعاريف التي ذكرناها . وسوف نذكر بعضاً منها :

تعريف اليونسكو للثقافة :

في عام 2002م صدر عن اليونسكو تعريف للثقافة نصه : «ينبغي أن ينظر إلى الثقافة على أنها مجموعة مميزة عن النواحي الدينية والعقلية والمادية والعاطفية للمجتمع أو لجماعة من الناس ، ولذلك فهي تشمل بالإضافة للفن والأدب ، أسلوب الحياة وطرق المعيشة معاً ، ونظم القيمة ، والعادات والعقائد»⁽¹⁾ .

وعندما اكتشفت الرمزية في أوروبا عرف ليسلى وايت الثقافة بأنها : «مجموعة من الرموز تفهم في محيطها وبيئتها»⁽²⁾ . ويعرفها الفيلسوف الأمريكي جون ديوى بأنها : «حصيلة التفاعل بين الإنسان وبيئته»⁽³⁾ .

ويعرف رالف لنتون الثقافة بأنها : «شكل متكامل من السلوك المكتسب ونتائجه ، يشترك في عناصره وينقلها أفراد مجتمع معين»⁽⁴⁾ .

(1) المصدر السابق .

(2) المصدر السابق .

(3) نصر محمد عارف ، كتاب : الحضارة . الثقافة . المدنية ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 1415هـ / 1995م .

(4) المصدر السابق ، ص 21 .

وهناك تعريفات أخرى عديدة وكلها تنطلق من المفهوم الأوربي والأمريكى الذى انطلق فى بدايته من مفهوم علمانى كامل لا يعترف بالدين ، ويعتبر الثقافة بديلاً عن المسيحية المقتدة فى المجتمعات الأوربية - فى ذلك الوقت - والذى تطور بعد أن تبين أهمية اتخاذ الدين المسيحى كمكون من مكونات الثقافة العلمانية الغربية. وهناك مفكرون أوروبيون وأمريكيون يعتبرون الدين المسيحى ديناً علمانياً ، واتخذوا أدلة من الإنجيل لتثبت آراءهم ، مثل : «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» .

بمعنى أن المفاهيم العلمانية هى التى تشمل جميع شئون حياة المجتمعات الأوربية والأمريكية . أما الدين المسيحى فيمثل جزءاً من هذه المفاهيم العلمانية . ومن ثم فإن المسيحية تمثل جزءاً من الثقافة العلمانية التى هى ثقافة المجتمعات الأوربية والأمريكية .

وهذه الاختلافات الكثيرة لمفهوم الثقافة ولمفهوم الحضارة - الذى مستناوله بعد ذلك - عند الأوروبيين والأمريكيين ، والذى انتقلت عدواه إلى كثير من المفكرين العرب ، يدل على اضطراب فكرى عند هؤلاء الغربيين وعدم فهم عند بعض المفكرين .

وهذا الاضطراب الفكرى ناتج عن خوف وقلق وشك وحيرة منذ حلت العلمانية محل مسيحية القرون الوسطى فى أوروبا .

ولذلك جاءت هذه الاختلافات الكثيرة المتباعدة بين أبناء الثقافة الواحدة - وهى الثقافة العلمانية المادية الأوربية الأمريكية - فى معرفة مفهوم الثقافة ومعناها ، لتوضح حالة الاضطراب لدى أبناء هذه الثقافة .

يرى بواز (Boas) أن الثقافة : «تتضمن على كل مظاهر العادات الاجتماعية في مجتمع ، ورد الفعل بالنسبة للفرد الذي تأثر بعادات تلك الجماعة التي يحيا فيها وتنتج الأنشطة البشرية كما تحددها هذه العادات»⁽¹⁾ .

ويعرف راد كليف براون الثقافة بأنها : «العملية التي يكتسب الفرد بواسطتها المعرفة والمهارة والأفكار والمعتقدات والأذواق والأعراف والعواطف ، عن طريق الاتصال بأفراد آخرين أو من خلال أشياء أخرى كما يكتسب الأعمال الفنية»⁽²⁾ .

ويعرف كروبر الثقافة بأنها : «مجموعة ردود الفعل الحركية المكتسبة والمتناقلة والعادات والتقنيات والأفكار والقيم والسلوك الذي يؤدي إليه»⁽³⁾ .

ويرى كل من العالمين كلوكهون وكيلي أن الثقافة هي : «كل تلك المخططات المعيشية التي وضعت على مدى التاريخ الظاهرة منها والضمنية والعاقلة وغير العاقلة ، والتي توجد في أي زمان معين لتوجيه سلوك الناس»⁽⁴⁾ .

ويعرف معجم المجمع الفرنسي - الذي ناقش كلمة ثقافة Culture ومفهومها في جلسة خاصة بالمعجم بتاريخ 29 يونيو 1972م - الثقافة بأنها : تطلق بالمعنى المجرد العام في مقابل كلمة (طبيعة) ، فهي العبقرية الإنسانية مضافة إلى الطبيعة بغية تحرير عطاءاتها وإغنائها وتنميتها»⁽⁵⁾ .

(1) د. أحمد بن نعمان ، باحث جزائري ، كتاب : الحضارة الإنسانية بين التصور الديني والنظريات الوضعية ، الجزء الأول ، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية ، لندن .

(2) المصدر السابق .

(3) المصدر السابق .

(4) المصدر السابق .

(5) نصر محمد عارف ، كتاب : الحضارة . الثقافة . المدنية ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 1415هـ / 1995م .

ويعرف مالفينوفسكى الثقافة بأنها : «جهاز فعال يمكن الإنسان من الانتقال إلى وضع أفضل يواكب المشاكل التي تواجه الإنسان في بيئته»⁽¹⁾.

وقد عبر جولدز هنرى عن هذا الاضطراب وهذه الحيرة في البحث عن مرجعية ثابتة بديلاً عن هذه المرجعية العلمانية المتغيرة التي تصبغ الثقافة الأوروبية بمفاهيمها فقال : «إن الإنسان الغربى باعتماده النظرية النسبية والتشكيك الدنيوى الحاد في الثبات والرفض المطلق ظاهراً أو خفياً لوجود إله متحكم في هذا الكون يسيّره وفق إرادته .. كل ذلك جعل الإنسان الغربى يشعر دائماً بالحاجة إلى قاعدة يبدأ منها التفكير حول ذاته ، وسواء أكان هذا الإنسان تاركيس أم هيغل أم كيركجارد أم ماركس أم الأنثروبولوجيين جميعهم ، فإنهم دائماً يبحثون عن نقطة ثبات مرجعية تقف عندها تطلعاتهم وتنطلق منها مقولاتهم»⁽²⁾.

وفي الحقيقة فإن الخلفية العلمانية للمفكرين والفلاسفة والأنثروبولوجيين الأوروبيين الذين تمكنوا من التوصل إلى مفهوم الثقافة ، أضفى على هذا المفهوم الصبغة العلمانية مما كان له أثر كبير في غموض مفهوم الثقافة عندما تم استخدامه وتطبيقه عند أصحاب الثقافات الأخرى البوذية والهندوسية والإسلامية ، ولكن بمرور الوقت وازدياد الوعي تم تبيين الفروق والتمايز بين العلمانية ، والمعتقدات الأخرى (البوذية والهندوسية والإسلام) ، وبالتالي الفروق والاختلافات بين الثقافات المختلفة . فالثقافة العلمانية الأوروبية تختلف عن الثقافة الصينية والثقافة الهندية والثقافة العربية والإسلامية ، وكذلك تم تبيين أن أساس هذه الفروق وهذا التمايز يرجع إلى المعتقدات الدينية التي يدين بها المجتمع .

(1) المصدر السابق .

(2) جولدز هنرى ، مصطلح البداية عند كيركجارد وهابدرجر في أشل مونتايجو ، البداية ، ترجمة د. محمد عصفور ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد 53 ، مايو 1982م .

في بداية القرن العشرين تبين المفكرون الأوروبيون والأمريكيون عمق التغييرات التي أحدثتها العلمانية في مجتمعاتهم وسلبياتها :

كان تبين مفهوم الثقافة عاملاً مهماً لفهم التغييرات العميقة التي حدثت في المجتمعات الأوروبية ، في المدة من القرن الخامس عشر الميلادي وحتى القرن العشرين ، وقد ذكر ذلك كثير من المفكرين الأوروبيين^(١).

فالمجتمعات الأوروبية المسيحية في الفترة الممتدة من سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الرابع الميلادي إلى القرن الخامس عشر الميلادي وهو ما أطلق عليه العلمانيون الأوروبيون العصور الوسطى أو عصور الظلام - كانت هذه المجتمعات ثقافتها مسيحية .

وكما هو معروف فإن أوروبا مرت بفترات طويلة من الحروب امتدت لعدة قرون ، حيث تعرضت الكنيسة ورجال الدين المسيحي لفترات طويلة - امتدت قرنين - للنقد والشك وعدم الرضا عن سلطات الكنيسة المتحالفة مع سلطات الملوك ورجال الإقطاع ، وما تبع ذلك من حروب دينية أدت إلى نشأة البروتستانتية ، وما تبع ذلك من ثورة الشك والإلحاد التي عمت كل أنحاء أوروبا ، وبذلك بدأت سيطرة العلمانية على المجتمعات الأوروبية منذ ذلك الوقت وحتى الآن .

وعندما تبين المفكرون الأوروبيون والأمريكيون مفهوم ومعنى الثقافة في بداية القرن العشرين ، تبين لهم أيضاً أن ثقافة مجتمعاتهم الأوروبية هي ثقافة علمانية مادية ، وهي تناقض الثقافة المسيحية التي كانت سائدة ومسيطرة في فترة العصور الوسطى ، وأن التقارب مع المفاهيم المسيحية يجب أن يستمر ، وبعض هؤلاء المفكرين اعتبر المسيحية ديناً علمانياً ، وهو ما سوف نتناوله بالتفصيل في أحد فصول هذا الكتاب .

(١) ريموند وليامز ، الثقافة والمجتمع 1780 - 1950 م ، ترجمة وجيه سيمان - مراجعة محمد فتحي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986 م .

2- مفهوم الثقافة من منظور صيني :

عندما قامت الثورة الشيوعية في الصين كان مفهوم الثقافة العلماني الغربي قد ترجم إلى اللغة الصينية ، ولكن الصينيين لم يستخدموا المفهوم العلماني ليعبر عن ثقافتهم ، ولكنهم استخدموا مفهومًا يعبر عن إيمانهم بالبوذية والكونفوشيوسية والتاوية .

وقد استعملت الثورة الصينية مصطلح «الثقافة الصينية» في مجابهة الثقافة العلمانية الغربية ، عندما كان الصراع محتدمًا بين الشيوعية والرأسمالية في النصف الثاني من القرن العشرين .

وقد احتفظت الصين بمفاهيمها الثقافية البوذية ولم تتخل عنها ، ولم تتأثر كثيرًا بالمفاهيم العلمانية الغربية ، رغم تعدد الثقافات الفرعية نتيجة لوجود الكونفوشيوسية بجانب البوذية . وبعض المفكرين الغربيين يعتبرون أن الصين لها ثقافات متعددة تبعًا لدياناتها الكونفوشيوسية والتاوية والبوذية⁽¹⁾ .

والفضل في ذلك يرجع لقادة الثورة الصينية الذين حافظوا على وحدة الثقافة الصينية ووحدة المجتمع الصيني دون تمزق وصراعات ثقافية داخلية ، وذلك عكس بعض البلاد العربية والإسلامية التي تأثرت بالغزو الفكري الاستعماري ، وما أحدثته النخب العلمانية والمتغربة من تمزق ثقافي واجتماعي أدى إلى تأخر كثير من بلادنا عن البلاد الأخرى .

فالنخب العلمانية المتغربة كانت من أكبر الأسباب التي أدت إلى تأخر كثير من البلاد الإسلامية والعربية عن مثيلاتها من الدول الأخرى .

(1) ستيفن أوين ، جامعة هارفارد ، موسوعة ويكيبيديا ، Free Encyclopedia .. Wikipedia شبكة الإنترنت .

وتعتبر الثقافة الصينية والثقافة الهندية من أقدم الثقافات الحية الموجودة الآن ، وهما يمثلان حضارتين حيتين من أقدم الحضارات في العالم .

ومعنى ثقافة حية وحضارة حية أنها تمثلان مجتمعًا معاصرًا موجودًا الآن، يؤمن بالمعتقدات الدينية التي قامت عليها تلك الثقافة وتلك الحضارة . وذلك عكس الثقافات والحضارات التي بادت ولم يبق منها إلا الآثار الدالة عليها مثل الثقافة والحضارة العيلامية والآشورية والبابلية والفارسية والمصرية القديمة ..

فهذه الثقافات والحضارات التي بادت والتي تركت آثارًا تدل عليها ، ليست حية ، بمعنى أنه لم يعد هناك مجتمعًا يؤمن بالمعتقدات الدينية التي قامت عليها تلك الثقافات وتلك الحضارات .

والثقافة الصينية الحية الموجودة الآن ، والتي هي ثقافة المجتمع الصيني الموجودة الآن ، قائمة على المعتقدات البوذية ولها مفاهيمها ومعطياتها الصينية البوذية .

والمراجع الصينية تعرف الثقافة الصينية بأنها : «طريقة حياة المجتمع الصيني» . يقول جون هـ . بادلي : «المراجع الصينية في تعريفها لمفهوم الثقافة تميل للقول بأن الثقافة الصينية هي طريقة حياة المجتمع الصيني»⁽¹⁾ .

ويقول ستيفن أوين عن الثقافة الصينية : «وما يطلق عليه الثقافة الصينية هو مفهوم حديث تشكل أثناء الثورة الصينية ، وأصبح واضحًا في مواجهة الثقافة الغربية»⁽²⁾ .

ثم يقول : «وقد عبرت امرأة صينية أحسن تعبير عن مفهوم الصين للثقافة الصينية عندما قالت تلك المرأة التي تدعى زنجورن : نحن الصينيين عندنا ذلك

(1) Wikipedia .. Free Encyclopedia. Jon H. Badly, 1994. شبكة الإنترنت.

(2) المصدر السابق .

الاعتقاد أو تلك الممارسة هكذا دون فرضية التدخل من أحد ، ولكنه استيقظ عندما بدأ الصراع الثقافي مع أمريكا وروسيا⁽¹⁾ .

أى أن السيدة زنجورن تقول : إن اعتقاد الصينيين وممارستهم الدينية موجودة وتلقائية ، لأنهم يؤمنون بها ويمارسونها بطقوسها منذ خمسة آلاف عام ، فلما حلّ الصراع الثقافي أصبحت مهمة ، وتم استدعاؤها واستخدامها في الصراع الثقافي .

وفي مواجهة الثقافة والحضارة العلمانية الغربية ظهر ما يسمى بالكونفوشيوسية الحديثة للمحافظة على التقاليد الصينية والمفاهيم الصينية وحمايتها من الغزو الفكرى الأوروبى الحديث .

وقد ظهرت الكونفوشيوسية الحديثة لتعبر عن نزعة المحافظة على الثقافة الصينية التقليدية ، وفي الوقت نفسه تسير التقدم : «فهى تقوم على ترسيخ أقدام التقاليد ودمج الماضى بالحاضر ومسيرة متطلبات العصر» ، وتم إجمال تلك النزعة وتطويرها إلى التيار الفكرى المعروف بـ «العلم الكونفوشيوسى الحديث» . ويدعو العلم الكونفوشيوسى الحديث إلى البعث الحديث للمذهب الكونفوشيوسى ، وتوارث الفكر الثقافى للكونفوشيوسية بوصفه الهدف الرئيسى ، ... «ولكن بعد اجتياز العاصفة الهوجاء للتيار الفكرى المعارض للتقاليد تقدمت الكونفوشيوسية الحديثة باقتراح العودة للأصل وبدء الجديد ، وإعادة بناء القاعدة الثقافية ، وإعادة تنظيم أفكار الاستجابة للحديث⁽²⁾» .

3- انتقال المفهوم العلمانى الغربى للثقافة إلى البلاد العربية والإسلامية :

يعتبر سلامة موسى أول من قام بنشر المفهوم العلمانى الغربى للثقافة فى مصر .

(1) المصدر السابق .

(2) ووين ، كتاب : «الصينيون المعاصرون» ، ترجمة د. عبد العزيز حمدى ، مراجعة د. لى تشين تشونج .

عالم المعرفة ، الكويت ، 1996م .

هل كان ذلك لعدم درايته بالمفهوم العلماني للثقافة واختلافه عن المفهوم الإسلامي للثقافة؟! ..

وكذلك اختلافه عن المفهوم الصيني والمفهوم الهندي للثقافة ؟ ..

أم كان ذلك بقصد وسوء نية ؟!

وقد قام سلامة موسى بنشر الأفكار العلمانية للثقافة في مصر ، في الوقت الذي قامت فيه دولة أتاتورك العلمانية في تركيا تقريباً ، إذ نشر سلامة موسى آراءه سنة 1927م في مجلة الهلال .

يقول سلامة موسى : «كنت أول من أفشى لفظة الثقافة في الأدب العربي الحديث ولم أكن أنا الذي سكها بنفسه فإني انتحلتها من ابن خلدون ، وإذ وجدته يستعملها في معنى شبيه بلفظة «كلتور» Culture الشائعة في الأدب الأوربي . والثقافة هي المعارف والعلوم والآداب والفنون يتعلمها الناس ويتثقفون بها ، وقد تحتويها الكتب ، ومع ذلك هي خاصة بالذهن . أما الحضارة فمادة محسوسة في آلة تخترع وبناء يقام ونظام حكم محسوس يمارس ، ودين له شعائر ومناسك وعادات ومؤسسات . فالحضارة مادية أما الثقافة فذهنية»⁽¹⁾ .

وقد سار كل من جاء بعده على أثره في فهم وتعريف الثقافة ، ومعظم المفكرين العرب نقلوا المفهوم العلماني ، فمنهم من يعرفها بمفهوم القرن الثامن عشر الميلادي في أوروبا ، إذ كانت الثقافة تعنى تهذيب العقل والنفس وهو تعريف كولردج ، أو كانت تعنى الكمال الإنساني وهو تعريف ماثيو أرنولد وغيره . ومنهم من يعرف الثقافة بمفهوم القرن التاسع عشر في أواخره مثل التعريف الذي وضعه إدوارد تيلور سنة 1871م .

(1) سلامة موسى ، «الثقافة والحضارة» ، مجلة الهلال (ديسمبر 1927م) القاهرة ، نصر محمد عارف كتاب : الحضارة . الثقافة . المدنية ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، والمعهد العالي للفكر الإسلامي ، 1415هـ / 1995م .

وبعض المثقفين العرب والمسلمين الذين نسجوا على منوال سلامة موسى وغيره من المثغرين العرب والمسلمين يعرف الثقافة بالمفهوم الذى وضعه إلبوت فى القرن العشرين .

ومنهم من يعرفها بأنها : « طريقة شاملة للحياة المادية والروحية والعقلية بالنسبة لمجتمع ما » . وهو المفهوم الذى برز عند علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فى القرن العشرين .

وغير ذلك من التعريفات الكثيرة التى برزت طوال الفترة الممتدة من 1789م وحتى الآن . ومعظم هذه التعريفات انطلقت من مفهوم علمانى غربى ، ذلك أن الخلافة الإسلامية كانت قد سقطت واستولى أتاتورك على مقاليد الحكم فى تركيا ، واحتلت البلاد العربية والإسلامية بواسطة الاستعمار الإنجليزى والفرنسى ، وقامت نخبة العلمانيين والمثغرين بنشر الأفكار التغريبية والعلمانية فى جميع أنحاء العالم الإسلامى .

إلا أن هذا الاتجاه العاتى المدعوم والمحمى بواسطة الاستعمار الأوروبى ووجه بمقاومة عنيفة على الأرض وفى الفكر أيضا ، فكان للأزهر الشريف فى مصر وكثير من المعاهد الإسلامية فى البلاد الإسلامية دور كبير فى مقاومة هذا الغزو الفكرى ، وكان العلماء المسلمين المتميزين أمثال : جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده والشهيد حسن البنا دور عظيم فى مجابهة هذا الغزو الفكرى والثقافى .

4- نقد مختصر للتعريفات التى وضعها المفكرون الأوربيون لمفهوم الثقافة :

كل التعريفات التى وضعت لمفهوم الثقافة - التى قاربت 200 تعريف كما ذكرنا سابقا - إما تعريفات قام بوضعها العلماء والمفكرون الأوربيون والأمريكيون وإما تعريفات قام بوضعها علماء ومفكرون غيرهم - أى من ثقافات أخرى - تقليداً لهم تحمل نفس المفهوم العلمانى الغربى فى الغالب الأعم .

والمائتا تعريف - تقريباً - التى قام بوضعها المفكرون الأوروبيون والأمريكيون، إما تعريفات مبنية على التعريفات التى وضعت قبل منتصف القرن التاسع عشر - وهى الخاصة بمحاولات البحث عن بديل للدين فى ظل العلمانية المسيطرة على المجتمعات الأوروبية - وإما تعريفات مبنية على التعريف الذى وضعه إدوارد تيلور سنة 1871م، أو تعريفات الأنثروبولوجيين، وتعريف ت. س. إليوت فى النصف الأول من القرن العشرين.

ويمكن تقسيم هذه التعريفات الأوروبية والأمريكية التى وضعت لمفهوم الثقافة من منطلق علمانى إلى الأقسام التالية :

* الثقافة بديل عن الدين المسيحى :

كما ذكرنا فإن العلماء والمفكرين الأوروبيين كان بعضهم يتساءل : كيف يكتب البقاء لدولة دون ديانة تحفظ المجتمع من التحلل ؟ وذلك فى أواخر القرن السابع عشر ، وأوائل القرن الثامن عشر عندما انزوت المسيحية وحلت محلها الأفكار العلمانية .

فجاءت محاولات العلماء والمفكرين الأوروبيين فى الفترة الممتدة من 1780 إلى 1850م - التى فصلنا فيها تطور اللفظة والمفهوم بعد التوصل إليهما - استجابة لهذا التساؤل وهذا الوضع الذى استشعره بعض المفكرين أمثال : فولتير وروسو . وقد ذكرنا فيما سبق محاولات بعض العلماء للتوصل لللفظة «ثقافة» وللمفهوم الذى تغير بمرور الوقت لهذه اللفظة .

* بعض المفكرين الأوروبيين والأمريكيين رفضوا مفهوم الثقافة بديلاً عن الدين المسيحى :

كان العداء الإنجليزى لللفظة ثقافة ذا أثر كبير وتدميرى ، يقول ريموند وليامز فى مجال تعليقه على اجتهادات أرنولد وغيره : «ليس صعباً أن تشعر بالأثر الذى تركه

وصف القديس بولس للإحساس ، ومن المحتمل وجود تحويل للعاطفة من المفهوم القديم للمفهوم الجديد وربما بطريقة غير واعية ، وإن كان أمرًا سقييًا على أى حال . وحالما تعتبر الثقافة بديلاً للدين فإنها تصبح ذات قدر مشكوك فيه للغاية وبوجه خاص عندما تؤخذ في أضيق معانيها كما يحدث في أغلب الأحيان⁽¹⁾ .

ومن الكتاب الإنجليز الذين هاجموا لفظة الثقافة وما تحمله من مفهوم آنذاك ج . س . شارب ، فقد قال عنها سنة 1870م : «إنها لفظة فيها افتعال وتصنع»⁽²⁾ .

وأيضاً المفكر الإنجليزى فردريك هاريسون الذى قال عن الثقافة ومفهومها في ذلك الوقت إنها : «ذلك الكرب المخلل الذى هو الثقافة»⁽³⁾ .

ويذكر ريموند وليامز أن الهجوم الإنجليزى على لفظة ثقافة - ومفهومها في ذلك الوقت من أواخر القرن التاسع عشر - كان ذا أثر تدميرى ، ويقول : «ولم أعثر قبل عام 1860م على إشارة عدائية أو ساخرة - من لفظة ومفهوم ثقافة - ولكن انتشرت تلك الإشارات في عام 1870م»⁽⁴⁾ .

فالهجوم على لفظة ثقافة ومعناها في ذلك الوقت كان من منطلق أنها تمثل بديلاً عن المسيحية التى انزوت وحلت محلها الأفكار العلمانية ، أو لأنها لم يتبلور مفهومها ليصبح لها تأثير مسيطر على المجتمع بديلاً عن المسيحية .

* الدين المسيحى ليس إلا عنصراً من العناصر المكونة للثقافة العلمانية للمجتمعات الأوروبية :

في عام 1871م قام المفكر البريطانى إدوارد ب . تيلور بوضع تعريف للثقافة -

(1) ريموند وليامز ، الثقافة والمجتمع 1780 - 1950م ، ترجمة وجيه سمعان - مراجعة محمد فتحي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986م .

(2) المصدر السابق .

(3) المصدر السابق .

(4) المصدر السابق .

من وجهة نظر علمانية - لاقى قبولاً كبيراً عند الأوروبيين والأمريكان ، حتى أن الموسوعة الأمريكية⁽¹⁾ لا زالت تتخذ التعريف الوحيد للثقافة .

وتيلور هنا - بوصفه مفكراً علمانياً - يعتبر الدين المسيحي جزءاً من ثقافة المجتمعات الأوروبية والأمريكية العلمانية .

وهذا التعريف الذى قام بوضعه إدوارد تيلور لا ينطبق إلا على الثقافة العلمانية الأوروبية والأمريكية فقط ، حيث مرجعية هذه المجتمعات الغربية مرجعية علمانية - وليست مرجعية مسيحية ، فالمرجعية المسيحية التى كانت سائدة من قبل فى المجتمعات الغربية حلت محلها المرجعية العلمانية - ولذلك فهذا التعريف للثقافة لا ينطبق إلا على الثقافة العلمانية الغربية الحديثة .

وهذا التعريف لا ينطبق على المجتمعات الإسلامية ، وذلك لأن الدين الإسلامى يشمل جميع جوانب الحياة بما فيها الثقافة والحضارة .

فالثقافة الإسلامية - ثقافة المجتمعات العربية والإسلامية - لا تمثل إلا جانباً واحداً من معطيات ومفاهيم الدين الإسلامى الذى يشمل جميع جوانب الحياة للأفراد والمجتمعات الإسلامية . والمرجعية الإسلامية هى مرجعية المجتمعات الإسلامية .

كما أن هذا التعريف الذى وضعه تيلور لا ينطبق على المجتمعات البوذية فى الصين والهند ودول جنوب شرق وجنوب آسيا البوذية ولا ينطبق على المجتمعات الهندوسية فى الهند وغيرها من دول آسيا ، فثقافة هذه المجتمعات قائمة على معتقداتها الدينية .

(1) Grolier Encyclopedia (also published under the title: American Encyclopedia). Culture.

* الالتباس والغموض في معنى الثقافة عند الأوروبيين والأمريكيين يرجع إلى الفكر العلماني نفسه :

إذا أخذنا تعريف اليونسكو لمفهوم الثقافة أو التعريف الذي أورده بعض الموسوعات الغربية مثل موسوعة ويكيبيديا أو غيرها من التعريفات الحالية ، نجد أن هذه التعريفات مبنية على التعريف الذي أورده إدوارد تيلور سنة 1871م ، وتعريفات الأنثروبولوجيين الأوروبيين في أوائل القرن العشرين .

فالتعريف الحالي الذي أورده موسوعة ويكيبيديا الذي يقول : «الثقافة هي طريقة الحياة لكل مجتمع ، ولذلك فهي تشمل مجموعة القوانين والملابس ، واللغة والعقيدة والطقوس والشعائر وقواعد السلوك ونظم الاعتقاد»⁽¹⁾ .

فهذا التعريف مشتق من تعريف تيلور وتعريف الأنثروبولوجيين الأوروبيين الذي يقول : «الثقافة هي طريقة حياة المجتمع الروحية والعقلية والمادية» .

وكذلك تعريف اليونسكو لمفهوم الثقافة - والذي أورده سابقاً - فهو مشتق أيضاً من تعريف تيلور وتعريف الأنثروبولوجيين الأوروبيين . وكذلك يمكن تتبع التعريفات الأخرى الحالية ، والتي تؤكد هذا المفهوم وهذا الاشتقاق من التعريفين المذكورين .

ومن الملاحظ أن بعض المفكرين العرب والمسلمين استعملوا نفس المفهوم العلماني الغربي للثقافة في شرحهم وتأصيلهم لمفهوم ثقافتنا ، دون الوعي بالاختلافات الجوهرية في المفاهيم ، وبالخلفيات الفكرية والدينية والثقافية للمفكر أو الأنثروبولوجي الذي يقوم بوضع التعريف لمفهوم الثقافة .

فتعريف إدوارد تيلور لمفهوم الثقافة ، وكذلك تعريف الأنثروبولوجيين لمفهوم الثقافة في أوائل القرن العشرين ، مبنى على أساس أن الفكر العلماني هو السائد

(1) موسوعة ويكيبيديا .. Free Encyclopedia .. شبكة الإنترنت .

والسيطر على المجتمعات الغربية . أما الدين تدين به هذه المجتمعات الغربية فهو يمثل جزءاً أو عنصراً من عناصر الثقافة العلمانية ، وطريقة حياة المجتمعات الأوربية والأمريكية في هذه الحالة لا يشكلها الدين المسيحي ، ولكن يشكلها الفكر العلماني السائد والسيطر .

وفي زعم المفكرين الأوربيين والأمريكيين أن هذا ما يجب أن ينطبق على الثقافات الأخرى ، أى أن الفكر العلماني الغربى يجب أن يسود ويسيطر على المجتمعات الأخرى - بصرف النظر عن ديانات هذه المجتمعات - وبالتالي فمفهوم الثقافة في المجتمعات يجب أن يتبع نهج المفهوم العلماني الغربى للثقافة ، فلا تكون هناك ديانات سماوية سائدة ومسيطرة ولها مفاهيم تتبعها المجتمعات .

وقد ذكر ستيفن أون أن الأوربيين ابتدعوا فكرة الثقافة وكان من السهل استخدامها - وليس الدين - في الغزو الفكرى والتغريب (التحديث) بدلاً من التنصير الذى كان يلاقى مقاومة شديدة ورفضاً أبدياً من أصحاب الديانات الأخرى ، سواء كانت ديانات سماوية كالإسلام أو غير سماوية كالبودية والهندوسية^(١) .

والفكر العلماني الغربى يعتبر أن الإنسان نشأ على الأرض من مخلوقات أقل منه في مضمار التطور ، وهى القرود التى تطورت من مخلوقات أقل منها .. وهكذا حسب نظرية التطور والارتقاء لداروين .

وحسب مفهوم هذا الفكر العلماني أن الإنسان البدائي ظل يقاوم ويصارع الطبيعة ، ويتغلب على ما يعترضه من عقبات في سبيل تحصيل القوت الضرورى له . وفى سبيل حماية نفسه من الهلاك استطاع أن يتعلم الزراعة ويتعلم اللغة ، وكان تعلم اللغة هو الخطوة الكبرى التى جعلت تعقد الثقافة الإنسانية محتملة . ويزعم

(١) موسوعة ويكيبيديا . Free l'ncyclopedia . شبكة الإنترنت .

أصحاب الفكر العلماني - الذين لا يرون أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق آدم وعلمه الأسماء كلها - أن الإنسان بعد أن تعلّم اللغة واستعمل العلامات أخذ يتبادل الاتصال والأفكار مع غيره من أبناء جنسه .

وقد ذكر عالم الآثار البريطاني ف . جوردن شيلد⁽¹⁾ : «أن هناك عدة عوامل اعتقد أنها ضرورية لتحويل الثقافة إلى حضارة ، وهي : اختراع الكتابة والتعدين ومعرفة وحدات القياس والأوزان والرياضيات وتجارة المسافات الطويلة وتكنولوجيا الري والتخصص في الفن والإنتاج الزائد عن الحاجة واستعمال المحراث في حرث الأرض ووسائل الجر ذات العجلات ...

ومن ذلك يتضح أن الفكر العلماني هو فكر مادي يعتبر أن الطبيعة هي التي خلقت بدون خالق - سبحانه وتعالى عما يشركون - وأن الحياة قامت على الأرض نتيجة للتطور حسب نظرية داروين ، وأن الإنسان هو آخر سلسلة تطور الأحياء ، وأن الثقافة والحضارة قامت نتيجة هذا التطور .

ونظرة العلمانية للأديان على أنها خرافة اخترعها الإنسان ، وأن الكون لا يوجد له خالق ، وأن الإنسان خلق حسب نظرية التطور دون خالق .

ومع أن العلماء أثبتوا عدم صحة نظرية التطور والارتقاء لداروين ، إلا أن الفكر العلماني - القائم على نظرية داروين وعلى نظرية فرويد - ما زال موجوداً .

وقد عبر دوف هنس في سبتمبر 2006م عن غموض والتباس الثقافة العلمانية الغربية الحديثة خير تعبير ، وأرجع ذلك إلى الثقافة العلمانية الغربية نفسها ، وذلك عكس الثقافة الإسلامية التي تتميز بالشفافية والوضوح ، لأنها ترجع لأصل ديني واحد . وقد جاء في مقال دوف هنس : «الثقافة الغربية ثقافة متطورة من تلقاء نفسها باستمرار ، وتشمل في بنيتها العلم ، وقد بدأت في أوروبا الغربية وتأثرت بعدة

(1) Groher Academic Encyclopedia. Civilization.

عوامل قومية ومحلية واثنية ودينية ، ومن سماتها أن لها مرونة على التكيف باستمرار مع كل علم بدرجات مختلفة ، كما أن لها مجموعة من المتغيرات التقليدية فوق الطبيعة والخاصة بالمظاهر الإحيائية ، وقد تغيرت الثقافة الغربية الأوروبية عبر العصور ، ويوجد حدود لتعريفها بسبب غموض والتباس الثقافة العلمانية الغربية نفسها⁽¹⁾ .

وقد اعترض كمبس كرافى عليه لأنه جعل ثقافة الغرب العلمانية تنتمى إلى أصول تاريخية وجغرافية ، بينما جعل ثقافة الدول الإسلامية المختلفة تنتمى إلى دين واحد هو الإسلام⁽²⁾ .

ويجب ألا ننسى أن المجتمعات الأوروبية كانت ثقافتها هى الثقافة المسيحية طوال فترة القرون الوسطى ، حيث كانت الديانة المسيحية هى السائدة والمسيطرة .

ومنذ انهزام الفرنجة فى الحروب الصليبية - كان آخر خروج للصليبيين من الديار الإسلامية سنة 1291م - بدأت تغيرات كبرى بعد أن تعرضت المسيحية للنقد والتجريح والتشكيك . وما تبع ذلك من حروب دينية عمقت كل أوروبا لمدة قرنين من الزمان ، حيث قامت الديانة البروتستانتية وما تبع ذلك من سيطرة الفكر العلمانى والمعتقدات المادية العلمانية على المجتمعات الأوروبية لتحل محل المعتقدات المسيحية ، وكانت العلمانية بمثابة الدين الجديد لأوروبا .

ومن هنا كانت ثقافة المجتمعات الأوروبية هى الثقافة العلمانية المادية .

ومنذ أن وضع تبلور تعريفه لمفهوم الثقافة عادت المسيحية لتمثل عنصراً من العناصر المكونة للثقافة العلمانية ثقافة المجتمعات الأوروبية والأمريكية .

(1) Anthropology not. Western Culture. Awaits definition by Dov Henis, Septamper 2006.

(2) المصدر السابق .

خلاصة

1- اسم ثقافة بمفهومه المعروف حاليا اسم ومفهوم جديد لم يكن معروفا قبل 1780م ، وكان الأوربيون هم الذين اخترعوه نتيجة للظروف التي كانت تمر بها المجتمعات الأوربية من جفاف روحى نتيجة للنظم العلمانية . وقد استمر البحث من سنة 1780 إلى 1850م حتى تم التوصل لهذا المفهوم واختير لفظ ثقافة اسماله .

كانت المراحل الأولى لاكتشاف فكرة الثقافة هى محاولة تبين مجموعة من النشاطات العقلية والمعنوية متفصلة عن المجرى العام لحياة المجتمعات الأوربية واتخاذها كمراجع يحتكم إليه .

وكانت الفنون فى تلك الفترة قد اكتسبت مفهوما جديدا فقد كانت كلمة فن قبل ذلك تعنى مهارة إنسانية ، فيقال فن الخطابة ، فن فلاحة الأرض فأصبحت كلمة فن تعنى مجموعة من النشاطات ذات طبيعة تخيلية خاصة ، وهذه الفكرة عن الفن نمت وتطورت . وأصبحت المشاعر الوجدانية التى يستشعرها الإنسان عند قراءته لعمل أدبى أو تأمله لعمل فنى ، والتى تبعث فى النفس الإحساس بالجمال وكأنها تعويض عن النواحي الروحية المفقدة .

وعندما ظهرت لفظة Cultivation وظهر تعبير القلة المهذبة Cultivated فى مواجهة الغوغاء كان هناك من المفكرين من يربط كلمة تهذيب بالناحية الفنية الجمالية فى القصائد الشعرية ، وفى تلك الفترة كان تعبير القلة المهذبة قد انتشر فى كتابات المفكرين، وقد نادى بعض المفكرين بتهذيب العقل وبأهمية تلك النشاطات العقلية والمعنوية .

ففكرة تهذيب التى استخدمها المفكرون أصبحت تعنى تهذيب النفس والعقل وأصبحت تعنى التدريب الإنسانى للعقل ، وكان معناها قبل ذلك اتجاه النمو الطبيعى، وهو معنى يتعلق بالنبات ونموه والزراعة .

وكان كولردج أول من استخدم لفظة تهذيب أو ثقافة لتشير إلى وضع عام أو حالة عقلية عامة أو عادة عقلية عامة .

والمفكرون يعتبرون كولردج وراسكن هما أصل اختيار لفظة ثقافة ، وأصل الوصول لهذا المفهوم الجديد .

ومنذ اكتسبت لفظة تهذيب أو ثقافة وضعًا عامًا بدأت فكرة الثقافة تدخل بشكل حاسم فى التفكير الاجتماعى الإنجليزى .

وقد ساهم كثير من الكتاب والمفكرين فى بلورة فكرة الثقافة ، منهم : صمويل تيلور كولردج وراسكن وادموند بيرك ووليام كوانت وماثيو أرنولد ونيومان وجون استيوارت ميل وجريمى بنتام وتوماس كارليل .

2- وبعد ذلك تطور مفهوم الثقافة بعد 1850م ، ففى عام 1871م قام المفكر البريطانى إدوارد تيلور بتعريف الثقافة : «بأنها ذلك المركب الكلى المعقد الذى يشمل : المعرفة والاعتقاد الدينى ، والفن والقانون والتعاليم الأخلاقية والعادات ، وأى مقدرات مكتسبة بواسطة الفرد بوصفه عضوًا فى المجتمع فى القرن العشرين» . ثم برز مفهوم جديد عند علماء الاجتماع والأنثروبولوجى الأوربيين وهو الثقافة.. طريقة شاملة للحياة الروحية والعقلية والمادية ، وتبنى إليوت العودة لمجتمع مسيحى حقيقى أوربى فى كتابه «فكرة مجتمع مسيحى» عام 1939م .

وقد استخلص عدة نتائج تتعلق بالثقافة وتطورها وخاصة فى اتجاه العودة للمسيحية ، وذلك فى كتابه «ملاحظات نحو تعريف الثقافة» الذى صدر سنة 1945م ، وأهم هذه النتائج قوله : «إن أول دعوى أقيمها هى أنه لم تظهر ثقافة

ولا تمت إلا بجانب وجود دين . ومن هنا تبدو الثقافة نتيجة من نتائج الدين أو الدين نتيجة من نتائج الثقافة طبقا لوجهة نظر الناظر . وكأنه يقصد بقوله إن الثقافة نتيجة من نتائج الدين بالنسبة للذين يؤمنون بدين سماوى ، فهذه وجهة نظرهم .

ويقصد بقوله : أو الدين نتيجة من نتائج الثقافة بالنسبة للعلمانيين فهذه وجهة نظرهم ، أو يقصد أنه لم يستقر على رأى لأنه يقول فى موضع آخر من الكتاب : الثقافة هى الدين والدين هو الثقافة ، ويقول : إنه لا يدرك العلاقة بين الدين والثقافة إلا لمحا ، وهو متأثر برأى تيلور فى اعتبار الدين المسيحى جزءا من أجزاء الثقافة العلمانية .

وفى عام 1950م كانت كتابات ليفى شتراوس عن البنيوية لها تأثير كبير فى الفكر العلمانى الأوروبى ، وفى كتابه المدارات الحزينة الذى نشر سنة 1955م ، والذى ذكر فيه أبحاثه عن البنيوية ، والتى تنطلق من فكر علمانى مادى لا غيبى ، فإذا أبحاثه تقوده إلى غيب أو ميتافيزيقا فانهارت البنيوية ، وجاءت فترة ما بعد البنيوية ، وكان هذا يعنى العودة للدين المسيحى . وكان من تلامذه شتراوس المحافظين الجدد فى أمريكا أمثال : رامسفيلد وبول وولفتز ووليم كريستول وغيرهم ، وهم الذين فازوا فى الانتخابات الأمريكية الأخيرة ، وكان لهم دور بارز فى التغييرات الثقافية فى أمريكا ، حيث تعزز دور الدين المسيحى فى أمريكا ، وفى الثقافة الأمريكية والثقافة الغربية عموما .

3- هناك حوالى 200 تعريف للثقافة وقد ذكرنا بعضها منها فى البحث ، وهى تمثل تعريفات للثقافة فى مراحل تطورها منذ عام 1780م ، وحتى الآن ، حيث هناك تعريف للثقافة لليونسكو وغيرهم .

وفى الصين كان للنظام الشيوعى الصارم وتمسكه بالشيوعية والتقاليد الصينية فى عجاوبة الرأسمالية ، أثره فى احتفاظ الصين بمفاهيمها الثقافية البوذية والتاوية والكونفوشوسية .

وفي مواجهة الثقافة والحضارة العلمانية ظهر ما يسمى بالكونفوشيوسية الحديثة للمحافظة على التقاليد والمفاهيم الثقافية الصينية ، وحمايتها من الغزو الفكري .

وقد ذكرت في البحث كيف انتقل المفهوم العلماني الغربي للثقافة إلى البلاد العربية والإسلامية بواسطة سلامة موسى الذي نشر آراءه في مجلة الهلال سنة 1927م.

وقد سار كل من جاء بعده على أثره في فهم وتعريف الثقافة .

وقد ذكرت في هذا البحث نقدًا مختصرًا للتعريفات التي وضعها المفكرون لمفهوم الثقافة ، وسبب الالتباس والغموض في معنى الثقافة عند الغربيين .

البُطْلَانُ الثَّانِي

كيف نشأت فكرة الحضارة ؟

وما مفهومها ؟

أولاً - عبد الرحمن بن خلدون - مكتشف علم الاجتماع - أول من استخدم فكرة الحضارة كفكرة مستقلة لها مفهومها .

عاش عبد الرحمن بن خلدون بين سنتي 1332 - 1406م ، وهو شخصية عالمية في مجال العلوم الإنسانية بجانب صفاته الأخرى ، فهو مؤرخ وفيلسوف ودبلوماسي ومحارب ، وأول من اكتشف علم الاجتماع ، وترجمت مقدمته إلى جميع اللغات تقريباً .

وعبد الرحمن بن خلدون هو أول من استخدم فكرة الحضارة كفكرة مستقلة ، فالحضارة في مفهوم عبد الرحمن بن خلدون عكس البداوة ، والعرب كانوا يفتخرون بحياة البادية ، والشاعر العربي يقول :

ومن تكن الحضارة أعجبتَه فأى رجال بادية ترانا

وإذا كانت البادية تتصف بشظف العيش وجفاف المناخ والتنقل وعدم الاستقرار ، فإن حياة الحضر تتميز برغد العيش وطيب المقام والرفاهية . فالحضارة بالنسبة للبدوى هي الانتقال من حياة التنقل وشظف العيش إلى حياة الاستقرار ، والرفاهية ، برغم أن حياة البادية لها ميزة في عرفة عن حياة الحواضر .

وكانت مرحلة التقدم والازدهار التي بلغت الحضارة الإسلامية قد انعكست آثارها على فكر عبد الرحمن بن خلدون ، فهو يعتبر أن الحضارة هي التفنن في الترف واستجادة الأحوال والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه مثل الصنائع المهيئة لعمل وصناعة المطابخ أو الملابس أو المبانى أو الفرش أو الآنية ...

يقول ابن خلدون في كتابه « المقدمة » تحت عنوان : (في أن الحضارة غاية العمران ونهاية عمره وأنها مؤذنة بفساده)⁽¹⁾ : « قد بينا لك فيما سبق أن الملك والدولة غاية للعصية ، وأن الحضارة غاية للبداءة ، وأن العمران كله من بداءة وحضارة وملك وسوق لها عمر محسوس ، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً ، وتبين في العقول والمنقول أن الأربعين للشخص غاية في تزايد قواه ونموها ، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط ، فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضًا ، كذلك لأنه غاية لا مزيد وراءها وذلك أن الترف والنعمة إذا حصل لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها . والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحوال ، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المبانى أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل ، وللتأنيق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداءة ... » .

ويمضى ابن خلدون بعد ذلك في ذكر أن التأنيق إذا بلغ الغاية فإنه يؤدي إلى الشهوات فتتلون النفس ولا يستقيم حالها في دينها ، وهو هنا في حقيقة الأمر يعنى أسباب انهيار الحضارة وليس مفهومها ، فهو يقول : « وذلك أن الناس بشر متماثلون

(1) كتاب « مقدمة العلامة ابن خلدون » الفصل الثامن عشر ، قام بتحقيقه جبر عاصي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ص 235 .

وإنما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل ، فمن استحكمت فيه لم ينفعه زكاء نسبه وطيب منبته، ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوى الأحساب والأصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار متحللين للحرف الدنيئة في معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والفسفة، وإذا كان أكثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنْدَمْنَاهَا تَذْوِيراً ﴾ الإسراء 16، ووجهه حيثئذ أن مكاسبهم حيثئذ لا تفى بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها⁽¹⁾.

ثم يمضى مبيناً مفاصد الحضارة رغم أنه يبين مفهومها ، فهو يقول : « إن المدينة إذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب حتى أن كثيراً من العامة يتحاشى غرس النارنج بالجور، وليس المراد ذلك ولا أنه خاصية في النارنج ، وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه هو من توابع الحضارة ، ثم إن النارنج، واللبة والسرو وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة ، إذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكالها فقط ولا تغرس إلا بعد التفتن في مذاهب الترف ، وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلنا⁽²⁾ .

وهو هنا كما نرى يبين مفهوم الحضارة رغم أنه يرى أن التفتن في مذاهب الترف يؤدي إلى خراب البلد أى انهيار الحضارة ، وكما هو واضح من هذا الكلام أن الحضارة الإسلامية كانت قد بلغت مرحلة الازدهار ، حيث كان الناس يزرعون أشجار النارنج والسرو، وكذلك نبات الدفلى الذى كان يزرع لتلوين البساتين - كما ذكر بعد ذلك - بالأحمر والأبيض والألوان الأخرى ...

(1) كتاب « مقدمة العلامة ابن خلدون » الفصل الثامن عشر ، قام بتحقيقه حجر عاصى ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ص 235 .

(2) المصدر السابق .

ثانيًا - في العصرين اليوناني والروماني لم تكن كلمة Civilization حضارة ولا مفهوم حضارة معروفًا .

في العصرين اليوناني والروماني لم تكن كلمة Civilization حضارة معروفة، ولم يكن مفهومها معروفًا، وما يذكره الكتاب والمفكرون في بلادنا وفي الغرب في العصر الحديث عن جذر لغوي لكلمة Civilization حضارة، فهذا يحتاج للتوضيح وعدم الخلط .

ذلك أن الذين يبحثون عن الجذر اللغوي لكلمة Civilization حضارة يعيشون في العصر الحديث - أي هم مفكرون موجودون في الفترة الممتدة من القرن الثامن عشر وحتى الآن - بعد أن تبلور مفهوم الحضارة وأصبح معروفًا .

ففي العصر اليوناني والروماني لم تكن كلمة Civilization حضارة معروف، وما كان معروفًا في ذلك العصر هو كلمة مدينة Townsman . فالعصر اليوناني والروماني كان يعرف كلمة مدينة، ولم تكن تعنى هذه الكلمة مفهوم الحضارة .

في سنة 1388م ظهرت كلمة Civil مدني في اللغة الإنجليزية ، وأصبح القانون المدني الروماني معروفًا Roman Civil law .

بينما كلمة Civilization ظهرت كقانون لجعل عملية الإجرام عملية مدنية Civil، وذلك سنة 1704م .

لكن كلمة Civilization حضارة بمعنى ضد البربرية لم تظهر إلا سنة 1722م أي بعد عبد الرحمن بن خلدون - وُلِدَ سنة 1332م وتوفي سنة 1406م - بثلاثة قرون تقريبًا .

أما الذين يرجعون أصل كلمة Civilization حضارة إلى الجذر اللاتيني Civitas « بمعنى مدينة و » Civis « بمعنى ساكن المدينة و » Civilis « بمعنى

مدنى، فإنهم بذلك يتعاملون مع الجذر اللغوى للكلمة وليس مفهوم الحضارة عند الرومان واليونان .

ولم يأت اسم حضارة ومفهومها في كتابات اليونان والرومان وفلاسفتهم ومفكرهم .

وما جاء في كتابات اليونان والرومان اسم مدينة Townsman⁽¹⁾ و Metropole وترجمتها المدينة الأم و Metropolis وترجمتها الحاضرة .

فعبد الرحمن بن خلدون أول من استخدم لفظ حضارة وجاء به ليحمل مفهوماً جديداً مستقلاً .

وكلمة حضارة Civilization بمعنى ضد البربرية لم تظهر في اللغة الإنجليزية إلا سنة 1722م ، وقد جاءت في اللغة الفرنسية آنذاك أولاً ثم انتقلت للغة الإنجليزية⁽²⁾ .

ثالثاً - أول معرفة للأوروبيين بمفهوم حضارة، وتطور هذا المفهوم .

كان أول ظهور لكلمة Civilization حضارة بمعنى ضد البربرية في كتابات الأوروبيين في سنة 1722م كما ذكرنا سابقاً .

وربما كان أول من استخدم كلمة حضارة في كتاب منشور هو المركيز دى ميرابو في كتابه « صديق الرجال أو مقال فى السكان » الذى نشر سنة 1757م ، وقد يتن ما يقصده بكلمة حضارة فى كتاب آخر اسمه « صديق النساء أو مقال فى الحضارة » ، وذلك سنة 1766م ، ولا توجد منه سوى صورة خطية فى المتحف الوطنى بباريس .

(1) Wikipedia .. Free Encyclopedia. Internet. شبكة الإنترنت .

(2) المصدر السابق .

وقد عرّف ميرابو الحضارة في كتابه هذا بقوله : « إن Civilization حضارة شعب ما هي رقة طباعه وعمرانه وتهذيبه ومعارفه المنتشرة ، بحيث يراعى الفائدة العلمية العامة ويفسح المجال لقانون التفضيلات . إن الحضارة لا تفعل شيئاً للمجتمع ما لم تمنحه جوهر الفضيلة وشكلها ، فمن صلب المجتمعات التي هذبت حواشيتها جميع العناصر التي عددناها آنفاً ينبثق مفهوم الإنسانية »⁽¹⁾.

وهذا التعريف لمفهوم الحضارة الذي ذكره ميرابو في كتابه سنة 1766م لم يلق انتشاراً في ذلك الوقت ، وقد رفضه بعض المفكرين وفضلوا استعمال حضارة بمعنى ضد البربرية أو استعمال كلمة Civility التي تعبر - تماماً مثل كلمة Urbanity - عن ازدياد الرجل المدني للقروى أو الهمجي⁽²⁾.

وعندما قام ميرابو بوضع تعريفه السابق لمفهوم حضارة ، فإن بوزول Beswol حث الدكتور جونسون ليذكرها في معجمه سنة 1772م ولكنه رفض مفضلاً الكلمة القديمة Civility التي تعبر عن ازدياد الرجل المدني للقروى أو الهمجي⁽³⁾.

والملاحظ أن التعريف الذي أورده ميرابو 1766م للحضارة يتشابه في نواح كثيرة مع التعريف الذي وضعه عبد الرحمن بن خلدون لمفهوم الحضارة في القرن الرابع عشر الميلادي .

(1) نصر محمد عارف ، كتاب : الحضارة . الثقافة . المدنية ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 1415هـ / 1995م . وانظر كذلك : جون نيف ، كتاب « الأسس الثقافية للحضارة الصناعية » ، دار الثقافة ، بيروت .

(2) المصدر السابق عن جيمس هارفي روبنسون ، « الحضارة » ، ص 8 ، ترجمة علي إسلام ، القاهرة ، مطبعة مصر ، 1965م .

(3) المصدر السابق .

وقد جاء فى الموسوعة الأمريكية⁽¹⁾ :

إن علماء الأنثروبولوجيا فى القرن التاسع عشر الميلادى كونوا نظرية عن تطور الثقافة ، والتى فيها قسموا التطور الإنسانى إلى ثلاث مراحل هى : مرحلة العبودية ، ومرحلة البربرية ، ومرحلة الحضارة .

وأن مرحلة الحضارة فى ذلك الوقت كانت تطلق على الحضارة المصرية ، والحضارة الآشورية والحضارة اليونانية والرومانية ، والتى تضاعف عددها بعد ذلك بعد اكتشاف آثار حضارات أخرى ، وقد عدّها أرنولد توينبى 26 حضارة .

ومن ذلك يتضح أن مفهوم الحضارة عند الأوربيين والأمريكيين فى القرن التاسع عشر الميلادى مأخوذ من المفهوم الذى وضعه ابن خلدون .

ولقد أجمع العلماء والمفكرون والباحثون الأوربيون على أن كتاب المقدمة لابن خلدون كان رائدهم فى تعميق بحوثهم فى علوم التاريخ والمجتمع والحضارة بمختلف مناحيها ، وهو الأساس فى بناء نظرياتهم الحديثة فى هذه المجالات .

ومن المفارقات أن كل التعريفات التى وضعت لمفهوم الحضارة ظلت تدور فى فلك التعريف الذى قام بوضعه عبد الرحمن بن خلدون حتى تم التوصل إلى مفهوم الثقافة ، فتغير مفهوم الحضارة تبعاً لتغير مفهوم الثقافة منذ 1850م حتى الآن .

وقد تم التوصل لمفهوم الثقافة فى الفترة الممتدة من سنة 1780 إلى سنة 1850م ثم تطور مفهومها بعد ذلك ، ومنذ ذلك الحين تغير مفهوم الحضارة ، وبدأت التعريفات التى توضع لمفهوم الحضارة فى أوربا ترتبط بمفهوم الثقافة منذ ذلك الوقت حتى الآن .

(1) Grolier Academic Encyclopedia (5). Civilization (Also published under title American Encyclopedia).

ومنذ تأكد ارتباط الثقافة بالاعتقاد الدينى الذى يدين به المجتمع أصبحت الحضارة مرتبطة بمفهوم الثقافة وبمفاهيم الاعتقاد الدينى ومعطياته عند معظم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والمفكرين والفلاسفة .

مع ملاحظة اختلاف الاعتقادات فى الحضارات والثقافات المختلفة ، فالاعتقاد قد يكون دينًا سماءيًا مثل الثقافة والحضارة الإسلامية ، وقد يكون دينًا غير سماءى مثل الحضارة الصينية حيث الاعتقاد هو البوذية والحضارة الهندية حيث الاعتقاد هو الهندوسية ، وقد يكون الاعتقاد ماديًا علمانيًا لا دينى مثل الثقافة والحضارة الأوروبية والأمريكية الحديثة التى بدأت تتغير تدريجيًا نحو الدين بعد سيطرة المحافظين الجدد واليمين الأمريكى المتطرف على نظام الحكم فى أمريكا بعد فوزهم فى الانتخابات الأمريكية .

وسبب الضبابية وعدم الوضوح فى ارتباط مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة بالاعتقاد الدينى أن المعتقدات الدينية للمجتمعات الأوروبية والأمريكية هى معتقدات علمانية مادية، وأن كثيرًا من الكتاب العرب والمسلمين وغيرهم يعتبرون أن معتقدات المجتمعات الأوروبية والأمريكية هى معتقدات مسيحية وليست علمانية أو أنهم يجهلون معنى العلمانية .

ولذلك لم يكن غريبًا فى المجتمعات الأوروبية والأمريكية تناول المقدسات بالنقد اللاذع والطعن فى صحتها وعدم الإيمان بالغيبات ، بينما نراها نحن المسلمين من المحرمات .

رابعًا - ارتباط مفهوم حضارة بمفهوم ثقافة فى الغرب بعد معرفة مفهوم الثقافة وتبلوره .

ظل مفهوم « الحضارة » يعتمد على المفهوم الذى وضعه ابن خلدون حتى تم التوصل إلى مفهوم « الثقافة » وتبلور معناه كما ذكرنا فى الفصل السابق، أى فى الفترة الممتدة من 1780، إلى 1850م وما تبع ذلك من تطور لهذا المفهوم .

وعندئذ بدأت التعريفات لمفهوم حضارة ترتبط بمفهوم ثقافة بعد ما تبين أن كلا المفهومين يرتبطان بالاعتقاد الدينى الذى يدين به المجتمع ، سواء كان هذا الاعتقاد ديناً سماوياً أو ديناً غير سماوي، مثل البوذية والهندوسية، أو ديناً مادياً مثل العلمانية .

ونريد أن نوجز هنا كيف تم التوصل إلى ذلك، وأحب أن أنوه إلى أن ما ذكرته وما سوف أذكره ليس انتقاداً أو اجتزاء من تيار فكرى عام يسود أوربا وأمريكا - الفكر العلمانى - ولكنه فى حقيقته نظرة كلية عامة للفكر العلمانى أدت لاستخلاص النتائج التى ذكرتها والتى سوف أذكرها بإذن الله مؤيدة بمراجعها ، ومن يريد أن يتوسع فى هذا المجال فإنه يحتاج لمجلدات عديدة .

1 - بعد أن وضع إدوارد تيلور مفهومه لمعنى الثقافة وتعريفها سنة 1871م والذى اعتبر المسيحية جزءاً من الثقافة العلمانية وليس العكس - وهو التعريف الذى لاقى قبولاً كبيراً لدى كثير من المفكرين والكتاب والفلاسفة، ولا زالت الموسوعة الأمريكية تعتبره هو التعريف الصحيح لمفهوم الثقافة⁽¹⁾ - بعد ذلك اعتبر إدوارد تيلور مفهوم الحضارة مرادفاً لمفهوم الثقافة .

2 - فى عام 1920م وضع جوردن شيلد عدة عناصر اعتبرها ضرورية فى تعريف الحضارة ، وفى تحويل الثقافة إلى حضارة ، وهذه العناصر هى : اختراع الكتابة ، والتعدين ، ومعرفة وحدات القياس والأوزان والأبعاد ، والرياضيات والهندسة ، وتجارة المسافات البعيدة ، والعربات ذات العجلات ، والإنتاج الوفير ، وتخزين الطعام (النباتى والحيوانى) ، واستعمال المحراث فى حرث الأرض ، وتكنولوجيا الرى ، والتخصص الحرفى⁽²⁾ .

(1) Grolier Academic Encyclopedia (5). Civilization (Also published under title American Encyclopedia).

(2) المصدر السابق .

وكثير من العلماء الآن يرون أنه ليس هناك عنصر من هذه العناصر ولا كل هذه العناصر يمكن أن تعرف حضارة قائمة ، مع أن عملية التعدين وصناعة التعدين الضرورية للحضارة ، كانت موجودة في الشرق الأدنى منذ سبعة آلاف سنة ، ولذلك فإن استعمال اصطلاح حضارة يعتبر غير مناسب في هذه البيئات الثقافية القديمة ، فالكتابة التي تعتبر أساسية لم تكن تستعمل في حضارة الأنكا ، على الرغم من أن مجتمعات الأنكا كانت في حالة ثقافية متقدمة واضحة وكافية ليطلق عليها مصطلح حضارة .

3 - تعرّف الموسوعة الأمريكية الحضارة بأنها : حالة مجتمع إنساني يتصف بإنجاز درجة عالية من الثقافة والتكنولوجيا ، وتبعاً لذلك بدرجة عالية من النمو الاجتماعي والسياسي المعقد⁽¹⁾ .

وهكذا نرى الربط بين مفهوم الحضارة ومفهوم الثقافة .

4 - تعرّف ديورانت الحضارة بأنها : نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي ، وتتألف من عناصر أربعة ، هي : الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، والعلوم والفنون⁽²⁾ .

وهكذا صارت التعريفات لمفهوم الحضارة مرتبطة بمفهوم الثقافة ، وكلا المفهومين مرتبطان بالاعتقاد الديني الذي يدين به المجتمع ، مع ملاحظة أن التعريفات لمفهوم الحضارة تناقلتها الكتابات عبر مراحل زمنية مختلفة .

ولم يكن هناك تواريخ تبين وضع كل مفهوم ، فكان ذلك أيضاً من أسباب الخلط ، لأن تطور المفهوم وتواريخ هذا التطور لم تكن مسجلة في كل الأوقات . هذا بجانب أن المفهوم العلماني للثقافة والحضارة كان من أسباب الخلط أيضاً .

(1) Grolier Academic Encyclopedia (5). Civilization (Also published under title American Encyclopedia)..

(2) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الأول ، ترجمة د. زكي نجيب محمود .

وأيضًا فإن المتغربين والعلمانيين في البلاد العربية، والذين نقلوا عن الغرب هذه المفاهيم كانوا السبب الرئيسى فى خلط المفاهيم فى بلادنا، ولم نتيقن الحقيقة إلا بعد ذلك، أى فى ضحى الغد، كما قال الشاعر العربى :

أمرتهم بمنعرج اللـوى فلم يستبينوا النصيح إلا ضحى الغد

5 - لقد كان لنزعة أرنولد توينبى الدينية أثر فى كتاباته، فكان تفسيره النهائى للتاريخ تفسيرًا دينيًا فى جوهره، وكان يرى : « أن وراء كل حضارة من الحضارات القائمة اليوم ديانة عالمية، فالعقائد الدينية هى التى تسير مجرى التاريخ، وإذا كان هناك مستقبل لحضارة ما من الحضارات الخمس : الحضارة المسيحية الغربية (حضارة أوروبا وأمريكا)، والحضارة المسيحية الشرقية الأرثوذكسية (حضارة روسيا والبلقان)، والحضارة الإسلامية (حضارة البلاد الإسلامية)، والحضارة الهندية (حضارة الهند وبعض البلاد الآسيوية)، وحضارة الشرق الأقصى (حضارة الصين واليابان)، فذلك فى حدود هذه الأديان وبسبب منها»⁽¹⁾.

6 - ويعبر جيمس أتيكس بودن عن مفهوم المحافظين الجدد فى أمريكا للحضارة، فيقول : « إن مجتمعا وأمتنا فى المستقبل يجب ألا تخضع الأمور السياسية للنظرة العلمانية، فيجب أن تتحرر السياسة الأمريكية من سيطرة النظرة العلمانية » ..

ثم يقول : « والحضارة الأمريكية ابتدأت فى الفترة من 1607 إلى 1962م مع اتفاق جماعى فى الرأى على مفهوم الثقافة، حيث كان الناس الذين يتكلمون الإنجليزية ويعرفون بالأمريكيين كانت ثقافتهم يهودية مسيحية Judeo-christion Culture، وأبنا تكون فإن نظرتك للعالم (للدنيا) ستقودك للافتراضات عن دور الدين وأفكاره فى السياسة والثقافة... وكل جوانب الحياة الأمريكية، وكل شيء فى

(1) سليمان الخطيب، أسس ومفهوم الحضارة فى الإسلام، الزهراء للإعلام العربى.

العالم ما هو إلا عن الله عز وجل ، ولا يوجد شيء علماني.. يوجد فقط الله وضد الله (God and Anti God) .. تعالى الله عما يشركون ، ولا يوجد شيء مقدس تحديداً .

وإن الحضارة مبنية على الثقافة ، ويوجد في التاريخ الأمريكي ثلاث مرات استيقظت فيها المسيحية لتسبق النزاعات الكبرى التي تهدد الحضارة الأمريكية والأمة الأمريكية ، وهذه الصحوات الكبرى نسجت في مصنع التجربة الأمريكية .

وهذه الصحوات المسيحية الكبرى كانت في الحرب الأهلية الأمريكية . وفي سنة 1960م عندما قرر القضاء الأمريكي إقامة الصلوات العامة في المدارس وأطلق عليها الحرب الأمريكية الثقافية العظمى أو الحرب الأهلية الثانية . أما الصحوة المسيحية الثالثة فهي التي سبقت الحرب على الإرهاب والتي تعيش وتخوض غمارها أمريكا الآن بدعوى محاربة الإرهاب وهي في حقيقتها حرب على الإسلام والمسلمين .

ويرى جيمس أتيكس بودن أنه لفهم الحضارة الأمريكية ينبغي معرفة الثقافة والتفويض المسيحي الكبير⁽¹⁾ الذي يتغير في أمريكا من وقت لآخر⁽²⁾.



(1) التفويض المسيحي الكبير يقصد به التفويض الذي تمنحه أغلبية الناخبين للاتجاه المسيحي .

(2) Wikipedia .. Free Encyclopedia شبكة الإنترنت .

خلاصة

كان ابن خلدون أول من استخدم فكرة الحضارة كفكرة مستقلة، فهو يعتبر أن الحضارة هي التفتن في الترف واستجادة الأحوال والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه، مثل: الصنائع المهيثة لعمل وصناعة المطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية.

أما في الغرب فلم تكن معروفة، وفي سنة 1388م ظهرت كلمة civil في اللغة الإنجليزية، ولم تظهر كلمة حضارة بمعنى ضد البربرية إلا سنة 1722م، أي بعد ابن خلدون بثلاثة قرون تقريبا.

وكان أول من استخدم كلمة حضارة في كتاب منشور في الغرب هو المركيز دي ميرابو سنة 1757م، والتعريف الذي ذكره يتشابه مع تعريف ابن خلدون. وعندما اكتشف مفهوم الثقافة تم الربط بينها وبين الحضارة.

وهناك تعريفات عديدة للحضارة مذكورة في البحث، مع ملاحظة أنه قبل سنة 1780م، حيث لم تكن الثقافة موجودة كانت الحضارة بمفهومها الذي ذكره ابن خلدون موجودة، ثم مرت بعملية تطور.

* * *

الباب الثاني

مفهوم الثقافة والحضارة من منظور إسلامي

البُطَيْنِ الْكَبِيرِ

كيف قامت كل من الثقافة والحضارة الإسلامية ؟

البُطَيْنِ الْكَبِيرِ

تعريف كل من الثقافة والحضارة الإسلامية

مفهوم الثقافة والحضارة من منظور إسلامي

هناك مصطلحات عديدة استجذت في العصر الحديث وأصبحت مستقرة ومعترفاً بها في كل دول العالم بحيث لا يمكن تجاهلها ، ومن هذه المصطلحات مصطلح « ثقافة » ومصطلح « حضارة » .

وأصبحت الثقافة والحضارة الآن من الأمور التي يناقشها رؤساء الدول في المحافل الدولية والعلماء والمفكرون لما لها من أهمية في حفظ المجتمعات من التحلل والتفسخ والانهيار ، وأصبحت الدول تحارب من أجل الحفاظ على هويتها الثقافية والحضارية ومن أجل انتشار ثقافتها وحضارتها .

وثقافة المجتمعات الإسلامية لها تمايز ولها سمات ولها مفاهيم مختلفة عن ثقافة المجتمعات الأخرى ، والحضارة الإسلامية لها سمات ومفاهيم إسلامية مختلفة عن الحضارات الأخرى .

الفصل الأول

كيف قامت كل من الثقافة والحضارة الإسلامية ؟

(أ) الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية قائمتا مع قيام المجتمع الإسلامى الأول فى المدينة المنورة .

عندما نزل قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (١) ، كان ذلك إيذانًا باكتمال الدين الإسلامى عقيدة وشرعية ، فقد توفى النبى ﷺ بعدها بمدة وجيزة ، وكانت الدولة الإسلامية قد اكتمل بناؤها والمجتمع الإسلامى قد قام بعقيدته وشريعته التى طبقت عمليًا طوال حياة النبى ﷺ .

لقد قام المجتمع الإسلامى فى المدينة المنورة من المهاجرين والأنصار وكل القبائل والأفراد والجماعات التى كانت تدخل فى الدين الإسلامى .

لقد كان المهاجرين هم اللب والقلب الذى قام عليه المجتمع الإسلامى فى المدينة المنورة .

لقد كان هؤلاء المهاجرون هم المسلمون الأوائل الذين تحملوا العذاب والآلام فى سبيل الدعوة الإسلامية .

كانوا هم الذين يستخفون بصلاتهم فى شعاب مكة ، وكانوا هم الذين تحملوا العذاب فى سبيل دينهم عندما كانوا يسحبون فى رمضاء مكة وتوضع فوقهم الحجارة المحيطة ، وكانوا هم المهاجرين إلى الحبشة فرارًا بدينهم من شدة العذاب

(١) المائدة : 3 .

الذى لاقوه على أيدي المشركين ، وكانوا هم الذين التفوا حول الرسول ﷺ عندما حاصرهم المشركون في شعب أبي طالب ، فكانوا يأكلون ورق الشجر من شدة الجوع، وذلك لمدة ثلاثة أعوام فصبروا وآمنوا بنصر الله سبحانه وتعالى .

فكانت هذه دروسًا عملية للتمحيص والصبر والثبات في سبيل نشر الدعوة الإسلامية .

وهؤلاء المهاجرون المجاهدون هم الذين كونوا نواة المجتمع الإسلامى الصلبة في المدينة المنورة .

ومنذ بدء الدعوة الإسلامية في مكة ، كان هذا النفر القليل الذين آمنوا بها جاء به رسول الله ﷺ ، وتحرروا من العبودية للعباد إلى الخضوع والانقياد والعبودية لرب العباد ، وبذلك حققوا الغاية التى خلق الله الإنسان من أجلها ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(١) .

وقد نزل القرآن الكريم في المرحلة المكية ليعالج قضية كبرى في الإسلام وهى قضية العقيدة الإسلامية ، فكانت المرحلة المكية كلها تهتم بهذه القضية الخطيرة ، قضية العقيدة ، وتثبيتها في قلوب وعقول المسلمين .

وكانت الحكمة الإلهية أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته للناس بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وكان العرب يعرفون جيدًا في لغتهم معنى « إله » ومعنى « لا إله إلا الله » ، تلك الدعوة التى زلزلت كيانهم وهزت سلطانهم وهددت بزوال ملكهم .

وقد لاقى صحابة رسول الله ﷺ الأوائل عنتًا كبيرًا بسبب هذا الدين الجديد فصبروا ومضوا في نشر قضية التوحيد حول الرسول ﷺ متحملين العنت والإيذاء الشديد .. كان كل من يدخل في الإسلام يتخلى عن معتقداته الجاهلية الشركية، وما كان يصاحبها من عبادات وثقافات وسلوكيات شركية، ويؤمن بكل ما جاء به

الإسلام من عقائد وشرائع وعبادات ومفاهيم ثقافية وحضارية تمثل الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية التي اكتملت مع اكتمال الدين الإسلامي، ومع وفاة النبي ﷺ في المدينة المنورة بعد قيام الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي .

وكان هؤلاء الصحابة الأوائل الذين التفوا حول الرسول ﷺ في مكة المكرمة قبل الهجرة ، هم النواة الصلبة للمجتمع الإسلامي في المدينة المنورة بعد الهجرة .

إن الفرد المسلم الذى اعتنق الدين الإسلامى تتغير حياته كلياً .. تتغير معتقده السابقة ، وتتغير عباداته ، وتتغير سلوكياته ، وتتغير أفكاره ، فيصبح إنساناً آخر فى سلوكه ومعاملاته وحياته مع أسرته ومع جيرانه ومع الآخرين ومع مجتمعه الإسلامى ، فمفاهيمه الإيمانية والسلوكية والاعتقادية ومفاهيمه فى شتى مجالات الحياة سواء كانت هذه المفاهيم مفاهيم اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو مفاهيم خاصة بثقافته وحضارته الإسلامية ... ونظرته للكون والحياة والإنسان . كل ذلك وغيره يصبح تبعاً لما جاء به الإسلام .

ومن ذلك يتضح أن الفرد المسلم والمجتمع المسلم له مفاهيمه الخاصة فى شتى المجالات ، ومنها مجال الثقافة الإسلامية ومجال الحضارة الإسلامية ، وهذه المفاهيم هى التى تكونت وترسخت فى العقول والقلوب المؤمنة طوال البعثة النبوية، وهى التى قام المجتمع الإسلامى عليها .

وهذه المفاهيم الإسلامية جاءت بها آيات القرآن الكريم الذى نزل مفرقاً حتى يمكن استيعابه وفهمه وتطبيق ما جاء به عملياً طوال حياة الرسول ﷺ وحتى الآن، يقول تعالى : ﴿ وَقرءاناً فرققنه لِنُقرأهٗ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ ^(١) . ، كما أن هذه المفاهيم جاءت أيضاً فى السنة النبوية الصحيحة .

فمفاهيم الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية التى جاء بها الإسلام، ترسخت فى عقول وقلوب ووجدان الفرد المسلم والمجتمع المسلم منذ مجئ الإسلام وحتى اليوم .

ونحن- المسلمين - ليس لنا إلا هذا الدين الإسلامى ، فهو مصدر قوتنا وعزتنا ومصدر ثقافتنا وحضارتنا .

لقد اتخذ المستعمر الغربى الثقافة والحضارة وسيلة لمهاجمة الإسلام طوال القرن العشرين . أما الآن فقد أعلنها حرباً صريحة على الإسلام بدعوى محاربة الإرهاب .

(ب) الدين الإسلامى دين شامل .. والثقافة والحضارة الإسلامية تستمدان مفاهيمهما من هذا الدين .

1 - الدين الإسلامى خاتم الرسالات السماوية ، ولذلك جاء شاملاً لجميع شئون الحياة ، بما فيها الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية .

فالدين الإسلامى من عقيدة وشريعة يشمل جميع جوانب الحياة، ومنها الجوانب: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية .. فثقافة المجتمعات الإسلامية وحضارتها قائمة على مفاهيم إسلامية تكونت وترسخت عبر ثلاث وعشرين سنة ، وهى فترة البعثة النبوية الشريفة ، ومصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

وقد قامت المجتمعات الإسلامية، وتكونت مرجعيتها الإسلامية طوال مدة البعثة المحمدية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة .

وثقافة المجتمعات الإسلامية وحضارتها قائمة على المرجعية الإسلامية ، ومفاهيمها مستمدة من الدين الإسلامى .

والمرجعية الإسلامية تعنى ما جاء به الإسلام من عقيدة وشرعية، وتعنى التطبيق العمل لأحكام الشريعة الإسلامية على الفرد والشعب والمجتمع والحكومة - بنظمها ومؤسساتها وهيئاتها - ككل، كما أن المرجعية الإسلامية تعنى أن الإسلام هو الرسالة الخاتمة، ولذلك جاء شاملاً لجميع جوانب الحياة، ومنها الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وجوانب التربية والتعليم، وجوانب الثقافة والحضارة الإسلامية ...

فهناك اقتصاد إسلامي ونظام سياسى إسلامي وحقوق الإنسان وحرياته في الإسلام، وهناك ثقافة وحضارة إسلامية لها مفاهيم ومعطيات إسلامية، وهناك نظرة إسلامية للكون والحياة والإنسان .

كل ذلك وغيره له معطيات ومفاهيم إسلامية جاءت في أوامر الدين ونواهيه، وحلاله وحرامه، وفي مقاصد الشريعة الإسلامية، وما اشتمل عليه الإسلام من: عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات (مدنية وأحوال شخصية) وعقوبات (وتشمل الحدود) والعلاقات (مثل العلاقة التي تربط الإنسان بربه وبالحياة والأحياء وعلاقة الرجل بالمرأة وعلاقة الولد بالوالد وعلاقة المسلم بالجار وعلاقة المسلمين بغير المسلمين ... وهناك أحكام نظمت علاقات الحكام بالمحكومين ...) .

يقول الدكتور يوسف القرضاوى عن الأحكام الشرعية العملية التي جاء بها القرآن الكريم :

« صحيح أن هذه الأحكام الشرعية العملية التي جاء بها القرآن الكريم ليست كثيرة جداً، ولكنها في غاية الأهمية لأنها هي التي تميز أمة عن أمة وحضارة عن حضارة، ففريضة الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحكم بما أنزل الله، وتحريم: الربا، والزنا، والشذوذ الجنسي.. التبرج، والسحر والكهانة، وقتل النفس بغير حق، والانتحار، وشرب الخمر، ولعب

الميسر، وأكل المال بالباطل، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض .. وعقوبة السارق، والقاتل، والقاتل، ومن يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فساداً، كل ذلك مما يميز المجتمع المسلم، ويجعل له شخصيته المتميزة بمقوماتها وخصائصها. ولهذا كان تحكيم هذه الشريعة وتطبيقها فريضة من الله لا يجوز التفريط فيها من راع ولا رعية»⁽¹⁾.

وهذه المرجعية الإسلامية لم تتغير ولم تبدل ولم يدخل عليها تحريف أو تزيف، منذ مجيء الإسلام وحتى الآن، لأنها مستمدة من آيات القرآن الكريم ومن السنة النبوية الصحيحة.

ونتيجة لذلك، فإن مفاهيم الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية لم تتغير ولم تبدل منذ مجيء الإسلام وحتى الآن.

كما أن المجتمعات الإسلامية في جميع البلاد الإسلامية لم تتخل عن المرجعية الإسلامية، ولم تتخل عن الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية طوال التاريخ الإسلامي وحتى الآن، لأنها متمسكة بالكتاب والسنة، رغم ما تعرضت له من أهوال وغزو وتجهيل بواسطة المستعمر وتلاميذه من المتغربين والعلمانيين في البلاد العربية والإسلامية.

فالثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية استمدت مفاهيمها من الدين الإسلامي والمرجعية الإسلامية.

فالإيمان الصادق له أثره العميق في حياة الفرد المسلم وسلوكه وأخلاقه وعاداته، فإذا كان هذا الفرد المسلم قد حباه الله سبحانه وتعالى بموهبة مثل، موهبة الشعر مثلاً فإن إنتاجه الشعري يجيء خلواً من الفعش ومما يخالف الإسلام.

(1) د. يوسف القرضاوي، كتاب «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟»، دار الشروق.

يقول تعالى : ﴿ ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ ⁽¹⁾ .

وجاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر والقدر خيره وشره » .

وكما أن كلاً من الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية تستمد مفاهيمها مما جاء به الإسلام من إيمان وعمل، فإنها تستمد مفاهيمها أيضاً مما جاء به في النواحي الروحية والأخلاقية والمادية، ومما جاء به في العمل للدنيا والعمل للآخرة، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الإنسان مكلف بعمارة الأرض واستغلالها .

يقول تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۝ ⁽²⁾ .

وجاء في تفسير ابن كثير : ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۝ ، أى جعلكم عمّاراً تستغلونها وتعمرونها .

كما أن الإنسان خلقه الله سبحانه وتعالى لعبادته .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ ⁽³⁾ .

ومما جاء به الإسلام أن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس، وهذه الخيرية التي اتصفت بها الأمة الإسلامية جاءت نتيجة لما تقوم به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله .

(1) البقرة : 285 .

(2) هود : 61 .

(3) الذاريات : 56 .

يقول تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾⁽¹⁾ .

وإن الإنسان الذي خلقه الله لعبادته سبحانه وتعالى مكلف بتزكية نفسه .

يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾⁽²⁾ .

ويقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ﴾⁽³⁾ وَقَدْ حَاطَ مِنْ دَسْنَهَا⁽⁴⁾ .

وهذه الأمة الإسلامية التي هي خير أمة أخرجت للناس لها ثقافة إسلامية هي خير الثقافات على وجه الأرض، ولها حضارة إسلامية هي خير الحضارات على وجه الأرض ، ويجب أن يعتز المسلمون بذلك ويعملوا على رفعة الأمة ورفعة ثقافتها ورفعة حضارتها .

وهذا الفرد المسلم المؤمن الذي يزكى نفسه هو خير الناس وخير أجناد الأرض، ويجب أن يجتهد ويعمل على رفعة شأنه وشأن أمته الإسلامية .

ومما جاء به الإسلام أيضًا وتتصف به الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية ، أنها تعترف بالآخر وثقافته وحضارته، وتدعوه بالحسنى إلى الإسلام .

يقول تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَبِّرِ عَنْكَ فِي الْأَتْرِ وَأَذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴾⁽⁴⁾ .

وجاء في تفسير الجلالين : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا ﴾ بفتح السين شريعة

(1) آل عمران : 110 .

(2) الأعلى : 14 .

(3) الشمس : 9 ، 10 .

(4) الحج : 67 .

﴿هُم تَائِسْكُوهُ﴾ عاملون به ﴿فَلَا يُنْتَرِعَنَّكَ﴾ يراد به لا تنازعهم ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أمر الذبيحة إذ قالوا ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم ﴿وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أى إلى دينه ﴿إِنَّكَ لَعَلَّٰى هُدًى﴾ دين ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾.

ومما جاء به الإسلام وتتصف به الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية العدل والقسط والتسامح والتدافع والمنافسة دون بغى ولا عدوان ، وهو ما سوف نتناوله بالتفصيل فى فصول تالية .

وكذلك الإصلاح وعدم الإفساد فى الأرض، وعدم العبث بخلق الله كما يحدث فى بعض مجالات الهندسة الوراثية، وهو ما سوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد .

وتعتبر اللغة العربية من العناصر الأساسية المكونة لنسيج الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

ويقول تعالى : ﴿ يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ ⁽²⁾ .

ويقول تعالى : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ⁽³⁾ .

وتحت عنوان : (اللغة المقدسة و قدسية اللغة) كتب الدكتور على جمعة مفتى الديار المصرية ⁽⁴⁾ .

« هل هناك لغة مقدسة ؟ وإلى أى مدى نتمسك بتلك القداسة ؟ اللغة المقدسة عند علماء اللغويات توصف بها اللغات التى كتب بها نص مقدس له أتباع يأخذونه كمصدر لمعرفتهم وأحكام حياتهم أو إطار لسلوكهم ، وبهذا التعريف فإن اللغة

(1) الزخرف : 3 .

(2) الشعراء : 195 .

(3) الزمر : 28 .

(4) جريدة الأهرام : 11 / 9 / 2004 م .

العبرية التى كتبت بها « التوراة » واللغة السنسكريتية التى كتبت بها « الفيدا »
واللغة العربية التى بها نزل وكتب « القرآن الكريم » هى لغات مقدسة .

ثم يقول : « فلا يقبل الناطقون بهذه اللغات والذين آمنوا بمرجعية هذه
النصوص أن يتركوها لا للتطور ولا للتدهور ، ولا يغيرون فيها دلالات الألفاظ
ولا وسائل الفهم من نحو وصرف ، حيث إن استنباط الأحكام من النص يقتضى
ذلك » .

2 - ذكرت فى فصل تال من هذا الكتاب تفاصيل ما هو مشترك عام بين
الثقافات والحضارات ، وأحب أن أؤكد أن ما هو مشترك عام بين الثقافات
والحضارات مثل : العلوم الطبيعية (الرياضيات - الكيمياء - الأحياء - الطبيعة ...)
والعلوم والتكنولوجيا وكثير من الصناعات والمكتشفات العلمية ...
يجب ألا يوجد فيها ما يتعارض مع الكتاب والسنة والمرجعية الإسلامية مثل
استنساخ الإنسان .

أما كثير من العلوم الأخرى التى تتمايز بين الثقافات والحضارات المختلفة
مثل : العلوم الإنسانية ، فإن لها مفاهيمها الإسلامية المتقيدة بالكتاب والسنة .

3 - الإنتاج فى مجال الثقافة والإنتاج فى مجال الحضارة مرتبط بمفاهيم الثقافة
ومفاهيم الحضارة التى ينتمى إليها ، ومن ثم فهو مرتبط بالاعتقاد الدينى السائد فى
المجتمع .

فالإنتاج فى مجال الثقافة الإسلامية مثل : الأدب (شعر - قصص - نقد ...)
والفنون (الفنون التشكيلية ...) يجب أن يحمل مفاهيم الثقافة الإسلامية ، أى
المفاهيم المستمدة من الدين الإسلامى ، ولا يحمل مفاهيم تتعارض مع الإسلام .

وكذلك الإنتاج فى مجال الحضارة الإسلامية يجب أن يحمل المفاهيم المستمدة
من الدين الإسلامى ، وليست التى تتعارض مع الدين الإسلامى .

أما هذا الإنتاج الثقافي والحضارى المتزايد الآن فى وسائل الإعلام العربية والأجنبية مثل: أفلام السينما والتثيليات والغناء ... فإنه لا يمثل ثقافتنا الإسلامية بل يحمل مفاهيم الثقافة الغربية العلمانية ، ولذلك فإن غالبية الأفراد فى المجتمعات الإسلامية ترفضه، لأنه يتعارض مع ما جاء به الدين الحنيف .

وهناك بعض هذا الإنتاج الذى اختلطت فيه المفاهيم ، فتجد فى العمل الواحد بعض الشخصيات المرسومة والمفصلة لممثل ملتزم إسلامياً ، بجانب شخصيات أخرى تمثل المفاهيم العلمانية ، مثل الشخصيات المنحلة بدعوى أن المجتمع يحمل هذا وذلك .

والإنتاج الثقافى الذى يحمل المفاهيم الإسلامية يعنى إنتاجاً ثقافياً متميزاً فنياً ، وفى الوقت نفسه يحمل المفاهيم الإسلامية .

ولنضرب لذلك مثلاً بالفيلم السينمائى :

فالفيلم السينمائى الذى يحمل المفاهيم الإسلامية يجب أن يكون : قصة أو موضوع الفيلم ، والسيناريو والإخراج ، وحركات الممثلين وإيماؤهم وملابسهم والتصوير والمعالجات الفنية التنفيذية ، والمناظر الخلفية ... وغير ذلك مثل : غطاء الرأس بالنسبة للنساء ، وحركاتهن وسكناتهن يجب ألا يكون فيها ما يتعارض مع ما جاء به الدين الإسلامى .

أما خلط الأمور ، بمعنى أن تجد الفيلم به شخصيات وحركات وإيماؤات تتعارض مع ما جاء به الإسلام ، وبه شخصية شيخ أو امرأة ملتزمة فى وسط هذا الغناء الثقافى .

يجب أن نتعلم من السينما التى تنتجها جمهورية إيران الإسلامية فى العقدين الأخيرين ، حيث تجد الأفلام السينمائية تعالج شتى الموضوعات ولكن من وجهة نظر إسلامية ، فتجد القصة والسيناريو والإخراج والتثيل والملابس (وغطاء

الرأس بالنسبة لكل النساء وليس بعضهن)، وغير ذلك تحمل المفاهيم الإسلامية، ولا يوجد أى جانب من جوانب الفيلم يحمل المفاهيم العلمانية مثل العرى ...

وهذا معناه أن القائمين على صناعة السينما الإيرانية من كتاب لقصة الفيلم ومخرجين وممثلين ومصورين يلتزمون بمفاهيم ثقافتهم الإسلامية كل في مجاله، فيجىء الفيلم متناغماً يحمل المفاهيم الإسلامية ولا يوجد به جوانب تتعارض مع ما جاء به الدين الحنيف مثل: الرقص، والحركات والإيحاءات الجنسية، أو تصوير العرى، أو موضوعات ومعالجات تتنافى مع المفاهيم الإسلامية.

وهذا لا يعنى أن الفيلم الإيراني الحالى يخلو من النواحي الفنية الإبداعية، بل إن الأفلام الإيرانية تشترك في كل مهرجانات السينما العالمية، ومنها مهرجان القاهرة السينمائي الدولي وتفوز بالجوائز الأولى في الإخراج والتمثيل والتصوير والسيناريو ... وذلك لما تتميز به من الإبداع الفني في هذه المجالات.

مع ملاحظة أن مهرجانات السينما العالمية مقياس الفوز فيها هو الإبداع الفني. أما ما تحمله وتمثله من مفاهيم ثقافية، فذلك خاص بكل ثقافة، ولا يدخل في مضمار التسابق.

إن تكوين شركة للإنتاج السينمائي تشترك فيها الفنانات المحجبات والفنانون الملتزمون كل في مجاله، وذلك لإنتاج أفلام سينمائية تحمل مفاهيم الثقافة الإسلامية الصحيحة مثلما فعلت جمهورية إيران الإسلامية، أصبح من الضرورات في العصر الحديث، ويا حبذا لو تقوم هذه الشركة بإنتاج تمثيليات ومسلسلات تحمل مفاهيم الثقافة الإسلامية بدلاً من هذا الخلط الثقافي الذي ظهر في بعض المسلسلات التي اشترك في تمثيلها بعض الفنانات المحجبات، والتي أذيعت في رمضان عام (1427هـ - 2006م).

4- هناك جانب خفي في الثقافة الإسلامية وفي الحضارة الإسلامية يرجع إلى الإيمان الذي يملأ القلب والوجدان.

وهناك جانب ظاهر في الثقافة الإسلامية، وفي الحضارة الإسلامية والذي يتمثل في الإنتاج الثقافي، والإنتاج في مجال الحضارة الإسلامية .

أما عن الجانب الأول، والذي يرجع إلى الإيمان فإن الإيمان عمقه القلب ، والرسول ﷺ يقول : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر والقدر خيره وشره » .

وهذا الجانب هو الذي يتحكم في عملية الإنتاج الثقافي والإنتاج في مجال الحضارة الإسلامية .

والجانب الخفي في الثقافة الإسلامية، والذي يرجع إلى الإيمان هو الذي يتحكم في عملية الإبداع الأدبي والفني الذي يباشرها الأديب والفنان المسلم، فيجئ إبداعه الأدبي أو الفني تبعاً لما جاء به الإسلام ولا تجد فيه ما يخالف الإسلام .

وأيضاً فإن الجانب الخفي في الحضارة الإسلامية هو الذي يتحكم في مجال الإنتاج في مجال الحضارة الإسلامية ، فلا يكون الاقتصاد الإسلامي مثلاً يحمل المفاهيم والمعطيات الربوية ، أو تكون النظم الاجتماعية وقوانين الأسرة لها مفاهيم ومعطيات غير إسلامية مثل قوانين الأسرة التي صدرت في بعض البلاد العربية، وبها شبهة المخالفة لما جاء به الإسلام في هذا المجال .

وهذه بعض الأمثلة لما سبق ذكره :

نشر في جريدة الأهرام بتاريخ 23 رمضان 1427 هـ الموافق 16 أكتوبر 2006م بصفحة أنوار رمضان ، لوحة للفنان المعاصر منيب أوبرادوفيتش ، وهي لوحة «كن فيكون» ، والمتأمل لهذه اللوحة يجد الروعة والجمال في رسم الحروف العربية ، والمحافظة على النسب والألوان ودلالاتها والإيحاءات التي يستشعرها الناظر إلى تلك اللوحة والتي تدل على النواحي الفنية الجمالية ، ولو تعمقنا قليلاً لأدركنا هذه الإيحاءات الإيمانية، والتي تمثل الجانب الخفي في ثقافتنا الإسلامية .

فالإيمان الصادق عند هذا الفنان تحسه وتستشعره كخييط يسرى في أنحاء لوحته ، تحس وتستشعر العلاقة بين الفنان المؤمن والآية القرآنية الكريمة : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾⁽¹⁾ . ويتمثل ذلك في أشياء عديدة في هذه اللوحة الرائعة مثل الحروف المتعاكسة التي تدل على بعض الأمور الدنيوية ، والحروف المتشابهة في وسط اللوحة ، والتي تكون شكل القلب النابض بالإيمان ، واختيار الفنان للون الأزرق لون السماء واللون البني لون الأرض في شكل متناغم بديع ، وذلك في الزخرفة الإسلامية التي استعملها في اللوحة .

والفنان الذي رسم هذه اللوحة لا يمكن إلا أن يكون فناناً مسلماً ، وذلك لسببين الأول : أنه فنان رسم لوحة فنية بمعايير فن الرسم ومقاييسه تعتبر متميزة . والثاني : أنه يؤمن بمفاهيم الثقافة الإسلامية ، وأن هذه المفاهيم مستمدة من الدين الإسلامي والمرجعية الإسلامية مثل اختياره للموضوع وعلاقته بالآية القرآنية التي ذكرناها والإيحاءات الإيمانية والزخرفة الإسلامية ... وهذه كلها من مفاهيم الثقافة الإسلامية .

وتحت عنوان : روائع الفن الإسلامي ، يعلق أحمد حسن على اللوحة فيقول :
« لوحة الفنان منيب أوبرادوفيتش تعبر عن العلاقة بين عالم الخلق والأمر ، وكتبت اللوحة بالطريقة المتعاكسة لتدل على أن كثيراً من الأمور الدنيوية قد تبدو متعاكسة ولا ندرك معانيها لأول وهلة إلا أننا لو تعمقنا قليلاً ندرّك أنها صادرة من أمر الحق سبحانه وتعالى ، وهذه اللوحة تؤكد ضرورة إدراك الإنسان لهذين العالمين ، وأن قلبه لا بد أن يكون في توازن بينهما ، حيث تتشابك الواو العادي والواو المتعاكس وتكونان شكل القلب . وتدل ألوان الزخرفة على هذين العالمين ، حيث اختار الفنان لون السماء الأزرق ولون الأرض البني » .

(ج) هل يمكن أن تُلغى فكرة الثقافة ؟

لقد ابتكرت أوروبا فكرة الثقافة نظرًا للظروف الخاصة التي مرت بها كما ذكرنا في الباب الأول ، فهل يمكن للأمم الأخرى التي تتمسك بمعتقداتها الدينية ، مثل : الصينيين واليابانيين والهنود والمسلمين وغيرهم ، أن يتخلوا عن فكرة الثقافة ، باعتبار أن معتقداتهم الدينية هي ثقافتهم الحقيقية ؟

في الحقيقة فإن الأمة الإسلامية خاصة والأمم الأخرى عامة قد استخدمت فكرة الثقافة حسب معتقداتها الدينية ، ولم تتبع الغرب في هذا المجال ، أما أوروبا وأمريكا فإنها ما زالت تقدم رجلا وتؤخر أخرى مترددة بين الاختيارات الدينية المسيحية والاختيارات العلمانية المادية حتى الآن ، كما سيتضح في الفصل الثالث من الباب الرابع.

وما دامت كلمة وفكرة الثقافة قد اكتسبت الآن هذا الاعتبار والانتشار في كل أرجاء العالم ، وأصبحت كغيرها من الكلمات الكثيرة التي استقرت وأصبح لها مفهومها ومدلولها الخاص ، فإن إلغائها يصبح لا جدوى منه ، والمهم في هذا المجال أن تتضح الأمور الصحيحة وتنتشر حتى نتمسك بمفاهيم ثقافتنا الإسلامية الحقيقية ، ولا ننزلق في تقليد الأوروبيين والأمريكيين ونتخذ مفاهيم ثقافتهم العلمانية مفاهيم لنا بديلا عن ثقافتنا الإسلامية . وأن يكون إنتاجنا الثقافي ، مثل : الأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية والأغاني والقصص الأدبية والقصائد الشعرية يحمل مفاهيمنا الإسلامية وليس المفاهيم العلمانية .

وما نراه الآن في بعض المحطات الفضائية العربية وغيرها من القنوات التليفزيونية من عري ومجون وتمثيلات وأغاني تحمل دلالات وإساءات وكلمات جنسية صريحة تخدش الحياء العام ، ما هو إلا من نتائج هذا التقليد الأعمى للثقافات الأوروبية والأمريكية العلمانية .

لاشك أننا نرى الآن بشائر الوعي بحقيقة ثقافتنا الإسلامية وتميزها وتفرداها عن الثقافات الأخرى في بعض مجالات الإنتاج الثقافي ، كما يظهر في بعض القنوات الفضائية ، وفي الأدب الإسلامي ، وفي شبكة الإنترنت في بعض المواقع

إن الدعوة إلى التمسك بالدين الإسلامي ومعطياته ومفاهيمه في مجالات الحياة المختلفة ، تحمل في طياتها دعوة إلى تصحيح بعض مجالات الإنتاج الثقافي التي اختلت ، والدعوة إلى التمسك بالدين الإسلامي فرض على كل مسلم ومسلمة .

وإن إلغاء فكرة الثقافة التي قصدتها في هذا السياق شيء آخر غير إلغاء وزارة الثقافة ، فإلغاء وزارة الثقافة قد تم فعلاً في بعض الدول ، مثل : المملكة الأردنية الهاشمية في حكومة فيصل الفايز التي تشكلت في نوفمبر 2003م . ومن المفارقات أن الدول الأوروبية والأمريكية التي كانت قد ابتكرت فكرة الثقافة هي الدول التي لا يوجد عندها وزارة ثقافة الآن . أما الدول الإسلامية في أغلبها وكثير من دول الحضارات الأخرى هي التي عندها وزارات للثقافة .

خلاصة

تكونت النواة الأولى للمجتمع الإسلامى فى مكة من صحابة رسول الله ﷺ قبل الهجرة، الذين تربوا على ما جاء به الإسلام . وكانت مفاهيم الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية، ومفاهيم المجالات الأخرى تتكامل بنزول الآيات القرآنية المتتابعة ، وترسخ فى عقول وقلوب الصحابة .

وبعد الهجرة إلى المدينة ، وقيام المجتمع الإسلامى من المهاجرين والأنصار ظلت هذه المفاهيم تتجمع حتى اكتملت عند وفاة النبي ﷺ ، وبذلك صارت مفاهيم القرد المسلم هى مفاهيم المجتمع المسلم ، سواء فى مجال الثقافة والحضارة ، أو المجالات الأخرى .

ونحن ليس لنا إلا هذا الدين ومفاهيم الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية المذكورة فى البحث .

وقد قامت المجتمعات الإسلامية وتكونت مرجعيتها الإسلامية طوال البعثة المحمدية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وثقافة هذه المجتمعات الإسلامية وحضارتها قائمة على المرجعية ، ومفاهيمها مستمدة من الدين الإسلامى .

ومما جاء به الإسلام وتصف به الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية : العدل والقسط والتسامح والتدافع دون بغى أو عدوان ، وكذلك الإصلاح وعدم الإفساد فى الأرض ...

وتعتبر اللغة العربية من العناصر الأساسية المكونة لتسيج الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية لأنها لغة القرآن الكريم .



الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ

تعريف كل من الثقافة والحضارة الإسلامية

(أ) إلقاء الضوء على بعض التعريفات الحالية لمفهوم الثقافة عند بعض المفكرين العرب .

كثير من التعريفات الحالية التي ذكرها بعض المفكرين العرب لمفهوم الثقافة تأخذ بالتعريفات الغربية - عبر مراحل تطورها - وبعضهم يحوّر هذه التعريفات لتستوعب المفهوم الإسلامى للثقافة ، والبعض الآخر يستخدم هذه التعريفات بمفهومها العلمانى .

وهناك عدد قليل من المفكرين العرب انطلق في تعريفه للثقافة من منظور إسلامى تاريخى .

وهذه بعض التعريفات لمفهوم الثقافة عند بعض المفكرين العرب المسلمين :

1 - وأدأ بنفسى ، فقد أخذت بالتعريف الذى وضعه إدوارد تيلور للثقافة في فترة سابقة ، ولكنى جعلت الدين الإسلامى هو الذى يشمل الثقافة ، وهو الذى يصبغ العناصر المكونة لنسيجها بمفاهيمه ومعانيه ، وتعريف تيلور للثقافة الذى يقول بأن الثقافة : « مركب معقد مكون من المعرفة والدين والأخلاق والقانون والعادات ، والفنون ، وأى مقدرات مكتسبة بواسطة الفرد بوصفه عضواً في المجتمع » . هذا التعريف اتخذته وجعلت الأخلاق في ثقافتنا هى الأخلاق الإسلامية ، والقوانين هى أحكام الشريعة الإسلامية التى يجب أن تطبق على الأفراد والشعوب والحكومات

بهيئاتها ومؤسساتها ونظمها ككل ، والعادات هي العادات الإسلامية ، والمعرفة يجب أن تصطبغ بالمفاهيم الإسلامية ، والمقدرات المكتسبة هي قواعد ونظم المجتمع الإسلامى التى لها مفاهيم إسلامية ومقدرات وعادات إسلامية تنعكس على الفرد منذ مولده ونشأته وحياته ، والفنون فى ثقافتنا يجب أن تحمل المفاهيم الإسلامية . وقد قمت بتفصيل ذلك فى أحد كتبى ⁽¹⁾ .

وإذا كان تيلور قد جعل الدين المسيحى هو أحد العناصر المكوّنة للثقافة العلمانية الغربية ، فإننى قد جعلت كل العناصر المكوّنة للثقافة تصطبغ بمفاهيم ومعطيات إسلامية، أى أننى جعلت كل العناصر المكوّنة للثقافة لها مفاهيم إسلامية وأن الثقافة وعناصرها هى جزء من معطيات الدين الإسلامى ، وتفصيل ذلك فى كتابى المذكور الذى صدر سنة 1998م .

2 - ويعرف الدكتور محمد عمارة الثقافة والهوية والأصالة والمعاصرة ، فيقول فى تعريفه للهوية ⁽²⁾ : « الهوية فى عرف حضارتنا العربية الإسلامية مأخوذة من « هو .. هو » بمعنى : جوهر الشيء وحقيقته ، فهوية الإنسان أو الثقافة أو الحضارة هى : جوهرها وحقيقتها . ولما كان فى كل شيء من الأشياء - إنساناً أو ثقافة أو حضارة - « الثوابت » و « المتغيرات » فإن هوية الشيء هى ثوابته التى تتجدد ولا تتغير ، تتجلى وتفصح عن ذاتها دون أن تخلى مكانها لنقيضها طالما بقيت الذات على قيد الحياة ، إنها كالبصمة بالنسبة للإنسان تتجدد فاعليتها ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طواريئ الغبار وعوامل الطمس والحجب دون أن تخلى مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات » .

ويقول فى تعريفه للثقافة - معتبراً أن المضامين التى سنعتمدها لهذه المصطلحات هى مضامينها العربية الإسلامية ، العربية لغة ، والإسلامية فكراً ، أى المضامين

(1) د. محمد الجوهري ، الثقافة العربية والحضارة الإسلامية ، دار الأمين ، القاهرة ، 1998م .

(2) د. محمد عمارة (مفكر إسلامى) ، الهوية الثقافية بين الأصالة والمعاصرة ، مقال بمجلة الرسالة التى تصدر عن مركز الإعلام العربى ، العدد 13 ، ذو القعدة 1425هـ ، ديسمبر 2004م .

الإسلامية التي تحدت وصيغت في لغتنا العربية - الثقافة « هي كل ما يسهم في عمران النفس وتهذيبها ، فالتثقيف من معانيه التهذيب ، وإذا كانت المدنية هي تهذيب الواقع بالأشياء ، فإن الثقافة هي تهذيب النفس الإنسانية بالأفكار وكلاهما عمران .. عمران للواقع وعمران للنفس ، فهما شقا الحضارة التي هي « العمران » .

وتعلق الثقافة واختصاصها بعمران النفس الإنسانية وتهذيبها هو الذي يعطى لثقافات الحضارات المتميزة تمايزاً منبعا ومنطقه ودواعيه : تميز النفس الإنسانية في كل حضارة من الحضارات بتميز المكونات والموارث والعقائد والفلسفات التي تميز بين « البصمات » الثقافية في أمم هذه الحضارات » .

والدكتور محمد عمارة هنا يستخدم عمران النفس وتهذيبها لتدل على الثقافة ، و « العمران » ، ليدل على الحضارة ، أى أن الحضارة هي العمران . وهذا المفهوم لمعنى الحضارة هو الذى استخدمه ابن خلدون في « المقدمة » ، ويعتبر ابن خلدون أول من أبرز معنى الحضارة كما ذكرنا سابقاً ، وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ عَلَيْهَا ﴾ ⁽¹⁾ .

أما تعريف الثقافة بأنها تهذيب النفس الإنسانية ، فهو المفهوم الذى جاء به صمويل كولدرج في مرحلة البحث الأولى عن مفهوم جديد - يحل محل المعتقدات المسيحية المفتقدة بعد سيطرة العلمانية وسيادتها - أطلق عليه Culture (تهذيب) و Cultivated (مهذب) في الفترة الممتدة من 1780 إلى 1850م ، وبعد ذلك تم ترجمة كلمة « Culture » إلى كلمة « ثقافة » بواسطة سلامة موسى . وفي ذلك الوقت اعتبرت الـ Culture هي عملية تهذيب النفس والعقل كما ذكرنا سابقاً .

3 - ويعرف الأستاذ على عياد الثقافة بأنها : « هي السلوك بمعنى كيف نتصرف التصرف المناسب في الوقت المناسب ، فإذا كنت مسافراً لوطن غير وطنك

فمن المستحب أن يكون لديك قدر من المعرفة بأبجديات لغة هذا الوطن وأنشأ السلوك فيه ، أى معرفة شيء من ثقافة هذا الوطن والمباح والمنوع في سلوكيات شعبه وأبعاد سياسته الوطنية ، ولأن الثقافة سلوك ، فإنها بهذه المثابة لا تحمل معنى التخصص الدقيق في حالة العلوم أو الأدب مثلاً⁽¹⁾.

وهو هنا يأخذ بالتعريف الذى ظهر في أوروبا في أوائل القرن العشرين على يد بعض الأنثروبولوجيين ، والذى أخذ به إليوت بعد ذلك ، واعتبرت الثقافة هى طريقة حياة المجتمع .

4- ويعرف المرحوم الدكتور أحمد صدقى الدجاني الثقافة فيقول : « الثقافة في أبسط تعريفاتها هى : مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات »⁽²⁾.

وهو هنا يأخذ بتعريف الأنثروبولوجيين الأوربيين ، أوت . س . إليوت في تعريفه للثقافة بأنها طريقة حياة مجتمع .

5- ويقول د. نصر الدين مصباح القاضى عن مفهوم الثقافة عند بعض الباحثين المسلمين : « يحدد بعض الباحثين المسلمين الثقافة اصطلاحاً بأنها هى المعرفة التى تؤخذ عن طريق الأخبار والتلقى والاستنباط بالتاريخ واللغة والفقه والأدب والتفسير والفلسفة والحديث ، من حيث إن التاريخ هو التفسير الواقعى للحياة ، والأدب هو التصوير الشعورى للحياة ، والفلسفة هى الفكر الأساسى الذى تبنى عليه وجهة النظر في الحياة ، والتشريع هو المعالجات العملية لمشاكل الحياة والأداة التى يقوم عليها تنظيم علاقات الأفراد والجماعات »⁽³⁾.

-
- (1) عل عياد ، مقال بجريدة الأهرام تحت عنوان : « اجتهادات في مفهوم الثقافة » ، في 8 / 1 / 2005 م .
 (2) الدكتور أحمد صدقى الدجاني ، مقال بجريدة الأهرام تحت عنوان : « السياسات الثقافية الغربية » ، في 24 / 3 / 2003 م .
 (3) د. نصر الدين مصباح القاضى ، كتاب « منهج الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة » ، دار الفكر العربى ، 2002 م .

وهذا التعريف لمفهوم الثقافة لا يأخذ بالمنهج الأوربي وتعريفاته للثقافة بل له منحي مخالف للتعريفات العلمانية الأوربية والأمريكية ، كما أنه لا يأخذ بالمفاهيم البوذية أو الهندوسية لمعنى الثقافة . وهو ينطلق من مفهوم إسلامي لمعنى الثقافة حسب تصور المؤلف د. نصر الدين مصباح القاضي وبعض الباحثين المسلمين .

6 - وهناك تعريفات لمفهوم الثقافة لا تأخذ بالتعريفات التاريخية التي سار فيها المفهوم الأوربي، ولكنها تنقل عن العلمانية المادية المعاصرة التي تعتبر الثقافة تراكم خبرات . يقول د. حامد عبد الرحيم : « وفي يقيني أن الثقافة لا تنشأ من فراغ ، بل هي نتاج خبرات إنسانية تراكمية متفق عليها نسبياً ، ومع مرور الزمن تصبح المرجع الأساسي للعقل الجمعي للمجتمعات التي تتحكم في التصرفات والسلوك وتتطور وفقاً للتطور التاريخي للحياة ... »⁽¹⁾ .

هذا المفهوم لمعنى الثقافة يمثل بعض الآراء العلمانية الغربية الحالية لتعريف الثقافة ، مع أن كثيراً من المفكرين الغربيين الآن يحاولون العودة للثقافة المسيحية وخاصة في أمريكا .

(ب) تعريف الثقافة من منظور إسلامي

يمكن وضع التعريف التالي لثقافتنا الإسلامية :

« الثقافة الإسلامية هي ثقافة المجتمعات الإسلامية ، وهي الثقافة التي أوجدها الدين الإسلامي والتي تأصلت وترسخت وتجلدت في المجتمعات الإسلامية ، وبذلك فهي مغروسة ومتجلدة في نفوس وقلوب وعقول المسلمين وتبسط سيطرتها وسيادتها على الجميع بما فيهم الأقليات الدينية في المجتمع ، ولكنها لا تحرمهم من حرية ممارستهم الدينية ، كما أنها تعترف للأقليات الدينية بحقوقهم في التمتع بثقافتهم الخاصة دون محاولة فرض ثقافتهم الخاصة على المجتمع الإسلامي » .

(1) الدكتور حامد عبد الرحيم ، مقال بجريدة الأهرام تحت عنوان : « التنوع الثقافي وكيف نعيش معاً » ،

وهذا التعريف مبنى على حقائق جاء بها الدين الإسلامى، كما جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

وكل جماعة من المسلمين ، وكل مجتمع إسلامى - يؤمن كل أفرادها أو الأغلبية من أفرادها بالدين الإسلامى - لهم نفس الأسس والمفاهيم الثقافية الإسلامية .

ومع أن الثقافة الإسلامية تبسط سيطرتها على المجتمعات الإسلامية إلا أنها تسمح للأقليات الدينية بحق ممارسة معتقداتهم وثقافتهم تحت مظلة وسيطرة الثقافة الإسلامية، مثلها فى ذلك مثل الثقافات الأخرى فى المجتمعات الغربية والهندية والصينية، وإن كانت بعض تلك المجتمعات الأخيرة تضيق على الأقليات المسلمة وتمنعها من حرية ممارسة عقائدها ومفاهيمها الثقافية، مثل : قضية الحجاب فى فرنسا ، ومهاجمة الإسلام فى بعض البلاد الأوروبية ، واضطهاد الأقليات المسلمة فى بعض الدول البوذية والهندوسية فى آسيا .

إن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى الدول العربية والإسلامية تعتبر الأساس الوحيد لوحدة العالم الإسلامى، ليس ثقافيًا فقط بل ثقافيًا واقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا.

وهذا التعريف الذى أوردناه للثقافة الإسلامية يمكن تطبيقه وتعميمه بالنسبة للثقافات الأخرى ، فيكون تعريف الثقافة بصفة عامة كالآتى :

« الثقافة هى مفاهيم ومعطيات جاء بها الاعتقاد الدينى الذى يسود فى مجتمع من المجتمعات سواء كان هذا الاعتقاد - الذى يؤمن به كل أو أغلب أفراد المجتمع - دينًا سماويًا أو دينًا غير سماوى أو اعتقادًا ماديًا لا ديني ، وهذه المفاهيم والمعطيات التى جاء بها الاعتقاد الدينى هى التى تشكل الجانب غير المرنى من الثقافة مثل النواحي الروحية والانفعالية ، كما أن الجانب المرنى من الثقافة مثل : الإنتاج الأدبى والفنى والفكرى يصطبغ بها ولا يخرج عنها ، كما أن بعض الجوانب المشتركة بين الثقافات تصطبغ بها » .

(ج) تعريف الحضارة عند بعض المفكرين العرب المعاصرين

جاء في المعجم الفلسفى : « إن الحضارة هى جملة مظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى التى تنتقل من جيل إلى جيل أو مجتمعات متشابهة »⁽¹⁾.

ويعرف الدكتور حسين مؤنس الحضارة بقوله : « الحضارة هى ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان الجهد المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود ، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية »⁽²⁾.

ويقول دكتور أحمد عبد الرحيم السايح عن الحضارة فى مقال له : « فالحضارة بكل بساطة معناها بذل للمجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنسانى وتحقيق التقدم من أى نوع فى أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعى . إن الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزماً واضحاً صادقاً على بلوغ التقدم ويكرمون أنفسهم تبعاً لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم ، والحضارة باختصار شديد هى جملة المظاهر المعنوية التى يخلقها التاريخ ، والتى تبقى فى المجتمع على مر الأيام دليلاً على القدرات الذهنية المميزة وتعبيراً عن روح هذا المجتمع والشعب الذى يمثلها »⁽³⁾.

ويعرف دكتور حامد عبد الرحيم عيد الحضارة بقوله : « الحضارة فى عموم معناها تعنى مجموع الجهد الإنسانى المؤدى إلى الرقى والتقدم فى شتى مجالات الحياة »⁽⁴⁾.

(1) المعجم الفلسفى ، إصدار مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، 1979 م .

(2) د. حسين مؤنس ، « الحضارة » ، إصدار عالم المعرفة ، الكويت ، 1978 م .

(3) الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح ، مقال بجريدة الوفد تحت عنوان : « الحضارة وضرورات الحياة » ، 2006 / 6 / 26 م .

(4) الدكتور حامد عبد الرحيم ، مقال بجريدة الأهرام تحت عنوان : « التنوع الثقافى وكيف نعيش معاً » ، 2005 / 5 / 20 م .

ويعرف الدكتور محمد عبد القادر الخطيب الحضارة الإسلامية بأنها : « كل إنتاج روحي أو مادي ينسب إلى الشعوب التي دخلت في الإسلام وتشربت الحياة الإسلامية »⁽¹⁾.

(د) تعريف الحضارة من منظور إسلامي

يمكن وضع التعريف التالي لحضارتنا الإسلامية :

« الحضارة الإسلامية هي حضارة المجتمعات الإسلامية ، وهي الحضارة التي أوجدها الدين الإسلامي ، فهي تستمد مفاهيمها وأسسها من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، والحضارة الإسلامية قامت مع قيام الدين الإسلامي وتأصلت وترسخت مفاهيمها في المجتمعات الإسلامية منذ البعثة النبوية الشريفة وحتى الآن ، وهي تبسط سيطرتها وسيادتها على الإنتاج في مجال الحضارة ، فيجب أن يحمل هذا الإنتاج المفاهيم الإسلامية » .

ويمكن وضع التعريف التالي للحضارة بصفة عامة :

« الحضارة هي مفاهيم ومعطيات أوجدها الاعتقاد الديني في مجتمع من المجتمعات نتيجة لإيمان هذا المجتمع بهذا الاعتقاد الديني ، والإنتاج في مجال الحضارة يحمل هذه المفاهيم والمعطيات التي أوجدها الاعتقاد الديني ، والإنتاج في مجال الحضارة به جزء مشترك بين الحضارات مثل العلوم الطبيعية والتكنولوجيا ... فليس هناك رياضيات إسلامية أو رياضيات بوزية أو رياضيات هندوسية أو رياضيات علمانية غربية مثلا ، والإنتاج في مجال الحضارة يشمل الإنتاج في مجال الثقافة » .

(1) د. محمد محمد عبد القادر الخطيب ، كتاب « دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية » ، مطبعة الحسين ، القاهرة ، 1411هـ - 1991م .

ولتوضيح هذا التعريف :

أسس ومفاهيم كل من الثقافة والحضارة مستمدة من الاعتقاد الدينى الذى يدين به مجتمع من المجتمعات والإنتاج فى مجال كل من الثقافة والحضارة ، حيث يصطبغ بهذه الأسس والمفاهيم - أو يجب أن يصطبغ بها - حتى يمكن الحكم بانتسابه لهذه الحضارة ، غير أننا نجد خلطاً فى الإنتاج الثقافى والحضارى فى كثير من الأحيان - خاصة عند بعض المفكرين العرب المعاصرين - وذلك راجع لعدم بلورة مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة حتى الآن عند كثير من المفكرين سواء فى الغرب أو الشرق.

والدليل على ذلك أن كثيراً من المخترعات العلمية يحكم عليها بالانتساب لهذه الحضارة أو تلك بسبب الدولة التى اخترعت فيها ، مع أنها تعد مما هو مشترك عام بين الحضارات . فعلم الجبر مثلاً اخترعه العالم المسلم الخوارزمي، ولكن لا يمكن القول أن هناك علم جبر إسلامى وعلم جبر بوذى وعلم جبر غربى علماني، مع أن الخوارزمي رجل مسلم وعلم الجبر تم اختراعه فى دولة إسلامية ، وأيضاً تلك الاختراعات والمكتشفات العلمية فى أوروبا وأمريكا الآن لا يمكن القول بأنها تنسب إلى الحضارة الغربية العلمانية المعاصرة - كما يعتقد كثير من المثقفين - ولكن تلك المكتشفات والمخترعات العلمية تعد مما هو مشترك عام بين الحضارات كما سنتناوله بالتفصيل فيما بعد .



خلاصة

1- هناك تعريفات عديدة لكثير من المفكرين العرب لمفهوم الثقافة ، وكثير من هذه التعريفات تأخذ بالتعريفات الغربية العلمانية - عبر مراحل تطورها - وبعضها يحوّر هذه التعريفات لتستوعب المفهوم الإسلامى للثقافة ، والبعض الآخر يستخدم هذه التعريفات بمفهومها العلمانى .

وقد ذكرت بعض هذه التعريفات وأوضحت مدى ارتباطها بالمفهوم العلمانى الغربى للثقافة ، أما تعريف الثقافة من منظور إسلامى فهو مذكور فى البحث .

2- وبالنسبة لتعريف الحضارة عند بعض المفكرين العرب المعاصرين ، فإن بعض هذه التعريفات جاء مستقلاً عن التعريفات الأوربية والأمريكية إلى حد بعيد، وبعضها جاء على نسق التعريفات الغربية .

أما تعريف الحضارة من منظور إسلامى فقد ذكرته وأوضحت جوانبه المختلفة .

3- وقد تم إلقاء الضوء على ارتباط الثقافة بالإنتاج الثقافى ، وخاصة فى مجال الأدب والفنون ، وما يجب أن نقوم به من إنتاج ثقافى متميز يحمل مفاهيمنا ومعطياتنا الإسلامية .



الباب الثالث

الدين الإسلامي والثقافة والحضارة

الفصل الأول

المفومات الأساسية التي جاء بها الدين الإسلامي
وقامت عليها الثقافة والحضارة الإسلامية .

الفصل الثاني

هل الحضارات الجديدة تقوم بقيام اعتقاد ديني جديد ؟ ..
وهل تنهار الحضارات بانحيار الاعتقاد الديني الذي قامت عليه ؟

الْقَصْدُ الْإِلَهِيُّ

المقومات الأساسية التي جاء بها الدين الإسلامي وقامت عليها الثقافة والحضارة الإسلامية

مقدمة :

كان لا بد من تناول العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية والأخلاق الإسلامية في القرآن الكريم ، وقبس يسير من السيرة النبوية العطرة وذلك لكي نبين الأسس التي تربي عليها صحابة رسول الله ﷺ عند بدء الدعوة .

ذلك لأنه من هؤلاء الأفراد القلائل الذين آمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به تكونت النواة التي كانت لب المجتمع الإسلامي الذي قام في المدينة المنورة ، وهو المجتمع الذي تشكل على الإسلام وعلى رؤيته ، وتشكلت أخلاقياته وسلوكياته أفراداً ، وتشكلت مبادئه ومفاهيمه الإسلامية في جميع مجالات الحياة بما فيها مفاهيم ثقافته ومفاهيم حضارته الإسلامية التي جاءت حسب ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

والقرآن الكريم أنزله الله سبحانه وتعالى على رسول الله ﷺ مفرقاً ، فكان النبي ﷺ يعلمه لأصحابه ويبين لهم ما كان خافياً عليهم من معانيه ويقومون بتنفيذ كل ما جاء به ، فكان صحابة رسول الله ﷺ يتربون تربية عملية على نهج الإسلام كما جاء في القرآن والسنة النبوية .

فالقرآن الكريم جاء للتطبيق العملي في حياة الفرد وحياة الجماعة وحياة الأمة ، والمجتمع الإسلامي الذي قام في المدينة المنورة قام ومعه رؤيته الإسلامية ومفاهيمه الإسلامية في جميع مجالات الحياة ، ومنها الثقافة والحضارة .

فالفرد المسلم عندما كان يؤلف عملاً ثقافياً - قصيدة شعر مثلاً - أو يقوم بعمل في مجال الحضارة - مثل النواحي: السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية - فإنه يفهم جيداً ويؤمن بما جاء به الإسلام عن هذه المجالات التي يتناولها ، ومن ثم فهو ملتزم بما جاء به الإسلام .

أولاً : العقيدة الإسلامية في القرآن الكريم

الدين الإسلامى آخر الرسالات السماوية ، وهو دين شامل وعالمى ، يقول تعالى : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١) .

ونحن على ملة سيدنا إبراهيم نوحه الله ونعبده بالمفهوم الشامل للعبادة ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِى رَبِّىَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) قُلْ إِنِّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .

فالعبادة بمفهومها الشامل الذى أراده الله عز وجل هى أن تشمل كل نشاط فى حياة الإنسان ، فالْمُؤْمِنُ الصادق الإيمان الذى يؤدى عمله بإخلاص لا يبغي بذلك إلا وجه الله يكون قد حقق مفهوم العبودية . وتحقيق العبودية لله عز وجل يكون بتأدية الصلاة والصوم والزكاة والحج لمن استطاع إليه سبيلا ، ويكون بالسلوك الإسلامى بين الناس ، وفى تأدية العمل بإخلاص والتعامل مع الناس ومع الأسرة

(١) البقرة : 136 .

(٢) الأنعام : 161-163 .

والعشيرة والإخوان بما يرضى الله ، فالعبادة تشمل كل نشاط في حياة الإنسان .
فالله عز وجل يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(١) .

فالعبادة بمفهومها الواسع هي الهدف الذي خلق الله الإنسان من أجله .

والقرآن الكريم كتاب الله أنزله الله عز وجل على رسول الله ﷺ ، يقول
تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَنَعَزِيزُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ ﴿ عَلَى قَلْبِكَ
لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ ^(٢) .

وقد جاءت آيات القرآن الكريم بالعقيدة الإسلامية في وضوح تام ، والقرآن
المكي ظل ينتزل على رسول الله ﷺ محدثه عن قضية واحدة لا تتغير ، ولكن بطريقة
عرض لا تكاد تتكرر ، وهذه القضية هي قضية العقيدة الإسلامية ، وهي القضية
الكبرى والأساسية في الإسلام .

وآيات القرآن الكريم تواجه أخلاط شتى من المنكرين لوجود الله : ﴿ وَقَالُوا
مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ
عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ^(٣) .

ومن الكافرين المتكبرين: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا تَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا
الْمَلَكُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ
الْمَلَكُ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ ^(٤) .

(١) الذاريات : 56 .

(٢) الشعراء : 192 - 195 .

(٣) الجاثية : 24 .

(٤) الفرقان : 21 ، 22 .

وأخلاق من الكافرين الجاهلين : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ كَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ⁽¹⁾ . وأصناف من الكافرين المنكرين للآخرة والحساب : ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ⁽²⁾ . ثم هؤلاء الكافرين المكذبين بمجيء الساعة والذين لا يعلمون ماذا يحل بهم في غدهم القريب ، والله سبحانه هو العليم بالغيب : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ ⁽³⁾ . والساكنين ينكرون الآخرة ويقولون : ﴿ لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ ، فيرد عليهم مؤكدا : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ وهم لا يعلمون الغيب فهو سبحانه : ﴿ عِلْمِ الْغَيْبِ ﴾ .

وكما يقول سيد قطب في الظلال : أقرب تفسير لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أنه علم الله الذي يقيد كل شيء ولا ينفذ عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . ومن المنكرين لرسالة محمد ﷺ يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ ⁽⁴⁾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَتَأْتِيَ آلَ الذِّكْرِ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ⁽⁵⁾ .

(1) البقرة : 118 .

(2) الأنعام : 29 .

(3) سبأ : 3 .

(4) الرعد : 43 .

(5) الحجر : 6 .

ومن هؤلاء الكافرين من ينكر رسالة الرسل بل ويستهزؤون بالرسل كما استهزأ وأنكر الذين سبقوهم : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ۝ (١)

وهؤلاء المنكرين الجاحدين لا يؤمنون حتى لو جاءتهم آية عقلية يرونها ويباشرونها - فقد جبلت قلوبهم وعقولهم على الكفر - فإنهم يعتبرون أنفسهم قد سحروا : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٧﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٨﴾ ۝ (٢)

ومنهم الذين يشبّون وجود الله وينكرون رسالات الرسل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ۖ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٩﴾ ۝ (٣) وآيات أخرى كثيرة تبين موقف هؤلاء الكافرين والمشرّكين على مر العصور وفي كل زمان وفي زماننا هذا الذي نعيشه .

وقد جاءت آيات القرآن الكريم لتجابه هؤلاء وتقيم حربًا عليهم ، وعدتها في ذلك مخاطبة العقل والقلب بأدلة عقلية تفضح أباطيلهم وترد على شبهاتهم .

وقد جاءت آيات القرآن الكريم لترد على هؤلاء الأنواع المتعددة من المنكرين لوجود الله سبحانه وتعالى ، ومن المنكرين لوجود الآخرة والقيامة والبعث ،

(1) الحجر : 10-13 .

(2) الحجر : 14 ، 15 .

(3) الأنعام : 91 .

والمكذبين برسالات الرسل ورسالة سيدنا محمد ﷺ والمشركين الذين يشركون في عبادته سبحانه وتعالى أصنامًا لا تعقل .

ونجى آيات القرآن الكريم لتبرهن بدلائل قاطعة دامغة على كذب هؤلاء وجهلهم وتكبرهم وانحرافهم :

ففى مجال خلق الله للسموات والأرض وخلق الإنسان يقول تعالى : ﴿ وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ۚ ثُمَّ يَأْتِيهِمْ خُلُقٌ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَبَيْتُكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّعَالَمِينَ ۝ ﴾^(١) . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝ إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ۝ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝ ﴾^(٢) .

وهذه الآيات الكريمة من سورة النبأ براهين وأدلة قوية عن خلق الأرض والجبال والإنسان ودلائل القدرة الإلهية في مظاهر الكون في الوظائف المختلفة للمخلوقات والحكمة الإلهية من ذلك ﴿ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴾ و ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ و ﴿ وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا ﴾ لحفظ الأحياء وحفظ الأنواع ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ للنشاط والحركة والسعى في طلب الرزق ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ للراحة ، وآيات كثيرة تبرهن على خلق الكون والإنسان منها ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾

(١) الروم : ٢٢ .

(٢) النبأ : ١٨-٦ .

أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ^(١) بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ^(٢) ﴿١١﴾ . وهو سبحانه الذى خلق الإنسان والمخلوقات الحية من المادة الميتة التى ليست فيها حياة : ﴿ نَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَنَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَنَحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ^(٣) ﴾ . ويقول تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنْ خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ^(٤) ﴾ . ومن آياته سبحانه وتعالى التى تفهم المعاندين الكافرين اختلاف الألوان فى مخلوقاته يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ^(٥) ﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ^(٦) ﴾ .

وعقيدة التوحيد وهى روح العقيدة الإسلامية وهى القضية التى هزت المجتمع القرشى من الأعماق .. توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ^(٧) ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ^(٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ^(٩) ﴾ .

« لا إله إلا الله » أشعلت النار فى قلوب المشركين ، وأعلنوها حرباً على رسول الله ﷺ وصحبه الكرام ، وما كان من إيذاء وتعذيب للمسلمين فى مكة .

(1) الطور : 35 ، 36 .

(2) الروم : 19 .

(3) الصافات : 11 .

(4) فاطر : 27 ، 28 .

(5) الصافات : 35 .

(6) محمد : 19 .

والقرآن الكريم يقيم الأدلة على التوحيد بصور شتى ، ومنها : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۖ فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾^(٢) ، وقوله عز وجل : ﴿ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا أُبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾^(٣) . أما توحيد الربوبية وهو أن الله هو الرب الخالق الرازق المحيي المميت فكان المشركون يقولون به : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾^(٥) .

ومع أن المشركين يقولون بربوبية الله تعالى وخلقه لمخلوقاته إلا أن عبادتهم لا تتجه إليه سبحانه فهم يعبدون غيره ، والله سبحانه وتعالى يقول لهم : ﴿ ذٰلِكُمْ اِلٰهُ رَبُّكُمْ فَاَعْبُدُوْهُ ۚ اَفَلَا تَذَكَّرُوْنَ ﴾^(٦) . ويقول لهم : ﴿ ذٰلِكُمْ اِلٰهُ رَبُّكُمْ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاَعْبُدُوْهُ ۚ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾^(٧) .

(1) الأنبياء : 22.

(2) المؤمنون : 91.

(3) الإسراء : 42.

(4) العنكبوت : 61.

(5) يونس : 31.

(6) يونس : 3.

(7) الأنعام : 102.

ويعرض القرآن الكريم أسماء الله الحسنى وصفاته العلى بمناسبةاتها المختلفة فيربط القلب بالله سبحانه وتعالى .. يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ ^(١) ، ويقول تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَمَّا وَابْتَعْتُمْ بِهِ ذَلِكُمْ سَبِيلًا ﴾ ^(٢) ، ويقول تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(٤) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(٥) .

والله سبحانه وتعالى السميع البصير ليس كمثله شيء ، فهو يصف نفسه فيقول : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ^(٦) .

وأرسل الله سبحانه وتعالى الرسل حاملين للبشر العقيدة الصحيحة : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَخِصْ بِالْحَقِّ وَخَيْرَ

(1) طه : 8 .

(2) الإسراء : 110 .

(3) الأعراف : 180 .

(4) الحشر : 22-24 .

(5) الشورى : 11 .

هَذَا لَكَ الْمُتَبَلُّوْنَ ﴿١١﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ (٢) .

والنبيون والرسل الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى لهداية الناس بشر وليسوا ملائكة : ﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (٣) . وأرسل الله سبحانه وتعالى النبي محمد ﷺ نبياً ورسولاً وهو خاتم النبيين والرسل : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَئِنْ رُسُلَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ (٤) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْعًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٥) ، الرسول ﷺ أرسل للناس جميعاً في كل زمان ومكان : ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (٦) .

وبيّن الله وظيفة الرسل : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَلَّ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٧) . وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٨) .

(1) غافر : 78 .

(2) النساء : 164 .

(3) الإسراء : 95 .

(4) الأحزاب : 40 .

(5) آل عمران : 144 .

(6) الأعراف : 158 .

(7) النساء : 165 .

(8) الحديد : 25 .

وقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى رسولنا ﷺ كما أوحى إلى الرسل من قبله : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾⁽¹⁾ . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَذِكْرٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾⁽²⁾ . وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾⁽³⁾ .

كما يبين القرآن الكريم أن الأنبياء وقفوا ضد الفساد في مجتمعاتهم كما جاء في قصص هود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام . فهود وقف في وجه بطش الجبارين ، وصالح وقف في وجه المسرفين : ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾⁽⁴⁾ ، ولوط وقف في وجه الساذين ، وشعيب وقف في وجه التجار الجشعين المطففين في الكيل والميزان والذين يبخسون الناس أشياءهم ، وموسى وقف في وجه التأله الفرعوني وتسلط هامان وبغى قارون .

كما يبين القرآن الكريم أمر الساعة والإيمان بالغيب والإيمان بالكتب المنزل والإيمان بقدر الله والإيمان باليوم الآخر .

يقول تعالى عن الساعة والغيب : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾⁽⁵⁾ . وعن هؤلاء المكذبين بالساعة : ﴿ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾⁽⁶⁾ .

(1) النجم : 4 .

(2) فصلت : 6 .

(3) الشورى : 52 .

(4) الشعراء : 152 .

(5) النحل : 77 .

(6) الفرقان : 11 .

والله سبحانه وتعالى هو الذى أنزل القرآن الكريم على نبينا ﷺ : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

وهو سبحانه الذى يجاسب الناس بالقسط يوم القيامة : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٢).

ثانياً : الشريعة الإسلامية فى القرآن الكريم

كما أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للعقيدة الإسلامية ، فهو أيضاً المصدر الأول للشريعة الإسلامية ، يقول تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣) ﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلَىٰ الْمُتَّقِينَ﴾ (٤).

والشريعة هى المنهاج العملى لحياة الفرد المسلم وحياة المجتمع المسلم . والآيات التى تعنى بالشريعة الإسلامية ، والتى يطلق عليها آيات الأحكام عددها ليس كبيراً جداً ، وتشمل العبادات مثل :

الصلاة ، يقول تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٥) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (٦).

(١) العنكبوت : ٥١ .

(٢) الأنبياء : ٤٧ .

(٣) الجاثية : ١٨ ، ١٩ .

(٤) البقرة : ١-٣ .

(٥) المؤمنون : ١ ، ٢ .

وأهمية المحافظة على الصلاة : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (١) ،
وأهمية المحافظة عليها وعلى الصلاة الوسطى : ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ
الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢) ، والاتجاه إلى القبلة في الصلاة : ﴿وَمِنْ حَيْثُ
خَرَجْتَ فَأَوِّدْ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ﴾ (٣) ، والصلاة في حالة الخوف والأمن : ﴿إِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالَ أَوْ رُكْبَانًا
فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٤) .

والاستعانة بالصبر والصلاة في الشدائد والمكاره والكروب فإن الله سبحانه وتعالى
يفرج الكرب بالصلاة والصبر ، وكان الرسول ﷺ يستعين بها إذا حز به أمر . يقول تعالى :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٥) .

واهتم القرآن الكريم ببعض شروط الصلاة كالطهارة : الوضوء والغسل
والتييمم في حالة عدم وجود الماء يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى
الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ
إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ
مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا
فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَّا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ
وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيَنبِئَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٦) .

(١) المؤمنون : ٩ .

(٢) البقرة : ٢٣٨ .

(٣) البقرة : ١٥٠ .

(٤) البقرة : ٢٣٩ .

(٥) البقرة : ١٥٣ .

(٦) المائدة : ٦ .

الزكاة . وعن مصارف الزكاة يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ
وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيَّهَا وَالْمَوْلَافَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَآبَنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ (١) .

والزكاة والإنفاق في سبيل الله قربات تكون من الطيبات وليس من الخبائث :
﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِن طَيِّبَتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِّنَ
الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِغَافِلِينَ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ حَمِيدٌ ۝ (٢) .

الصوم . وبين القرآن الكريم أهم أحكامه : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ
الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ
فَلْيَصُمْهُ ۚ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ
الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ (٣) ، ويقول تعالى : ﴿ أَجَلَ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الزَّكَاةُ إِلَى
بَسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۚ فَالْغَنَ بِشِرْوَاهُنَّ وَأَتَنَفَّوْا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ
وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۚ ثُمَّ
أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبْشِرُواهُنَّ ۚ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَجِدِ ۚ تِلْكَ حُدُودُ
اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ (٤) .

(١) التوبة : ٦٠ .

(٢) البقرة : ٢٦٧ .

(٣) البقرة : ١٨٥ .

(٤) البقرة : ١٨٧ .

الحج . وقد جاءت آيات القرآن الكريم لتبين أحكام الحج والعمرة ، يقول تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِمَةِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أُمِدَّتْ مِّن تَمَتُّعٍ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۚ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١١١﴾ ، وما تبع ذلك آيات في سورة البقرة وغيرها في آيات سورة الحج التي تبين أنواع وأحكام الحج والعمرة والوقوف بعرفات والمشعر الحرام والطواف والسعى ورمى الجمرات ...

والمعاملات^(١) وهي تشمل :

المعاملات المدنية مثل : معاملات البيع والشراء والرهن والشركة والإجارة ...

والأحوال الشخصية مثل : الزواج والطلاق والنفقة والعدة ...

والمعاملات هي من الأحكام التي تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض .

والعلاقات وهي تشمل بالإضافة إلى ما سبق الإشارة إليه مما يتصل بعلاقة الإنسان بربه كالعبادات ، وما يتصل بعلاقة الإنسان بأسرته - وقد جاء ذكر ذلك في آيات عديدة من القرآن الكريم - فإن العلاقات تشمل أيضا علاقة المسلمين بعضهم ببعض مثل : علاقة الرجل بالمرأة ، وعلاقة الزوج بزوجته وبأولاده ، وعلاقة المسلم بذوى القربى والجار وأحكام ذلك .

(1) البقرة : 196 .

(2) د. محمد عبد القادر الخطيب ، كتاب : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، مطبعة الحسين الإسلامية ، 1411هـ / 1991م .

وهناك أحكام نظمت العلاقة بين الحاكم والمحكوم وعلاقة المسلمين بغير المسلمين واحترام أديان ومعتقدات الآخرين وحرية الآخرين في ممارسة عباداتهم ، كما أن هناك أحكاما شرعت للحرب والسلام ...

والعقوبات . وهى الحدود مثل : حد الزنا والسرقه والقتل والقذف والحراية ، وهى عقوبات قليلة ، ويجانبها هناك باب واسع لنظام العقوبات فى الإسلام وهو « التعزير » .

وتحكيم الشريعة الإسلامية وتطبيقها فريضة من الله : وَمَنْ لَّمْ يَتَّخِمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ ، وَمَنْ لَّمْ يَتَّخِمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢﴾ ، وَمَنْ لَّمْ يَتَّخِمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣﴾ .

وتحكيم الشريعة الإسلامية وتطبيقها ملزمة للحاكم والمحكوم فى كل زمان ومكان ، وكل من آمن بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً يلزمه أن يذعن بمقتضى إيمانه إلى ما حكم به الله ورسوله وإلا عليه أن يراجع إيمانه من جديد^(٤) ، يقول عز وجل : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٥) .

وأحكام الشريعة الإسلامية منها أحكام تتغير بتغير الزمان والمكان ، وقد سكت عنها القرآن الكريم ، مثل شكل الحكم .

(١) المائة : ٤٤ .

(٢) المائة : ٤٥ .

(٣) المائة : ٤٧ .

(٤) د. يوسف القرضاوى ، كتاب: كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟ ، دار الشروق .

(٥) النور : ٥١ .

ومنها أحكام جاءت بطريقة كلية دون ذكر تفصيلاتها مثل نظام الشورى في الحكم ، وهى تحتاج للرأى والاجتهاد لإبراز تفاصيلها ووسائل تطبيقها ، مثل : مجالس الشورى أو البرلمان أو الأحزاب ...

ومنها أحكام لا تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال ، وقد جاءت مفصلة في آيات القرآن الكريم ، مثل أحكام الأسرة والزواج والطلاق والعدة والميراث والحدود .

ويقول الدكتور يوسف القرضاوى⁽¹⁾ : « صحيح أن هذه الأحكام الشرعية العملية التى جاء بها القرآن الكريم ليست كبيرة جداً ، ولكنها فى غاية الأهمية ، لأنها هى التى تميز أمة عن أمة ، وحضارة عن حضارة .

ففرضية الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعوة إلى الله ، والجهاد فى سبيل الله ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بما أنزل الله ، وتحريم الزنا والشذوذ الجنسى والربا ، وتحريم التبرج ، وتحريم السحر والكهانة وقتل النفس بغير حق ، والانتحار وشرب الخمر ، ولعب الميسر ، وأكل المال بالباطل ، وبخس الناس أشياءهم والإفساد فى الأرض ، وعقوبة القاتل والسارق والقاذف ، ومن يحارب الله ورسوله ويسعى فى الأرض فساداً ... كل ذلك مما يميز المجتمع المسلم ويجعل له شخصيته المتميزة بمقوماتها وخصائصها » .

ولهذا كان تحكيم هذه الشريعة وتطبيقها فريضة من الله لا يجوز التفريط فيها من راع ولا رعية سواء منها ما يتعلق بأحوال الأسرة ، أم بشئون المجتمع ، أم بأمور الدولة ، فمن لم يحكم بحكم الله وقع فى حكم الجاهلية لا محالة : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾⁽²⁾ .

(1) د. يوسف القرضاوى ، كتاب : كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟ ، دار الشروق .

(2) المائدة : 50 .

ثالثاً : الأخلاق في القرآن الكريم

الأخلاق في الإسلام ، إما أخلاق مأمور بها ، وإما أخلاق منهي عنها .
والأخلاق المأمور بها في الإسلام تشمل :
« الأخلاق الربانية » و « الأخلاق الإنسانية » .

والأخلاق الربانية هي الأخلاق التي تجسد الصلة بالله سبحانه وتعالى ، وتعمق الطاعات ، وتجعل الإنسان يقظاً يتذكر الله دائماً فيعبده حق عبادته .
وهذه الأخلاق الربانية تسمى بالزهد ، وهي الأخلاق التي اهتم بها علم التصوف والسلوك .

ويقول الدكتور يوسف القرضاوى^(١) عن الأخلاق في القرآن الكريم : « فإن الأخلاق الربانية التي تجسد الصلة بالله سبحانه وتعالى ، وتعمق التقوى له مثل : الإخلاص لله والإنابة إليه والتوكل عليه والخوف منه والرجاء في رحمته والحياء منه والخشية من عذابه والشكر على نعمائه والصبر على بلائه والرضى بقضائه والمحبة له والأنس به وإيثار الآخرة على الدنيا » . وهي التي عنى بها علم التصوف والسلوك .
وأما الأخلاق الإنسانية كالصدق والأمانة والكرم والرحمة والحلم والإيثار وبر الوالدين وصلة الأرحام وإكرام الجار والعطف على الضعيف .

وقد جعل القرآن الكريم « الأخلاق الربانية » و « الأخلاق الإنسانية » المأمور بها من تمام الإيمان والتقوى ، يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِفَافٍ مَعْرُضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ

(١) يوسف القرضاوى ، كتاب : كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟ ، دار الشروق .

أَيَّمَنُتُهُمْ فَإِيَّاهُمْ عَمَّرَ مُلْكُومِيْنَ ﴿١٠﴾ فَمَنْ أَيْتَنَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿١١﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿١٢﴾^(١).

والله سبحانه وتعالى يصف عباده الذين يحبهم، فيقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْخَاسِرِينَ﴾^(٢)، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٣)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٤)، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾^(٥).

أما من كان على عكس هذه الصفات فهو محروم من محبة الله، يقول تعالى: ﴿إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾^(٦)، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾^(٧)، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ﴾^(٨)، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٩)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ
فَخُورٍ﴾^(١٠).

وتلك هي الأخلاق المنهى عنها في الإسلام فالخيانة والظلم والفساد والحسد
والنفاق والرياء والشح كلها من الأخلاق المردولة المنهى عنها في الإسلام.

(1) المؤمنون: 1-8.

(2) آل عمران: 148.

(3) آل عمران: 146.

(4) البقرة: 222.

(5) النحل: 128.

(6) الأنفال: 58.

(7) يوسف: 52.

(8) آل عمران: 140.

(9) المائدة: 64.

(10) لقمان: 18.

ويقول الإمام الأكبر جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر السابق -رحمه الله⁽¹⁾: « إن اتباع الأخلاق الحسنة والفضائل في الإسلام فيه معنى خلقى ومعنى تعبدى أى أن التمسك بالأخلاق الحسنة والفضائل معناه التمسك بالأخلاق المحمودة والمفضلة والمقبولة ومعناه التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالتمسك بهذه الأخلاق الحميدة حتى ينال ثواب ذلك في الحياة الآخرة ، وبالمثل تجنب الأخلاق السيئة والمردولة فيه نفس المعنى الخلقى والتعبدى » .

ويقول الدكتور يوسف القرضاوى⁽²⁾ . عن الأخلاق في القرآن الكريم: « ولأهمية الأخلاق في القرآن الكريم يعتبرها ثمرة أساسية للعبادات المفروضة مثل : إقامة الصلاة : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾⁽³⁾ .

وإيتاء الزكاة : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾⁽⁴⁾ . وصيام رمضان : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾⁽⁵⁾ .

والرسل جميعاً يهتمون بغرس الفضائل ومحاربة الرذائل ، وجاء ذلك في آيات قرآنية عديدة والتي جاءت في القصص القرآنى ، وقال عن خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾⁽⁶⁾ .

(1) كتاب : دراسات في الحضارة الإسلامية ، المجلد الثالث ، بحث في الفقه الإسلامى للشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985م ، بمناسبة بداية القرن الخامس عشر الهجرى .

(2) د. يوسف القرضاوى ، كتاب : كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟ ، دار الشروق .

(3) العنكبوت : 45 .

(4) التوبة : 103 .

(5) البقرة : 183 .

(6) القلم : 4 .

رابعاً : بناء عقيدة الفرد والمجتمع المسلم فى بداية مبعث الرسول ﷺ .

ظل الرسول ﷺ ثلاثة عشر عاماً فى مكة المكرمة يدعو إلى الإسلام، والقرآن ينزل عليه فيرشد الناس إلى تعاليم الإسلام ويشرح لهم ما جاءت به الآيات الكريمة ويعلمهم ويرشدهم عملياً بما جاء فى هذه الآيات .

كما أن هذه الآيات القرآنية كانت بها تعاليم للرسول ﷺ فى مواقيت - ليست من اختيار الرسول ﷺ - بل من الله سبحانه وتعالى عن خطوات يتبعها ويأمر المسلمين باتباعها مثل الأمر الإلهى بالجهر بالدعوة : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(١) .

والقرآن الكريم الذى تنزل مفرقاً على رسول الله ﷺ فى مكة المكرمة أكثر من نصف القرآن الكريم^(٢) .

والقرآن المكى الذى كان ينزل على رسول الله ﷺ طوال الثلاثة عشر عاماً جاء ليقرر ويثبت قضية واحدة هى قضية العقيدة الإسلامية .

فالعقيدة هى القضية الكبرى والأساسية فى الدين الإسلامى ، فهى قضية الإنسان التى لا تتغير ، قضية وجوده ومصيره ، وقضية الكون من حوله وعلاقة الإنسان بالحياة والأحياء .

والقرآن الكريم الذى كان ينزل على رسول الله ﷺ لم ينزل عليه جملة واحدة بل نزل مفرقاً ، يقول تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾^(٣) ، وذلك حتى يمكن استيعابه وفهمه وتنفيذ ما جاء به عملياً ، وحتى تخشع القلوب وتتمكن وتستقر فيها حقيقة الألوهية والعبودية لله سبحانه وتعالى .

(١) الشعراء : 214 .

(٢) د. عبد المنعم الحفنى ، كتاب : موسوعة القرآن العظيم ، مكتبة مذبولى .

(٣) الإسراء : 106 .

فقضية الألوهية هي القاعدة الرئيسية للعقيدة الإسلامية .

وبناء عقيدة الفرد المسلم، ومن ثم عقيدة الجماعة المسلمة والمجتمع المسلم من أسس الدعوة إلى الإسلام، ومن أسس رسالة الإسلام ، ولذلك جاء نزول القرآن الكريم مفرداً وليس جملة واحدة لتنام بناء العقيدة القوية .

ولقد جاءت آيات القرآن الكريم لتشير إلى ميثاق الله سبحانه وتعالى مع النبيين عامة ومع نبينا محمد ﷺ ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عليهم السلام - وهم أولو العزم من الرسل - ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۖ تَسْتَغْفِرُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ صُدُوقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ١١١ ۖ ﴾ .

وهذا الميثاق الذى أخذه الله سبحانه وتعالى من النبيين من أول سيدنا نوح إلى خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ هو حمل أمانة الرسالة وتبليغها للناس فى الأمم التى أرسلوا إليها ، وذلك حتى يتم تحقيق إيمان الفرد إيماناً صادقاً وبناء عقيدته بناءً قوياً . وبناء عقيدة الفرد المسلم والمجتمع المسلم يعنى بناؤها عند قيام رسالة الإسلام، حيث كانت الدعوة الإسلامية جديدة .

فرسالة الإسلام جاءت والناس فى حالة فوضى والتباس وتباين فى المعتقدات فهناك الكافر ، والمشرک ، والذى يعبد الله على ملة إبراهيم عليه السلام بعد أن حرفت عقيدة التوحيد التى أتى بها سيدنا إبراهيم ، وهناك اليهودى والمسيحى من أهل الكتاب الذين حرفت عقائدهم : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ۖ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝ ١١٢ ۖ أَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) الأحزاب : ٧ ، ٨ .

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢٠﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٢١﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٢٢﴾^(١).

وفي هذه الفوضى في الاعتقاد التي كان عليها الناس في الجزيرة العربية وغيرها من البلاد ، جاءت رسالة الإسلام لتهدم هذه المعتقدات الشركية والمنحرفة وتقيم عقيدة التوحيد .

وكان لابد لقيام العقيدة الإسلامية - وفي القلب منها عقيدة التوحيد - أن يكون بناء العقيدة في عقل الإنسان وقلبه قويا راسخا صامداً أمام هذا الطوفان من العقائد المنحرفة وأمام جبروت أتباعها ، ومن ثم قيام عقيدة المجتمع المسلم وبنائها بناءً راسخاً قوياً لا ترعزه عاديّات الزمن .

خامساً: بناء الأسس الفكرية الثقافية والحضارية للفرد المسلم والمجتمع المسلم

تعتبر السيرة النبوية هي التطبيق العملي للإسلام وهي الصورة المثلى لتبيان كيفية بناء الأسس والمفاهيم الإسلامية التي تشرتها عقول ونفوس وقلوب الأفراد الذين دخلوا في الإسلام ، وهي أسس ومفاهيم شملت جميع شئون الحياة بها فيها الثقافة والحضارة الإسلامية .

فالآيات القرآنية كانت تنزل على رسول الله ﷺ ، فيقوم كتاب الوحي بكتابتها كما أنزلت ويقوم ﷺ بشرح وبيان ما فيها من حلال وحرام ومن أوامر ونواه وعقائد وشرائع ، ويقوم بالتطبيق العملي لذلك .

(١) التوبة : 30 - 33 .

وكان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه بطريقة عملية مبادئ الإسلام وما ينزل عليه من الآيات القرآنية ، وكان الواحد منهم يحفظ الآية والآيتين فلا ينتقل إلى غيرها حتى تكون حياته وسلوكه وأخلاقه ومعاملاته تبعاً لما جاءت به .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتأسون به ويسيروا على نهجه في أقواله وأفعاله ، وفي كل ما جاء به .

وعندما علم جبريل رسول الله ﷺ الوضوء والصلاة جاء رسول الله إلى خديجة فتوضأ لها ليرها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ رسول الله ﷺ ، ثم صلى بها رسول الله عليه الصلاة والسلام كما صلى به جبريل ، فصلت بصلاته⁽¹⁾ .

والصحابة كانوا يؤمنون بكل ما جاء به ، وكانت كلمة الإيمان هي الكلمة التي جاء بها الإسلام للدلالة على العقيدة بالإيمان يباشر العقل والقلب معاً ، ويربط الفكر بالوجدان ربطاً محكمًا ، وآيات القرآن الكريم التي كانت تنزل طوال الفترة المكية من بعثته صلى الله عليه وسلم كانت تعالج قضية العقيدة لما لها من أهمية كبرى ، فالتخلي عن عقيدة الشرك وعبادة الأصنام واعتناق العقيدة الإسلامية وعبادة الله الواحد الأحد سبحانه وتعالى وجدت مقاومة كبيرة من مشركي مكة ، وكان الانتصار في هذه القضية هو أول انتصار للإسلام كما أراده الله سبحانه وتعالى للناس جميعاً .

وعندما نزل قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾⁽²⁾ . وقوله تعالى: ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾⁽³⁾ .. كان ذلك إيذاناً بالجهار بالدعوة بعد أن ظلت سرية 3 سنوات .

(1) السيرة النبوية لابن هشام.

(2) الشعراء : 214 .

(3) الحجر : 94 .

وبعد الجهر بالدعوة لاقى المسلمون عتسا كبيرا وقهرا وظلما وتعذيبا من مشركى مكة فصبروا وصمدوا فى وجه المحنة وواجهوا عنت قريش ولم يرتد أحد منهم عن دينه .

كان عدد الذين دخلوا الإسلام عند الجهر بالدعوة قليل و كانوا من المؤمنين الصادقين الذين يؤمنون بالواحد الأحد الذى لا شريك له .. آمنوا ب (لا إله إلا الله) وتركوا عبادة الأصنام ، تخلوا عما كان يعبد آباؤهم وعشيرتهم .

تركوا عبادة الأصنام التى كانوا يعتقدون أنها تقربهم إلى الله وتشفع لديهم . يقول تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ⁽¹⁾ ، ويقول تعالى : ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَئُولَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ⁽²⁾ . ومع تركهم لعبادة الأصنام تركوا ما كان يصاحبها من شعائر وعبادات وسلوكيات شركية ..

تركوا ما كانوا يقومون به من التقرب إليها والحج إليها والطواف ..

تركوا ما كانوا يقومون به من الالتجاء إليها والاستغاثة بها ، وتركوا الذبح عندها والنحر باسمها ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ ⁽³⁾ ، وقد ذكر تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ⁽⁴⁾ ، وتركوا الاستقسام بالأزلام ، وتركوا الإيمان بالعرافين والمنجمين ، وتركوا العادات

(1) الزمر : 3 .

(2) يونس : 18 .

(3) المائدة : 3 .

(4) الأنعام : 121 .

والتقاليد والسلوكيات الشريكة والمفاهيم الشريكة التي كان يؤمن بها المجتمع الجاهلي .. تخلوا عن ذلك كله وآمنوا بها جاء به الإسلام في المجالات المختلفة .

ولأن إيمانهم كان صادقاً وراسخاً في القلوب فقد صبروا على إيذاء قريش وتحملوا التعذيب والتجوع والإغراق الذي لاقوه بعد الجهر بالدعوة .

و كان هؤلاء المسلمين الأوائل هم الذين تكونت بهم النواة الأولى للمجتمع المسلم ، و كان منهم العشرة المبشرون بالجنة باستثناء عمر بن الخطاب ، و كان اصطفاء الخلفاء منهم ⁽¹⁾ .

و لكي تتبين عمق التغيرات الثقافية و الفكرية عند الأفراد الذين دخلوا في الإسلام نذكر جانباً مما جاء على لسان جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي ملك الحبشة عندما استدعاه ليسأله عن ذلك الدين الجديد ، و كانت قريش قد عزمت على استرداد المسلمين الذين هاجروا للحبشة فبعثت عبد الله بن أبي ربيعة و عمرو بن العاص و معها هدايا للنجاشي ملك الحبشة ويطاركنه حتى يسلماهما المسلمين الذين هاجروا للحبشة . و في السيرة النبوية لابن هشام جاء في حديث أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسول الله ﷺ ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه قالوا : نقول : والله ما علمنا ، و ما أمرنا به نبينا ﷺ كائننا في ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا ، و قد دعا النجاشي أساقفته ، فنشروا صحائفهم حوله سألهم ، فقال لهم : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا (به) في ديني ، و لا في دين أحد من هذه الملل ؟ قالت : فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب (رضوان الله

(1) يمكن الرجوع لسيرة ابن هشام وكتب السيرة النبوية الأخرى ، التي ذكرت أسماء الذين أسلموا عند الجهر بالدعوة ، و أسماء العشرة المبشرين بالجنة .

عليه)، فقال له : أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار وأكل القوي منا الضعيف ، فكان على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبدَه ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشارك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - قالت فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشارك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

قالت فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشي : فاقرأه عليّ ، قالت : فقرأ عليه صدرا من (كهيعص)، قالت : فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ويكت أساقفته حتى أخضلوا صحائفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال (لهم) النجاشي : « إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ، ولا يكادون »⁽¹⁾ . ورد النجاشي الهدايا لعبد الله بن الربيعه وعمرو بن العاص .

(1) السيرة النبوية لابن هشام .

ازداد عدد الذين دخلوا في الإسلام بمرور الوقت فطوال الفترة المكية كان الرسول ﷺ يقوم بالدعوة متحملاً هو وأصحابه عنت قريش وإيذاءها ، فكان يعلم أصحابه ويربهم وقرأ عليهم آيات القرآن الكريم التي تنزل عليه ، والتي كانت في أغلبها تعالج قضية العقيدة ، وظل البناء الفكري الثقافي والحضارى للأفراد الذين أسلموا يتنامى بنزول المزيد من الآيات القرآنية بمرور الوقت .

وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة هو وأصحابه قامت الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامى من المهاجرين والأنصار .

وبدأت تتضح مفاهيم ونظم وقواعد المجتمع المسلم ، وبدأت تتكامل المعطيات والمفاهيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية الإسلامية - وهى المعطيات والمفاهيم التى تنطبق على الفرد المسلم والمجتمع المسلم - مع تتابع نزول القرآن الكريم فى الفترة المدنية ، حيث كانت الآيات القرآنية التى تنزل فى المدينة المنورة تعالج الشريعة الإسلامية بصورة أوسع .

وكان كل من يدخل فى الإسلام من عبدة الأصنام أو اليهود أو النصارى ، أو عبدة النار من الفرس أو الروم أو غيرهم من أصحاب الديانات والمعتقدات الأخرى مثل الهندوس والبوذيين فيما بعد ، كان عليه أن يتخلى عن معتقداته الدينية وما يصاحبها من أفكار ومعطيات ومفاهيم تتعلق بثقافته وحضارته ، ويعتنق ما جاء به الإسلام فى شتى المجالات فى أمور العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية ، ومن المعطيات والمفاهيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية الإسلامية .

وعند وفاة النبى ﷺ كان المجتمع المسلم قد اكتمل بناؤه بقواعده ونظمه الاجتماعية الإسلامية ، ومفاهيمه ومعطياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية ...

و بذلك كانت أفكار ومفاهيم ومعطيات الثقافة والحضارة الإسلامية التي يعتنقها الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي قد اكتملت، وتشربتها العقول والقلوب، وأصبحت يقينية ومستقرة وتلقائية .

سادساً : العقيدة والشريعة هما الأساس الذي قام عليه المجتمع الإسلامي والأمة المسلمة والثقافة والحضارة الإسلامية .

رأينا فيما سبق قيام وثبات ورسوخ العقيدة الإسلامية في قلوب الأفراد المؤمنين الصادقين الذين آمنوا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

ومن مجموع هؤلاء الأفراد الصادقين ، قامت عقيدة الجماعة المسلمة القليلة العدد من أصحاب رسول الله في مكة المكرمة .

وقامت عقيدة المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة عندما هاجر الرسول ﷺ إليها ، وقام المجتمع الإسلامي من المهاجرين والأنصار .

وعقيدة الأمة الإسلامية كلها عندما دخل الناس في دين الله أفواجا .

وعقيدة كل تجمع من المسلمين صغر أم كبر في أى مكان على سطح الأرض .

وليس معنى ذلك أن عقيدة المجتمع هي عقيدة كل أفراد المجتمع ، بل هي عقيدة أغلبية أفراد المجتمع ، والمجتمع الإسلامي فيه أفراد غير مسلمين وأقليات دينية غير مسلمة ، ولكن أغلبية أفراد المجتمع مسلمين .

وعقيدة الأمة الإسلامية وشريعته وتاريخها هي التي وحدت الأمة الإسلامية ، فهي أمة واحدة ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾⁽¹⁾ .

ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾⁽¹⁾.

فهى أمة إسلامية واحدة، ربها واحد هو الله، ونبيها واحد هو محمد بن عبد الله ﷺ، وكتايبها واحد هو القرآن الكريم وقبلتها واحدة هى الكعبة «بيت الله الحرام» وشريعتها واحدة هى شريعة الإسلام، ووطنها واحد هو «دار الإسلام» على اتساعها.

ولا يجوز في تعبيرنا أن نقول الأمم الإسلامية بل الأمة الإسلامية فهى أمة واحدة، كما أمر الله سبحانه وتعالى وليست أمما متفرقة كما أراد الاستعمار⁽²⁾.

يقول تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾⁽³⁾.

وقد دخل الإسلام أفرادًا ومجتمعات من ديانات وحضارات مختلفة - الفارسية والهندوسية والبوذية والمسيحية واليهودية واللادينيين - والعلمانيين في عصرنا الراهن - فتخلوا عن دياناتهم ومعتقداته وثقافتهم وحضاراتهم واعتنقوا الدين الإسلامى وثقافته وحضارته الإسلامية.

(1) المؤمنون: 52.

(2) د. يوسف القرضاوى، كتاب: كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟، دار الشروق.

(3) آل عمران: 103.

خلاصة

كتبنا فيما سبق عن العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية والأخلاق الإسلامية، وبناء الأسس الفكرية الثقافية والحضارية للفرد المسلم والمجتمع المسلم، وهناك عدة نتائج يمكن استنتاجها منها :

أولاً: أن كل من كان يدخل في الإسلام كان عليه أن يتخلّى عن معتقداته الدينية السابقة، فالمشرك والكافر والمجوسى والصابى والكتابى عندما يدخل في الإسلام كان عليه أن يتخلّى عن دينه أو معتقداته الدينية التى كان يؤمن بها قبل دخوله في دين الإسلام .

كان يتخلّى عن معتقداته السابقة ويؤمن بما جاء به الإسلام بإرادته الحرة واختياره الحر دون إكراه أو إجبار، يقول تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾⁽¹⁾ .

كان يعلم ما ينتظره من شقاء وعذاب واضطهاد وقهر وتجويع وإحراق، بل وأحياناً الموت، ومع ذلك يؤمن بما جاء به الدين الإسلامى ويتخلّى عن معتقداته السابقة .

وكان يعلم أيضاً ما سوف يتعرض له من إعراض ونبذ وكراهية وتحيد من أهله وعشيرته ومجتمعه وأهل دينه عند ترك دين آبائه وعشيرته ويعتنق الإسلام .

مع كل ذلك كان يترك دينه ومعتقداته ويؤمن بما جاء به الإسلام .

وكانت قوة الإيمان والصبر على المكاره زاد يستمد منه المسلم المؤمن القوة في مجابهة عنت المشركين وجبروتهم وطغيانهم .

(1) البقرة: 256 .

ثانيًا : أن كل من كان يدخل في الدين الإسلامي ويتخلى عن معتقداته السابقة كان أيضًا يتخلى عن كل ما كان يصاحب معتقداته السابقة من شعائر وعبادات وسلوكيات ومفاهيم ثقافية تتعلق بمعتقداته السابقة وحضارته السابقة .. يتخلى عن كل ذلك ويعتق ما جاء به الإسلام من عقيدة وشريعة وأخلاق ، ويعتق كل ما جاء به الإسلام من أوامر ونواهٍ وحلال وحرام ومقاصد للشريعة الإسلامية ، وما يصاحب ذلك من سلوكيات ومفاهيم ثقافية ومفاهيم تتعلق بحضارته الإسلامية ، وهو ما سوف نزيد إيضاحه في الفصل الثاني .

ثالثًا : أن الثقافات والحضارات قائمة على الاعتقاد الدينى سواء أكان هذا الاعتقاد دينًا سماويًا كالنصرانية واليهودية والإسلام أم دينًا غير سماوي مثل : البوذية والهندوسية والعلمانية الغربية الحديثة ، وهو ما سوف نلقى الضوء على بعض جوانبه في الفصول التالية بعد أن نناقش قيام المجتمع والحضارة الإسلامية .

رابعًا : أن الحضارات القديمة التى انهارت وانقرضت - مثل الحضارة الفارسية التى انهارت عندما فتح المسلمون فارس في عهد الخليفة أبى بكر الصديق وعهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - لم تعد قائمة الآن ، ويرجع ذلك إلى عدم وجود مجتمع أو أمة تؤمن بمعتقداتها السابقة .

فالحضارة الفارسية انهارت واندثرت ولم تعد قائمة الآن - رغم وجود بعض الآثار التى تدل عليها - لأنه لم يعد هناك مجتمع أو أمة فارسية - تؤمن بالمعتقدات المجوسية القديمة - موجودة الآن .

كذلك المجتمع الجاهلى من عبدة الأصنام الذى كان قائمًا في مكة والجزيرة العربية انقرض ، ولم يعد قائمًا بعد أن دخل المشركون عبدة الأصنام في الإسلام .

خامسًا : أن هناك أمورًا كانت موجودة في الجاهلية أقرها الإسلام ، وكانت هناك أمور في الحضارة الفارسية - وغيرها من الحضارات الأخرى - انتقلت إلى

الباب الثالث - الفصل الأول

الحضارة الإسلامية ، فالرسول ﷺ قام بحفر الخندق حول المدينة المنورة في غزوة الأحزاب ، وهو ما أشار به سليمان الفارسي وهو ما كان موجوداً في الحضارة الفارسية .

وهذه الأمور - مثل الصناعات والتقنيات والعلوم - هو ما أطلقت عليه « ما هو مشترك عام بين الحضارات » ، وهو ما سوف نناقشه في الفصول التالية .



الفصل الثاني

هل الحضارات الجديدة تقوم بقيام اعتقاد ديني جديد؟..

وهل تنهار الحضارات بانهيـار الاعتقاد الديني الذي قامت عليه ؟

أولاً : الذين اعتنقوا الإسلام كانوا يتخلون عن معتقداتهم الدينية السابقة وما كانت تفرضه عليهم : من قيم وسلوكيات وثقافات وحضارات، ويؤمنون بما جاء به الإسلام في هذه المجالات .

ثانياً : كيف قامت الحضارة الإسلامية على الدين الإسلامي ؟

ثالثاً : ما هو مشترك عام بين الحضارات يتناقل بينها .

رابعاً : حضارات انهارت عندما اعتنقت شعوبها ومجتمعاتها الإسلام وتخلت عن معتقداتها السابقة ، ولم يعد هناك من يؤمن بمعتقداتها السابقة .

خامساً : حضارات انهارت وماتت ، وأخرى أعيد تفعيلها بعد انهيارها .

سادساً : استفادة المسلمين بما هو مشترك عام بين الحضارات .

- تطوير الإنتاج في مجال الحضارة الإسلامية .

لقد رأينا فيما سبق أن الذين دخلوا في الدين الإسلامي وآمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً كانوا يتخلون عن معتقداتهم ودياناتهم

الثقافات والحضارات . فالمشركون من قريش الذين دخلوا في الإسلام وكذلك من دخل في الإسلام من أهل الكتاب تخلوا عن عباداتهم الشركية وتخلوا أيضًا عن القيم والسلوكيات والثقافات الشركية ، وآمنوا بالإسلام وبعقائده وشرائعه وبكل ما جاء به .

وهناك أشياء مشتركة لا تتعارض مع الإسلام، ولا تتعارض مع ما جاء به أبقى عليها الرسول ﷺ ، وأمور أخرى ناقشناها تحت عنوان : ما هو مشترك بين الحضارات .

ومن هؤلاء الأفراد الذين دخلوا في الدين الإسلامي تكوّن المجتمع الإسلامي والحكومات الإسلامية والأمة الإسلامية .

والحضارة الإسلامية قامت مع قيام هذا المجتمع الإسلامي، وهذه الأمة الإسلامية.

وعندما قامت الأمة الإسلامية التي تؤمن بالله ربًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً، وتؤمن بالرسول وبالكتب المنزلة ، والتي جاء القرآن الكريم جامعًا مانعًا محفوظًا بعناية الله من أي تحريف أو تزيف ، فهو محفوظ منذ أنزله الله سبحانه وتعالى على سيدنا محمد ، والمولى عز وجل يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ذَرَلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ⁽¹⁾.

عندما قامت الأمة الإسلامية وقامت الحضارة الإسلامية كانت هناك ثقافات وحضارات انهارت واندثرت ، فثقافة المشركين في مكة والجزيرة العربية انهارت، والحضارة الفارسية المجوسية انهارت واندثرت عندما دخل كل أتباعها في الإسلام، وهذا ما سوف نتناوله في هذا الفصل تحت العناوين التي ذكرناها سابقًا .

(1) الحجج : 9 .

أولاً : الذين اعتنقوا الإسلام كانوا يتخلون عن معتقداتهم الدينية السابقة ، وما كانت تفرضه عليهم من قيم وسلوكيات وثقافات وحضارات ، ويؤمنون بما جاء به الإسلام في هذه المجالات :

فكل من دخل الإسلام سواء كان مشركاً أو كان مجوسياً أو هندوسياً أو بودياً أو كتابياً كان يتخلى عن دينه ومعتقداته الدينية - سواء كان هذا الدين ديناً سماوياً أو ديناً غير سماوى أو اعتقاداً مادياً لا دينى - وما يفرضه هذا الدين أو هذا الاعتقاد من قيم وسلوكيات وثقافات وحضارات ويؤمن بما جاء به الإسلام في كل مجال من هذه المجالات ، فالمشركون الذين كانوا يعبدون الأوثان تخلوا عن عبادتها ، وما كان يصاحب هذه العبادات من عادات وسلوكيات وثقافات شركية ، وآمنوا بما جاء به الإسلام في كل نواحي الحياة .

وفي بادئ الأمر كانت معظم العرب تتبع دعوة سيدنا إبراهيم فكانت تعبد الله وتوحده وتدين بدينه حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظاً مما ذكروا به ، إلا أنهم بقى فيهم التوحيد وعدة شعائر من دين إبراهيم حتى جاء عمرو بن لحي رئيس خزاعة ، وكان قد نشأ على حظ عظيم من المعروف والحرص على أمور الدين فأحبه الناس ودانوا له ظناً منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء ، ثم سافر إلى الشام فرآهم يعبدون الأوثان فاستحسن ذلك وظنه حقاً ، لأن الشام محل الرسل والكتب فقدم معه بهبل وجعله في جوف الكعبة ، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله فأجابوه ، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة لأنهم أهل البيت وأهل الحرم⁽¹⁾ .

ومن أقدم أصنام العرب مناة وكانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد والعزى بوادى نخلة واللات بالطائف ، وهذه الأصنام الثلاثة من أكبر أصنامهم ،

(1) صفى الرحمن المباركفورى ، الرحيق المختوم ، الجامعة السلفية بالهند ، البحث الفائز بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التى نظمتها رابطة العالم الإسلامى ، 1398 هـ ، دار إحياء التراث .

يقول تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ آلَ لُوطٍ وَالْعَزَىٰ ﴿١﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ ﴿٢﴾ ۖ ﴾^(١).

وكانت هناك أصنام يقال إنها أصنام قوم نوح جلبها إلى نهماء عمرو بن لحي ودفعها إلى القبائل في موسم الحج - وهي : ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا - فانتشرت بين العرب .

وانتشرت الأصنام في كل البقاع حيث يسكن العرب فكانت بكل بقعة من بقاع الحجاز ، وكان لكل قبيلة وفي كل بيت صنم ، وبعد فتح مكة وجد حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا .

وكانت لهم تقاليد في عبادة الأصنام ، وكانوا يعكفون عليها ويلتجئون إليها ويهتفون بها ويستغيثون بها في الشدائد ويدعونها لحاجاتهم معتقدين أنها تقربهم إلى الله، وتحقق لهم ما يريدون، يقول تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾^(٢).

وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها ويتذللون عندها ويسجدون لها .

وكانوا يتقربون للأصنام بقرايين فكانوا يذبحون وينحرون لها وبأسائها ، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾^(٣) . وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾^(٤).

وكانت العرب تعتقد أن هذه الأصنام تشفع لهم عند الله . يقول تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾^(٥).

(١) النجم : ١٩ ، ٢٠ .

(٢) الزمر : ٣ .

(٣) المائدة : ٣ .

(٤) الأنعام : ١٢١ .

(٥) يونس : ١٨ .

وكانوا يستقسمون بالأزلام ويضربون القداح في مجالات عديدة من حياتهم ، وكانوا يؤمنون بالكهنة والعرافين ، وكانت فيهم الطيرة والتشاؤم ومن يدعى معرفة الغيب .

كان ذلك بعضاً من أحوال الجاهلية مع بقايا من دين إبراهيم فلم يتركوه كله ، مثل: تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف بعرفة والمزدلفة⁽¹⁾ .

وكانت جماعة منهم يطلق عليها الخمس ، وكانوا يقولون نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاة البيت وقاطنو مكة ، فلا يتبغى لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل فكانوا لا يقفون بعرفة ولا يفيضون منها ، ويفيضون من المزدلفة ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَلْفِيزُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾⁽²⁾ .

وكانوا يأمرؤن أهل الحل أن لا يطوفوا بالبيت إلا في ثياب الخمس⁽³⁾ فإن لم يجدوا شيئاً فكان الرجال يطوفون عراة ، وكانت المرأة تضع ثيابها إلا درعاً مفرجاً تطوف به ، وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

ونزل في ذلك⁽⁴⁾ . قوله تعالى : ﴿ يَبْتَغِي ءَادَمُ حُذُوًا زَيْنَتَهُ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾⁽⁵⁾ .

وفي الحقيقة فإن إعلان عقيدة التوحيد وإعلان العقيدة الإسلامية وإعلان زيف عبادة الأصنام ، كان بمثابة ثورة زلزلت أركان المجتمع الجاهلي القائم على هذه المعتقدات الشركية الزائفة التي كانت تمثل النظم والقواعد التي يقوم عليها هذا المجتمع ، وتمثل الأسس والمفاهيم الثقافية والاقتصادية والسياسية والسلوكية والحضارية لهذا المجتمع الجاهلي .

(1) صفى الرحمن المباركفوري ، الرحيق المختوم .

(2) البقرة 199 .

(3) الخمس : جمع أحس . والأحس : المشتد الصلب في الدين ، وسميت قريش حملاً لزعيمهم بأنهم اشتدوا في الدين وكانوا قد ذهبوا في ذلك مذهب التزهد والتأله وكانت نساؤهم لا ينسجن الشعر ولا الوبر ، ابن هشام ، ص 199 ، الجزء الأول : السيرة النبوية لابن هشام .

(4) الرحيق المختوم ، والظلال ، وتفسير الجلالين .

(5) الأعراف : 31 .

وبالنسبة لأهل الكتاب يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (١).

كان الرسول ﷺ يختم دعوته إلى الملوك والأمراء من أهل الكتاب بهذه الآية عندما كان ﷺ يكتب إليهم لدعوتهم للإسلام ، وهى دعوة إلى التوحيد ، والقرآن كله من أوله لآخره دعوة للتوحيد ، وقد أصلح القرآن الكريم ما أفسدته العقائد الوثنية والكتابية المحرفة .

فاليهودية جعلت الرب أشبه بالملوقين ، فهو يعتب ويندم ويخاف ويحسد ويصارع إسرائيل فيصرعه إسرائيل ، ولا يتمكن من الإفلات منه إلا بوعد منه بمباركة نسله ، فأطلق سراحه !

والنصرانية تأثرت بوثنية روما ، وطغت عليها الوثنية حتى امتلأت الكنائس بالصور والتماثيل ، وأخذت عقيدة التثليث والفداء من عقيدة الهنود في « كرشنه » ، كل ما فعلوه أنهم حذفوا اسم كرشنه ووضعوا اسم « يسوع » (٢).

وكما أسلفنا فإن دعوة أهل الكتاب إلى الدين الحق كانت فى نفس الوقت دعوة لترك ما يعتنقوه من معتقدات وعبادات شركية أدخلوها بعد أن انحرفوا بكتبهم ودينهم عن الدين الحق وهو الإسلام ، وكل الرسل كانوا يدعون إلى الإسلام دين التوحيد الخالص ، ولكن أتباع هذه الديانات انحرفوا بها بعد أن طال عليهم الأمد ، والمولى عز وجل يقول : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (٣).

(١) آل عمران : ٦٤ .

(٢) د . يوسف القرضاوى ، كتاب : كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟ ، دار الشروق .

(٣) آل عمران : ١٩ .

وكذلك أهل الحضارات الأخرى مثل المجوس أهل فارس، والبوذيون فى الصين والهندوس فى الهند .. كانوا يتخلون عن معتقداتهم وثقافتهم وحضاراتهم عندما يدخلون فى الدين الإسلامى .

ثانياً : كيف قامت الثقافة والحضارة الإسلامية على الدين الإسلامى ؟ :

1- بناء المجتمع الإسلامى وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية :
رأينا فيما سبق كيف تم قيام عقيدة الفرد المسلم، وعقيدة الجماعة المسلمة من صحابة رسول الله ﷺ فى مكة المكرمة، وعقيدة المجتمع المسلم .
وكيف كانت العقيدة الصحيحة القوية ، والإيمان الصادق عاصماً للمسلمين من الانهيار والخضوع لمشركى قريش ، عندما كانوا يسومونهم التعذيب والاضطهاد، وظلوا محتفظين بدينهم وعقيدتهم .
وقد كانت هذه الجماعة المسلمة من صحابة رسول الله ﷺ هى القلب الذى قام عليه المجتمع الإسلامى فى المدينة المنورة ، عندما هاجر الرسول ﷺ إليها ، وأقام فيها المجتمع الإسلامى والحكومة المسلمة والأمة المسلمة ، وطبق أحكام الشريعة الإسلامية التى كانت تنزل عليه فى آيات القرآن الكريم .
قبل الهجرة ، وبعد بيعة العقبة الأولى أرسل النبى ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام ويفقههم فى الدين، ويقوم بنشر الإسلام بين الذين لا يزالون على الشرك .
وقد نزل مصعب بن عمير العبدى على أسعد بن زرارة وأخذاً معاً يشان الإسلام فى أهل يثرب بحماس وجد ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها رجال ونساء مسلمون⁽¹⁾ .
كما أن بعض المسلمين قد بدأوا الهجرة إلى المدينة المنورة، وذلك قبل أن يقوم رسول الله ﷺ بالهجرة إليها، وبعضهم هاجر إليها قبل عام من الهجرة .

(1) صفى الرحمن المباركفورى ، الرحيق المختوم ، الجامعة السلفية بالهند ، البحث الفائز بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التى نظمتها رابطة العالم الإسلامى ، 1398 هـ ، دار إحياء التراث .

وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة واستقر بها أخذ في بناء مسجده ، وكان المسجد بجانب أنه للعبادة والصلاة كان أيضًا جامعة يتلقى المسلمون من مهاجرين وأنصار أمور دينهم فيه ويتدارسونه مع النبي ﷺ ، وهو ملتقى القبائل المتنافرة للتصالح والوثام ، وهو مجلس للشورى والدعوة إلى الله ، وماوى للفقراء الذين لا ماوى لهم .

وقد قام رسول الله ﷺ بالمواخاة بين المهاجرين والأنصار وهو من أروع الأعمال التي قام بها رسول الله ﷺ في بناء المجتمع الإسلامى على الحب في الله ، وعلى تذويب عصبية الجاهلية فلا حمية إلا للإسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه⁽¹⁾.

وقد جعل رسول الله ﷺ هذه الأخوة عقدًا نافذًا لا لفظًا فارغًا ، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال ، لا لفظةً ترثرثر بها الألسنة ولا تقوم لها أثر .

وقد روى البخارى⁽²⁾ أن رسول الله ﷺ آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد ابن الربيع ، فقال لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالا ، فأقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لى أطلقها ، فإذا انقضت عدتها تزوجتها ، قال : بارك الله لك فى أهلك ومالك وأين سوقكم ، فدلوه على بنى قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من إقط وسمن ، ثم تابع الغدو ، ثم جاء يومًا وبه أثر صفرة ، فقال النبى ﷺ : مهيم⁽³⁾ ؟ قال : تزوجت ، قال : كم سقت إليها ؟ قال : نواة من ذهب .

(1) الرقيق المختوم للمباركفورى .

(2) صحيح البخارى ، باب إخاء النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار .

(3) مهيم : بمعنى كيف حالك ، ما الخبر ؟ وهى كلمة عربية .

وقد قام النبي ﷺ بكتابة عقد تحالف ومؤاخاة بين المسلمين لينهى الصراع الذى كان دائراً بين القبائل وينهى تقاليد الجاهلية ونزاعاتها والتقاليد القبلية الجاهلية ، وقد جاءت بنود هذا العقد تحت عنوان :

« هذا كتاب محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم »⁽¹⁾.

ثم يعدد هذا التحالف أو هذا الميثاق البنود التى تجعل من المؤمنين أمة واحدة دون الناس ، وهو أول بند من هذا الميثاق ، ثم تأتى البنود الأخرى التى تقضى على أخلاق ونزاعات وحزازات الجاهلية .

ثم قام النبي ﷺ بوضع بنود المعاهدة مع اليهود لتنظيم العلاقة بينهم وبين المسلمين ، وهى بنود تنظم علاقات المسلمين بغير المسلمين .

وكان النبي ﷺ يتعهد أصحابه بالتعليم والتربية وتركية النفوس والحث على مكارم الأخلاق ، ويعلمهم العبادة والطاعة ويعلمهم ما خفى عليهم من آيات القرآن الكريم ، وكان ﷺ يبلغ أصحابه آيات القرآن الكريم عندما تنزل عليه ، وكان الصحابة بطبيعتهم العربية يفهمون أساليب القرآن الكريم ومراميها ، وإذا التبس شيء فى فهمه سألوا رسول الله ﷺ ، وفى الصحيحين عن ابن مسعود لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾⁽²⁾ . شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله ﷺ : ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ لَقْمَنُ لِبَنِيهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾⁽³⁾.

(1) الرحيق المختوم للمباركفورى ، والسيرة النبوية لابن هشام .

(2) الأنعام : 82 .

(3) لقمان : 13 .

وكان الرسول ﷺ بأقواله وأفعاله وسلوكه قدوة للمسلمين يعلمهم الرحمة والتراحم فيما بينهم، ويعلمهم دين الله وأهمية الدعوة إلى الله، وكان ﷺ يؤدب أصحابه ويعلمهم بأقواله وسنته، يقول ﷺ: لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه⁽¹⁾.

ويقول ﷺ: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده⁽²⁾.

ويقول ﷺ: ليس المؤمن بالذى يشبع وجاره جائع إلى جانبه⁽³⁾.

ويقول ﷺ: سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر⁽⁴⁾.

وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة التى كانت من أسس ومكونات المجتمع الإسلامى .

وكانت آيات القرآن الكريم تنزل على رسول الله ﷺ ويعلمها لأصحابه .. هى لبنات تكوّن منها المجتمع الإسلامى، وهى الأعمدة الصلبة التى رُسخت وثبتت المجتمع الإسلامى فى مواجهة الأعاصير التى هبت على المسلمين، والتى حاولت اقتلاع الإسلام من بنيان المجتمع الإسلامى .

ولم تفلح هذه الأعاصير المستمرة فى زحزحة المجتمعات الإسلامية عن دينهم الإسلامى منذ إعلان الدعوة وحتى الآن .

يقول تعالى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن الخير فى الأمة الإسلامية، ما دامت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾⁽⁵⁾.

(1) رواه مسلم .

(2) رواه البخارى .

(3) رواه البيهقى فى شعب الإيثار، مشكاة المصابيح .

(4) رواه البخارى .

(5) آل عمران : 110 .

ويقول تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (1).

ويقول تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (2).

ويقول تعالى عن الكيل والميزان وعدم الغش فيهما والعدل بين الناس : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْعِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تَكَيْفُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَدِّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (3).

ويقول تعالى عن الشهادة بالقسط : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (4).

وغير ذلك آيات قرآنية كثيرة يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامي الذي يتمسك بكل ما جاء به القرآن الكريم من عقيدة وشريعة .

وأحكام الشريعة الإسلامية بعضها كان مطبقاً منذ بدايات الرسالة في مكة المكرمة مثل : أحكام الصلاة والوضوء، وبعضها الآخر طبق عند قيام الدولة والمجتمع الإسلامي في المدينة المنورة .

(1) التوبة : 71 .

(2) آل عمران : 104 .

(3) الأنعام : 152 .

(4) المائدة : 8 .

وكانت آيات القرآن الكريم تنزل بأحكام الشريعة الإسلامية، ويقوم الرسول ﷺ بتطبيقها عملياً على الفرد والمجتمع والدولة بمؤسساتها وهيئاتها ونظمها، والأحكام التي تستلزم وجود الدولة أو ولي الأمر مثل الحدود طبقت بعد نزولها، وكان ذلك في المدينة المنورة .

وقد قام الرسول ﷺ بتطبيق أحكام العبادات كما أنزلها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وهي الصلاة وصوم رمضان والزكاة وحج بيت الله الحرام.

وطبقت أحكام الأسرة مثل: الزواج والطلاق والعدة والنفقة .

وأحكام المعاملات مثل : الشركة والإجارة .

وطبقت أحكام علاقات الراعى بالرعية والرعية بالراعى، وعلاقات الجوار، وعلاقات الدول بعضها ببعض، وعلاقات المسلمين بغير المسلمين، وعلاقات الحرب والسلام .

وطبقت أحكام الحدود، وهي العقوبات مثل : حد السرقة والقتل وشرب الخمر والزنى والحراقة .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ⁽¹⁾ . ويقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّيْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ⁽²⁾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٣٥﴾ ⁽³⁾ .

(1) الإسراء : 33 .

(2) البقرة : 178 ، 179 .

وعن الخمر والميسر يقول تعالى : يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ
وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّمَا
يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن
ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَبِهُونَ ﴿١٠١﴾ ﴿١﴾

وعن الزنى يقول تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً
جَلْدَةً وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَلَيْسَ هَذَا عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً
وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ﴿٢﴾

وعن السرقة يقول تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا
كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٣﴾

وعن الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا ، يقول تعالى :
﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ
يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ
جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿٤﴾

وهذه العقوبات التي جاءت في آيات القرآن الكريم عددها قليل ، وهي
عقوبات رادعة مانعة من الوقوع فيها .

وقد أحصى أحدهم عدد الذين قطعت أيديهم في الحرب اللبنانية فوجدها تفوق
من قطعت أيديهم طوال التاريخ الإسلامي كله عدداً كما جاء في وسائل الإعلام إبان

(1) المائدة : 90 ، 91 .

(2) النور : 2 ، 3 .

(3) المائدة : 38 .

(4) المائدة : 33 .

الحرب اللبنانية الأخيرة . فالمجتمع الإسلامى يقوم على الخيرية ، والرحمة ويقوم على الحق والعدل وحفظ الأموال والأنفس وحفظ الدين وحفظ الأعراض واحترام حقوق الأقليات الدينية والعرقية، ويقوم على الشورى فى كل المجالات ، ويقوم على حرية الإنسان المدنية والسياسية واحترام حقوق الإنسان بجميع أنواعها .

2 - أساس الثقافة والحضارة الإسلامية القرآن الكريم والسنة النبوية :

كانت آيات القرآن الكريم تنزل على رسول الله ﷺ ، وكانت هذه الآيات المباركة تثبت وترسخ فى عقول وقلوب وأرواح صحابة رسول الله ﷺ ، وكانت عقولهم وأرواحهم ووجدانهم تتشكل تشكيلاً جديداً تبعاً لما جاءت به هذه الآيات .

فنشأ الفرد المسلم، والمجتمع المسلم يحمل كل ما جاء به القرآن الكريم فى جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية والحضارية، وجميع جوانب الحياة .

وقد جاءت الآيات القرآنية لتبين أسس التكليف التى كلف الله عباده بها وهى : عبادة الله سبحانه وتعالى ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٢) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٣) ﴿ (١) .

وتزكية النفس .. يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (٤) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (٥) ﴿ (٢) .

وعسارة الأرض ، يقول تعالى : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٣) ، ويقول تعالى : ﴿ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٤) .

(١) الذاريات : ٥٦ - ٥٨ .

(٢) الشمس : ٩ ، ١٠ .

(٣) هود : ٦١ .

(٤) البقرة : ٦٠ .

وعِمارة الأرض وحضارتها من أسس التكليف التي ترسخت في عقل وروح ووجدان الفرد والمجتمع المسلم ، فهي أسسٌ موجودة في القرآن الكريم وموجودة في عقول ووجدان الفرد المسلم والمجتمع المسلم .

والدين الإسلامى هو الرسالة الخاتمة ، وقد جاء ليشمل جميع جوانب الحياة ، ومنها جوانب الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية .

ومع انتصار الإسلام والقضاء على العقائد الشركية ، تغيرت المفاهيم الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية الشركية ، وأصبحت لها مفاهيمها الإسلامية المميزة لها .

فأسس الحضارة الإسلامية موجودة في آيات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كما أنها موجودة في عقل وقلب وروح الفرد المسلم والمجتمع المسلم الذى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر والقدر خيره وشره ، فكان طبيعياً أن يكون الإنتاج في مجال الحضارة والإنتاج الثقافى الذى يبدعه الفرد المسلم - قصائد الشعر مثلاً- يحمل الصفات والمفاهيم المميزة للثقافة والحضارة الإسلامية ، فقصائد الشعر التى يبدعها شعراء مسلمون تختلف عن تلك التى يبدعها شعراء يمثلون العصر الجاهلى وثقافته ، وفى الوقت الذى كان يقول فيه امرؤ القيس القصائد محتوية على جنس صريح، بما فيه وصف الأعضاء التناسلية للمرأة ، فإن الشعراء المسلمين مثل: حسان بن ثابت كانوا يعفون في شعرهم عن كل ما يخالف الإسلام .

والشعر والإنتاج الثقافى في مجال : القصة والمسرحية والسينما والمسرح والفنون التشكيلية وفنون العمارة والزخرفة يجب أن يحمل مفاهيم الثقافة الإسلامية .

والإنتاج الثقافى الإسلامى دائماً يخدم غرضاً يقبله المجتمع الإسلامى ، سواء كان دعوة إلى الإسلام ، أو مناقشة أى قضية من وجهة نظر إسلامية .

والإنتاج الثقافي بصفة عامة له شقان : الشق الأول شق جمالي فني ، وهو شق مشترك بين الثقافات المختلفة والحضارات المختلفة .

الشق الثاني : شق ثقافي، وهو يتعلق بالثقافة التي ينتمى إليها .

والشق الفني الجمالي في العمل الأدبي أو الفني شق مشترك بين الثقافات والمسابقات الدولية ، تكون على أساس الناحية الجمالية في العمل وليس على أساس الناحية الثقافية ، وقد رأينا أعمالاً فنية إسلامية تدخل المسابقات الدولية وتفوز بالجوائز الأولى على أساس ما تحويه من إبداع جمالي وليس ما تحويه من مفاهيم ثقافية، ومثال على ذلك الأفلام الإيرانية التي تنتجها جمهورية إيران الإسلامية الآن وتفوز في المسابقات الدولية رغم أنها تحمل مفاهيم الثقافة الإسلامية^(١) . والإنتاج في مجال الحضارة الإسلامية يشمل الإنتاج في مجال الثقافة الإسلامية والمجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الإسلامية ، وقد تغير أيضاً الإنتاج في مجال الحضارة ليحمل المضامين الإسلامية ، فهناك الاقتصاد الإسلامي، وهناك نظم وقواعد اجتماعية إسلامية تختلف عن تلك النظم والقواعد الاجتماعية في الحضارات الأخرى .

والحضارة الإسلامية تتصف بسمات خاصة تميزها عن الحضارات الأخرى مثل الروح الدينية القوية ، فقد اهتمت ببناء المساجد وأول شيء فعله رسول الله ﷺ بعد الهجرة هو بناء المسجد ، فقد قام ببناء مسجد قباء ثم ببناء مسجده ﷺ في المدينة المنورة .. والمجتمع الإسلامي يتصف بكثرة المؤسسات الدينية، وهناك طابع إسلامي تتصف به العمارة وتخطيط المدن ، كما أنه هناك نوع الأطعمة والملابس ومظاهر الاحتفالات التي لها طابعها الإسلامي الخاص، كما أن الحضارة الإسلامية تهتم بالأعياد الدينية واختيار الأسماء ، فالحياة الدينية تصبغ الحياة اليومية للمسلم .

(١) د . محمد الجوهري حمد الجوهري ، العولمة والثقافة الإسلامية ، دار الأمين ، 2002 م .

كما أن الحضارة الإسلامية تهتم بعناية الدنيا، سواء ما يتعلق بالإنسان وعمله أو بالتواحي المادية في الحياة.

كما تهتم الحضارة الإسلامية بالتكافل والتراحم وتهتم بالتسامح بين الديانات المختلفة⁽¹⁾.

كما أن العدل من أهم سمات الحضارة الإسلامية، يقول تعالى: ﴿يَتْلُوا الَّذِينَ
ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ
أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلْقَوِّىِّ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝⁽²⁾﴾.

كما أن من سمات حضارتنا الإسلامية الاهتمام بسنن الله الكثيرة المنبثة في الكون
مثل سنة التوازن، يقول تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝⁽³⁾﴾. ومن هذه
السنة كان اهتمام الحضارة الإسلامية بالبيئة والحفاظ عليها.

ثالثاً : ما هو مشترك عام بين الحضارات يتناقل بينها :

شهد رسول الله ﷺ قبل الإسلام حلف الفضول، وهو حلف تداعت إليه
قبائل قريش فتعاهدوا وتعاهدوا على ألا يجحدوا في مكة مظلوماً إلا قاموا معه ،
وقال رسول الله ﷺ عن هذا الحلف بعد أن أكرمه الله بالرسالة : « لقد شاهدت
في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو ادعى به في
الإسلام لأجبت »⁽⁴⁾.

(1) د. محمد محمد عبد القادر الخطيب ، لمزيد من التفاصيل كتاب : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ،
مطبعة الحسين .

(2) المائدة : 8 .

(3) اخجر 19 .

(4) السيرة النبوية لابن هشام ، والرحيق المختوم للمباركفوري .

وكان العرب قبل الإسلام فيهم بعض الصفات والأخلاق التي أقرها الإسلام مثل: الكرم والوفاء بالعهد وعزة النفس والإباء عن قبول الخسف والضميم ومضاء العزم .

وكانت فيهم بقية من دين سيدنا إبراهيم عليه السلام فأبقاها الإسلام ، فقد جاء الإسلام بصحيح الدين وهو الإسلام ، وهو دين سيدنا إبراهيم والأنبياء من قبله ومن بعده .

وتعتبر العلوم الطبيعية مثل : الجبر والهندسة والحساب والكيمياء والفيزياء وبقية العلوم من المشترك العام بين الحضارات ، فالجبر من العلوم الإسلامية التي ابتكرها الخوارزمي وانتقلت إلى الحضارات الأخرى، وليس معنى أن الجبر مخترعه العالم المسلم الخوارزمي أن هذا العلم يختص بالحضارة الإسلامية دون بقية الحضارات .

فعلوم الفلك والجغرافيا كان للمسلمين إسهامات مميزة فيها ، ولكنها علوم مشتركة بين الحضارات تتناقلها الحضارات اللاحقة عن السابقة أو الحضارات المعاصرة عن بعضها البعض ، وتلك تضيف إليها وهذه تضيف إليها، ولكنها لا تعتبر لها خصائص حضارية تخص حضارة من الحضارات .

كما أن التقدم والتخلف في العلوم الطبيعية والصناعة والتقنية ترجع إلى الإدارة وليس له علاقة بحضارة بعينها ، إذ إن هذه العلوم تعتبر مما هو مشترك عام بين الحضارات .

وقد رأينا في عصرنا الراهن دول النور الآسيوية تنهض بسرعة في عقد أو عقدين ، على الرغم من أن هذه الدول منها ما ينتمى إلى الحضارة الإسلامية مثل ماليزيا، ومنها ما ينتمى إلى الحضارات الأخرى الصينية والهندوسية والغربية العلمية .

وهناك نماذج عديدة من عصور التاريخ، فصناعة الزجاج انتقلت من الحضارة المصرية القديمة إلى الحضارة اليونانية، ثم انتقلت إلى الحضارة الإسلامية، وما حدث أن الرسومات على الزجاج فقط هي التي تغيرت لتحمل مفهوم الحضارة التي تنتمي إليها، حتى أنه في البحث عن الآثار إن وجد مرسوم على بقايا قطع الزجاج الزخارف النباتية اعتبرت من الحضارة الإسلامية، وإذا كان عجل أبيس كان من الحضارة الفرعونية، وإذا كان رسم لأفروديت أو غيره كان من الحضارة اليونانية.

ومسرح العرائس الموجود الآن يرجع إلى العصر العباسي، فقد عرف لأول مرة في بغداد عاصمة الخلافة العباسية، ومنها انتشر في بقية الأقاليم مثل: مصر والشام والمغرب والأندلس، ويرجح أن مصدر هذه اللعبة الهند القديمة، ويرى أحد تيمور أنها نشأت في الشرق الأقصى وانتقلت للهند⁽¹⁾.

ومسرح العرائس كان يعرف حين ذاك باسم شخصوس خيال الظل أو ظل الخيال أو الخيال أو مسرح الدمى.

ويرجح أن الشعوب الهندية التي دخلت في الإسلام هي التي جاءت بهذا الفن، فتم استعماله حيث استخدم الإنتاج الثقافي الإسلامي في هذا الفن، ويوجد في متحف برلين في القسم الإسلامي بعض العرائس المخرمة المصنوعة من الجلد تنسب للعصر المملوكي، وأحدها يمثل فارس بيديه صقر (الصيد بالصقور)، وقد عثر المستشرق (بول كاله) سنة 1909م على مجموعة من المخطوطات بالقاهرة، ومن بين هذه المخطوطات بعض تمثيلات خيال الظل في مصر أثناء الحروب الصليبية، ففي تمثيلية (حرب العجم) أو (لعبة النار) نجد تمثيلية عن الحروب الصليبية فيها

(1) د. أحمد عبد الرازق أحمد، كتاب: دراسات في الحضارة الإسلامية، المجلد الأول: التسلية عند المسلمين.

شحن للهمم والكفاح وحب الظفر بالنصر والتغنى به والدعوة للجهاد ، وكذلك توجد تمثيلية عن (لعبة التمساح) وغيرها من مخطوطات خيال الظل⁽¹⁾.

و تذكر بعض المصادر إنه كان لأحد طهاة الخليفة المأمون ابن يسمى عبادة ، وكان خفيف الظل لطيف المعشر حاضر البديهة ، فقال له الشاعر دعبيل يوماً : والله لأهجونك ، قال : والله لإن فعلت لأخرجن أمك في الخيال⁽²⁾. (أى فى مسرح العرائس).

وهكذا نجد أن مسرح العرائس انتقل من الحضارة الهندية إلى الحضارة الإسلامية فتم تطويره ، ومورست من خلاله الثقافة الإسلامية والتمثلة فى إنتاج ثقافى هو التمثيلات ، وانتقل إلى الحضارة الغربية الحديثة بعد ذلك .

ومن المهم أن نعرف أن المخترعات الحديثة التى نراها الآن ليست نتيجة لخصائص مميزة فى الحضارة الغربية الحديثة، ولكنها مما يعتبر من المشترك العام بين الحضارات فى أغلبها ، ومن المهم استغلالها والبناء عليها حتى تنطلق الشعوب الإسلامية فى التقدم والنهضة وتنافس الآخرين .

وإذا كانت أوروبا وأمريكا قد تقدمتا فى العلوم الطبيعية تقدماً كبيراً عن بقية البلاد الأخرى ، فليس معنى ذلك أن الحضارة الغربية المعاصرة أصبحت متميزة أو فيها مميزات عن الحضارات المعاصرة - كالحضارة الهندية والحضارة الصينية والحضارة الإسلامية- ولكن هذه العلوم الطبيعية مشتركة بين الحضارات، وتختلف أصحاب هذه الحضارات عن أصحاب الحضارة الغربية الأوروبية الأمريكية العلمانية المعاصرة يرجع إلى أصحاب هذه الحضارات أنفسهم .

(1) د. نعمات أحمد فؤاد ، كتاب : دراسات فى الحضارة الإسلامية ، المجلد الثانى : دور مصر فى الحضارة الإسلامية .

(2) د. أحمد عبد الرازق أحمد ، كتاب : دراسات فى الحضارة الإسلامية ، المجلد الأول : التسليية عند المسلمين .

ولو كانت هناك إدارة جيدة مثلما يحدث في الصين والهند حاليًا لنهض أصحاب الحضارة الإسلامية مثل الآخرين ، فالعلوم الطبيعية والتقنية والصناعات تعتبر مما هو مشترك عام بين الحضارات، ويمكن نقله واكتسابه من الحضارات الأخرى والتفوق فيه في مدة وجيزة .

وقد قام العلماء المسلمون في عصور الإسلام المختلفة بإسهامات عديدة في المجالات المختلفة. هذا بالإضافة إلى أنهم قاموا بوضع أسس علوم جديدة ، وذلك قبل النهضة الأوروبية بقرون ، فعلم الجبر قام بوضع أساسه محمد بن موسى الخوارزمي الذي كان معاصرا للخليفة المأمون ، وعلم الاجتماع كان أول من وضع أسسه هو ابن خلدون كما جاء في كتابه (المقدمة)، وسمّاه علم العمران البشري أو العمران أو الاجتماع الإنساني⁽¹⁾.

ويقول ابن خلدون مبينا أن علم العمران البشري علم جديد لم يعرفه أحد قبله : « واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وأدى إليه الغوص . ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة »⁽²⁾.

ويضيف ابن خلدون : « ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهامًا وأعثرنا على علم جعلنا بين نكرة وجهينة خبره ، فإن كنت قد استوفيت مسأله ، وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاؤه فتوفيق من الله وهداية ، وإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره فللناظر المحقق إصلاحه ، ولّي الفضل لأنّي نهجت لهم السبيل وأوضحت له الطريق ، والله يهدي لنوره من يشاء »⁽³⁾.

(1) عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب : مقدمة ابن خلدون ، مكتبة الهلال ، بيروت .

(2) المصدر السابق .

(3) المصدر السابق .

وكما توقع ابن خلدون فقد قام الأوروبيون إبان عصر النهضة بترجمة المقدمة عدة مرات، وقاموا بتطوير علم الاجتماع والإضافة إليه، ولكن استخدموه ليعالج مشاكل مجتمعاتهم ويحمل مفاهيم حضارتهم الغربية العلمانية .

فعلم الاجتماع وجميع العلوم تعتبر مما هو مشترك عام بين الحضارات، ويمكن نقلها واستخدامها والبناء عليها، ولكن لتحمل مفاهيم حضارتنا الإسلامية، وتعالج مشكلات مجتمعاتنا الإسلامية .

وكما رأينا فالعلوم الإنسانية مثل علم الاجتماع يمكن أن تنتقل بين الحضارات، ولكن لتحمل مفاهيم الحضارة التي تنتقل إليها، والتي تعالج مشاكل مجتمعاتها .

وكان المسلمون في العصر الأموي والعباسي عندما قاموا بترجمة علوم اليونان وإنتاجهم في مجالات الثقافة اليونانية ومجالات الحضارة اليونانية القديمة ، وترجمة علوم فارس والهند، فإنهم لم يقوموا بتطبيقها في مجتمعاتهم الإسلامية كما هي ، بل قاموا باستخدام ما ينفعهم بعد اكتساب المفاهيم الإسلامية .

فالعلوم بصفة عامة - سواء العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية - من المشترك العام بين الحضارات ، مع الأخذ بأن بعض العلوم يحتاج لإكسابه - وتغيير تطبيقاته - المفاهيم الخاصة بالحضارة التي ينتقل إليها .

وفي العصر الذي نعيشه هناك قيم كثيرة أخرى تعتبر من المشترك العام بين الثقافات والحضارات، منها : بعض القيم الأخلاقية مثل : الصدق والكذب والغش والخداع والعدل والظلم . وبعض القيم الإنسانية مثل : حقوق الإنسان ، والحقوق المدنية، والحقوق السياسية ، والحريات العامة ، والحريات السياسية .

وهناك جانب مهم في الإنتاج الثقافي يعتبر من المشترك العام بين الثقافات والحضارات، وهذا الجانب - وإن كان ليس جديداً بالضبط - إلا أنني أزعّم أنني

أول من أبرزته بوضوح تام وضربت له الأمثلة من الثقافات المختلفة كما جاء فى أحد كتبه⁽¹⁾.

وملخص ذلك فيما يلى :

أن العمل الثقافى الأدبى أو الفنى أو ... له جانبان أو شقان : الشق الجمالى الفنى والشق الثقافى ، وهذان الجانبان مختلفان - سواء أكان المؤلف أم المبدع للعمل يدرك أو لا يدرك ذلك - ويمكن رصدتهما وتمييزهما للنقاد أو المثقف الذى له اهتمام بالثقافات المختلفة :

الشق الأول : وهو الشق الجمالى الفنى فى العمل، وهذا الشق هو الذى قامت الأعمال الأدبية والفنية أساساً من أجل إبرازه وإبداعه ، والعمل الذى يخلو من الإبداع الجمالى يعتبر ساقطاً . وهذا الشق الجمالى يعتبر مما هو مشترك عام بين الثقافات والحضارات .

والمسابقات الدولية فى المجالات المختلفة مثل : مسابقات الأفلام السينمائية الدولية، ومثل : مسابقات الأعمال الأدبية ... تكون على أساس هذا الشق الجمالى فقط وليس الشق الثقافى .

الشق الثانى : وهو الشق الثقافى وهو الذى يتعلق بالثقافة التى ينتمى إليها هذا العمل، فالثقافات المختلفة تختلف فى أساسيات كثيرة، وكان هذا الشق بارزاً واضعاً فى الإنتاج الثقافى للجيل السابق والأجيال التى قبل، ولكن باختلاط الثقافات وعدم الوعى أصبح ذلك غير واضح .

والإنتاج الثقافى يجب أن يحمل مفاهيم الثقافة التى ينتمى إليها ، والمعول على ذلك يرجع إلى الفنان أو الأديب أو المبدع الذى أبدع هذا العمل الثقافى ، خاصة

(1) د . محمد الجوهري حمد الجوهري : كتاب العولة والثقافة الإسلامية ، دار الأمين ، طبعة أولى ، 2002 ، وأعيد طبعه 2004 م .

وأن الاختلافات بين الثقافات والحضارات أصبحت متداولة بين وسائل الإعلام بصورة كبيرة - وتزداد وضوحاً بمرور الوقت - فالأديب أو الفنان يجب أن يستشرف مفاهيم ثقافة مجتمعه ومفاهيم حضارة مجتمعه وأمته، ويعبر عنها بصدق أخلاقي وصدق فني .

ومن الأمثلة التي تؤكد ذلك في مجال الأفلام السينمائية، وفي المهرجانات الدولية للأفلام السينمائية، نجد أن كثيراً من الأفلام السينمائية التي تنتجها جمهورية إيران الإسلامية تفوز بالجوائز الأولى - في الإخراج أو التمثيل أو قصة الفيلم - رغم أن هذه الأفلام تمثل المفاهيم الإسلامية في السينما خير تمثيل سواء في قصة الفيلم التي تعالج أى قضية من منظور لا يخالف الإسلام - أو في السيناريو أو التمثيل أو الإخراج ، وفوز هذه الأفلام السينمائية الإيرانية في المهرجانات الدولية قد تم على أساس ما تحمله من الجانب الجمالي فقط - الذي هو مشترك عام بين الثقافات والحضارات - وليس على أساس ما تحمله من مفاهيم ثقافية ومفاهيم حضارية تتعلق بثقافتها وحضارتها الإسلامية .

مثال آخر : هو الاتهامات التي كثيراً ما توجه إلى الفائزين بجوائز نوبل للأدب من غير الغربيين ، بأنهم قد تم اختيارهم لأن أعمالهم التي تقدموا بها تمثل ثقافة الغربيين ، وليس لأنها جيدة جداً من الناحية الفنية الجمالية .

و معنى ذلك أن معيار المفاضلة بين الأعمال المتقدمة للفوز بجائزة نوبل يجب أن يكون الناحية الجمالية الفنية فقط - التي تعتبر مما هو مشترك عام بين الثقافات والحضارات - وليس على ما تحمله من مفاهيم الثقافة الغربية .

رابعًا : حضارات انهارت عندما اعتنقت شعوبها ومجتمعاتها الإسلام وتخلت عن معتقداتها السابقة ولم يعد هناك من يؤمن بمعتقداتها :

عندما دخل المشركون في الدين الإسلامى وتخلوا عن عبادة الأوثان ، تخلوا أيضًا عما كان يصاحب عبادة الأوثان من طقوس وعادات وسلوكيات شركية ، وتخلوا عما كانت تمثل من ثقافات شركية ، فالدعارة وشرب الخمر والمجون والسفاح كانت منتشرة بين بعض الأوساط غير الأشراف⁽¹⁾ في الجزيرة العربية ، وكان هناك من يند البنات ، وكان هناك نكاح البغايا ونكاح الاستبضاع ، حيث كان الرجل يرسل زوجته لتستبضع من رجل آخر ، وغير ذلك من الأنكحة التى حرمها الإسلام ، وكان الشعراء يفخرون بشرب الخمر والمعلقات الشعرية للشعراء قبل الإسلام مثل : امرؤ القيس وعمرو بن كلثوم وغيرهما بها معانى تعبر عن ثقافة المشركين التى اختفت عندما ساد الإسلام كل الجزيرة العربية ، مثل قول عمرو بن كلثوم :

ونشرب إن وردنا الماء صفوًا ويشرب غيرنا كدرًا وطينا
بقاة ظالمين وما ظلمنا ولكننا سنبدأ ظالمينا
وأحياننا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وعندما قام رسول الله ﷺ بفتح مكة هدم الأصنام الموجودة حول الكعبة ، وأرسل من يهدم الأصنام الموجودة خارج مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وجاءت وفود القبائل العربية من أنحاء الجزيرة العربية يدخلون في دين الله ، وقد سرد أهل المغازى ما يزيد عن سبعين وفدًا من وفود القبائل مثل : وفد قبيلة عبد قيس وقبيلة دوس ووفد بلى ووفد عذرة ووفد ثقيف ، وجاء الشاعر المشهور كعب بن زهير بن أبى سلمى وأسلم وقال قصيدته المشهورة بين يدى رسول الله ﷺ ويمدح فيها الرسول ﷺ ومطلعها :

(1) كتاب : الرحيق المختوم للمباركفورى .

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم أثرها لم يغد مـكـبـول
وتزايد عدد الذين يدخلون في الإسلام من المشركين والكفار والمجوس
وبعض أهل الكتاب .
نتيجة لذلك تناقصت أعداد المشركين عبدة الأوثان تدريجيًا حتى تقلصت
عبادة الأوثان وما تمثله من عقائد وثقافة وحضارة شركية جاهلية حتى اختفت تمامًا
بعد انتشار وسيطرة وسيادة الإسلام على الجزيرة العربية .
وبذلك سقطت ديانة وثقافة وحضارة الشرك والمشركين ، وقام الدين
الإسلامي وثقافته وحضارته لتحل محلها في كل الجزيرة العربية .
سقطت وانهارت حضارة الأوثان والشرك بقيام الإسلام وحضارته
الإسلامية .

انهارت الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية أقوى إمبراطوريتين
في ذلك الوقت، والتي كانت الحرب بينهما تقع كثيرًا ، يقول سبحانه و تعالى :
﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿١﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَمْعِلِيُّونَ ﴿٢﴾ فِي
بِضْعِ سِنِينَ ﴿٣﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ ۝ ﴿١﴾ .
الفرس كانوا مجوسًا يعبدون النار والروم كانوا يعتنقون المسيحية (٢) .

بعد هزيمة المرتدين وانتصار أبي بكر الصديق والمسلمين عليهم ، أمر أبو بكر
الصديق خالد بن الوليد - وكان يقيم باليامة بعد أن فرغ من حرب المرتدين - أن
يسير إلى العراق حتى يدخلها ، وكان ذلك سنة اثنتى عشرة من الهجرة ، وكانت
العراق تابعة للفرس (٣) .

(1) الروم : 2-4 .

(2) تفسير ابن كثير .

(3) تاريخ الطبري ، ص 307 ، المجلد الثاني .

وجاء في تاريخ الطبرى : لما قفل أبو بكر الصديق من الحج سنة اثنتى عشرة من الهجرة جهز الجيوش إلى الشام فبعث عمرو بن العاص قبل فلسطين ، وبعث يزيد بن أبى سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحбил بن حسنة وأمرهم أن يسلكوا التبوكية على البلقاء من علياء الشام . ثم وجه الجنود إلى الشام أول سنة ثلاث عشرة من الهجرة⁽¹⁾ . فقرار أبى بكر الصديق كان مواجهة الإمبراطورية الفارسية والرومية معاً .

وبعد وفاة سيدنا أبى بكر الصديق سار سيدنا عمر بن الخطاب في ردع الجبروت المعتدى - والمتمثل في الفرس والروم - ، حيث انهزم الفرس والروم أمام جيوش المسلمين .

سقطت الدولة الفارسية ، وبمرور الزمن اعتنق أهل فارس الدين الإسلامى وتخلوا عن المجوسية وعبادة النار .

اختفت المجوسية وعبادة النار في فارس ، واختفت معها الثقافة والحضارة الفارسية لتحل محلها الحضارة والثقافة الإسلامية ، وذلك لأن أهل فارس وغيرهم لم يعودوا يعتنقون المجوسية .

بينما الروم رغم هزيمتهم ودخول كثير من أهالى البلاد المسيحية في الدين الإسلامى ، إلا إن المسيحية والثقافة والحضارة المسيحية - حينذاك - استمرت ، وذلك لأن هناك مجتمعات أخرى كانت لا تزال تعتنق المسيحية والثقافة والحضارة المسيحية .

(1) المصدر السابق ، ص 331 ، المجلد الثانى .

خامسًا : حضارات انهارت وماتت وأخرى أعيد تفعيلها بعد انهيارها :

حضارة عاد وحضارة ثمود كانت آثار كل منهما معروفة في زمن النبوة، وأشار النبي ﷺ إلى ذلك في حديثه، وأيضًا القرآن الكريم كما يأتي فيما بعد .

وقبل القرن العشرين لم يكن معروفًا من الحضارات القديمة سوى حضارة عاد وحضارة ثمود والحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية والحضارة الرومانية والحضارة الآشورية .

وفي أوائل القرن العشرين تم اكتشاف آثار الحضارة السومرية والحضارة المنيوية Monoan ، وهي حضارة خاصة بجزيرة كريت، وهي سابقة للحضارة اليونانية (3000 - 1000 سنة قبل الميلاد)⁽¹⁾.

وتم اكتشاف الآثار الدالة على حضارة الشانج Shang بوادي هوانج هو بشمال الصين (1600 سنة قبل الميلاد)، وذلك خلال التنقيب في هذا الوادي سنة 1920 م .

في عام 1925 م تم اكتشاف الآثار الدالة على حضارة الأند INDUS (سنة 2300-1700 قبل الميلاد) بواسطة العالم الأثرى البريطاني جون مارشال ، وكذلك اكتشفت الآثار الدالة على حضارة ميزو ومنطقة الأندين ANDEEN في جنوب أمريكا (كلاهما في 1200 قبل الميلاد) وتم اكتشاف آثار حضارة عاد في الربع الخالي جنوب الجزيرة العربية في الآونة الأخيرة كما سيأتي فيما بعد ، وقد عد الفيلسوف الألماني أزولد شبنجلر آثار ثمانى حضارات قديمة في التاريخ، وقد عدها عالم التاريخ البريطاني أرنولد توينبى ستًا وعشرين حضارة قديمة⁽²⁾.

وآثار حضارة عاد وآثار حضارة ثمود كانتا معروفتين وموجودتين في زمن النبوة، وجاء ذكر ذلك في آيات القرآن الكريم وحديث النبي ﷺ كما سيأتي فيما بعد.

(1) Grolier Academic Encyclopedia. Civilization.

(2) المصدر السابق .

وكل عدة سنوات يتم اكتشاف آثار حضارة من الحضارات القديمة، مثلما حدث مؤخرًا عندما اكتشفت آثار حضارة عاد في الربع الخالي جنوب الجزيرة العربية كما سيأتي فيما بعد .

وكل تلك الحضارات التي ذكرناها سابقًا انهارت وماتت ، ولم يبق إلا الآثار الدالة عليها، ما عدا حضارة واحدة هي الحضارة اليونانية .

وبمعنى آخر أن الحضارات التي ماتت، هي تلك الحضارات التي لم يعد هناك مجتمعات تؤمن بنفس المعتقدات الدينية التي قامت عليها تلك الحضارات الميتة .

فالحضارة السومرية مثلاً حضارة ميتة ، لأنه لم يعد هناك مجتمع من المجتمعات له نفس المعتقدات الدينية الخاصة بالحضارة السومرية .

أما الحضارة اليونانية القديمة (الحضارة اليونانية الرومانية) كانت قد انهارت وماتت بعد مجيء الدين المسيحي ، وإيمان جميع المجتمعات الأوروبية بالدين المسيحي في العصور الوسطى حتى أن أوروبا لم تكن تعرف عن الكتب والمؤلفات اليونانية والرومانية شيئًا، وكانت تعتبر المعتقدات الدينية اليونانية والرومانية كافرة وضد المسيحية .

وبعد تحول أوروبا إلى العلمانية ، وسيطرة المفاهيم المادية على فكر الأفراد والمجتمعات الأوروبية والأمريكية ، تم إحياء كثير من الأفكار اليونانية القديمة .

سادساً : استفادة المسلمين بما هو مشترك عام بين الثقافات والحضارات :

تطور الإنتاج في مجال الحضارة الإسلامية :

لقد تطور الإنتاج في مجال الحضارة الإسلامية عبر العصور الإسلامية المختلفة. ولقد استخدم المسلمون ما هو مشترك عام بين الحضارات في التطور المستمر في المجالات المختلفة ، فكانت البلاد التي فتحها المسلمون مثل: مصر والمغرب العربي وفارس والشام والهند والصين، كانت بها بعض الصناعات المتنوعة فكان الخليفة يرسل إلى ولاية الأقاليم فيبعثون إلى عاصمة الخلافة بالمهرة من العمال والمخترعين وكل صاحب موهبة أو صناعة أو علم ومعه ما اخترعه أو صنعه ، وكانت تصطبغ الصناعات بالمفاهيم الإسلامية، وتطور هذه الصناعات ويعاد إرسالها إلى جميع الأقاليم والأمصار.

وبذلك يستفاد من الصناعات والعلوم والتقنيات المختلفة في الحضارات المختلفة - وهو يعتبر من المشترك العام بين الحضارات - بعد صبغها بالمفاهيم الإسلامية .

ولقد تطور الإنتاج في مجال الحضارة الإسلامية ليشمل الإنتاج: الثقافي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي و... إلخ .

ففي مجال الإنتاج الثقافي ، فقد تطور الإنتاج في المجال الثقافي مثل: مجال الأدب والفنون السمعية والفنون البصرية .

ففي مجال الفنون التشكيلية (الفنون البصرية) مثل: فنون العمارة الإسلامية وفنون الزخرفة وفنون النحت وفنون الحفر على الخشب وفنون التصوير الإسلامي، فقد تطورت هذه الفنون تطوراً رائعاً .

فلقد برع المسلمون في فنون العمارة والفنون الزخرفية إلى درجة بهرت العالم ، وكانت مثار الإعجاب عبر العصور المختلفة .

وتميزت فنون العمارة الإسلامية بتفرداها وخصوصيتها ، فهي تميل لتجميل الطبيعة والانسجام معها ، وتعتمد على الهندسة ، كما تعتمد مواد البناء على الكيمياء التي برع فيها المسلمون مثل جابر بن حيان .

وكان للتقدم الذي بلغه المسلمون في العلوم الطبيعية ، أثره الواضح في تقدم فنون العمارة .

وكانت مواد البناء عند المسلمين تتغير حسب جيولوجيا المكان ، فتم استخدام الطوب في بناء مسجد ابن طولون . أما مسجد الحاكم بأمر الله فقد بنى من الأحجار ، وفي إسبانيا استخدموا الأسمنت المكوّن من الجير والرمل والطفلة أو مادة الكاولين .

والفنون الزخرفية التي تعتبر من بدائع الفن الإسلامي قد استخدمت في نواح عديدة صناعية ومعمارية وفنية ، وقد ظهرت روعتها وجمالها في صناعة النسيج بأنواعه ، وفي فنون الخزف والفخار وصناعة الأثاث الخشبي ، وفي صناعة المعادن ، وفي السجاد ، وفي الحفر على الخشب .

كما أن أشكال الخط العربي قد استخدمت في مجالات عديدة مثل : المساجد والتكايا والدور .

والفنون الزخرفية الإسلامية يطلق عليها الأوروبيون أرابيك أو أرابيسك ، وقد قام الأوروبيون بتقليد هذه الفنون فنقلوا الزخرفة الإسلامية والخط العربي في العصر الوسيط ، وقد عثر على زخارف بخطوط عربية على كنيسة في ميلانو⁽¹⁾ .

(1) مانويل جوميث وتورينو ، كتاب : الفن الإسلامي في إسبانيا ، ترجمة د . لطفى عبد البديع ود . السيد محمود سالم .

وتعتبر سيرة ابن إسحاق - التى كتبت فى القرن الثانى الهجرى - أول سيرة أو ترجمة حياة مطولة كاملة تكتب فى تاريخ علم التاريخ فى الدنيا ، فلم يكتب الفرس أو الهندود أو الإغريق أو الرومان سيرة مطولة كاملة لرجل من رجالهم ، ولا فعل ذلك المؤرخون المسيحيون مع حياة السيد المسيح عليه السلام .

والدقة والضبط والصدق التى كتبت بها هذه السيرة ترجع إلى الدقة والضبط والصدق التى تميز بها المسلمون ، والتى اكتسبوها من تدوين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

والمقامات الأدبية التى ألفها بديع الزمان الهمذاني فى القرن الرابع الهجرى والتى نشرت فى كتابه ، وكذلك المقامات التى كتبها الحريرى فى كتابه مقامات الحريرى من بعده ، هذه المقامات تجدد فيها : القصة القصيرة والطويلة والحوار والملح الأدبية والقصائد الشعرية بأسلوب عربى ثرى ، يدل على ثراء اللغة العربية الفصحى التى لم نستعمل إلا أقل القليل منها .

والمعاجم العربية التى تطورت عبر التاريخ الإسلامى على يد العلماء أمثال : الثعالبي ، والبقلاني ، وإسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى سنة 1099 م ، وله قاموس اسمه « صحاح الجوهري » ، والفيروز بادي فى قاموسه « القاموس » والزبيدي فى قاموسه « تاج العروس » الذى وضعه فى القرن الثامن الميلادى ، والذى ما زال يستخدم حتى الآن والذى يقارن بقاموس إكسفورد الإنجليزى الحديث فى وظيفته⁽¹⁾ .

وفى مجال الصناعة قامت فى بلاد العالم الإسلامى صناعات عديدة وتطورت واستفادت بها هو مشترك عام بين الحضارات ، فكانت هناك صناعة الحديد وصناعة الورق

(1) بيتر جران ، كتاب : الجذور الإسلامية للرأسمالية فى مصر ، (1760-1840م) ، ترجمة محروس سليمان ، مراجعة رؤوف عباس ، دار الفكر للدراسات والنشر .

وصناعة السكر من قصب السكر، وصناعة العطور وصناعة النحاس الأصفر وصناعة الذهب والفضة وصناعة الزجاج والخزف وصناعة المنسوجات وصناعة السجاد.

كما كانت هناك عناية خاصة باستخراج المعادن من المصادر الطبيعية ومعالجة بعض المعادن المستخرجة ، فقد قاموا باستخراج: الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والفحم والزئبق واللؤلؤ والمرجان والعقيق والزبرجد والعاج والشب وملح النشادر وغيرها .

وكان الورق والزجاج من الصناعات التي بلغت درجة عظيمة من التقدم ، وكثير منها كان يصدر إلى الدولة الرومانية وغيرها ، وقد ذكر الرحالة ناصر خسرو، وكان من بلاد فارس، والذي زار القاهرة ، أن التجار المصريين كانوا يستعملون الورق في لف البضائع ، ذلك في الوقت الذي لم تكن فيه أوروبا تعرف صناعة الورق .

وكانت صناعة المنسوجات والبسط والطرز من الصناعات المنتشرة في معظم بلاد العالم الإسلامي، وكانت مختلفة ومتنوعة وتناسب كل الأذواق ، وكانت تتمثل فيها القاعدة الاقتصادية التي تناسب الفطرة السليمة ، وهي التي تقول إنتاج كثير التنوع وليس إنتاج كثير الكمية من نوع واحد .

وكانت المنسوجات تصنع من القطن والكتان والصوف والحرير ، وكانت من هذه المنسوجات الديبقي وكان يصنع من الكتان في مصر ، والبدنة وهو قماش خاص بعلية القوم والخلفاء ، والقصب وهو قماش رقيق ملون ، والبوقلمون وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار ، وكان هناك الديباج وهو نسيج يصنع من الحرير المزركش بالذهب والفضة ، وكذلك القطن الذي استخدم في صناعة المنسوجات القطنية الدقيقة والتي اشتهرت به الهند ، وشجع هذه الصناعة أباطرة المغول في العصر الإسلامي في الهند وفرضوا عليها رقابة حكومية .

وفي العصور الوسطى أطلق بعض الأوروبيين أسماء بعض المدن العربية على المنسوجات المصنوعة في تلك البلاد ، فكان هناك الدمشقي نسبة لدمشق والموسلي نسبة إلى الموصل ، وكان هناك الإيراني والتركي والمملوكي والهندي والأندلسي والأيوبي نسبة إلى الأقطار والعصور التاريخية الإسلامية ، وكان هناك الشطوي نسبة إلى بلدة شطا بدمياط والصعيدى نسبة إلى صعيد مصر⁽¹⁾ ، وكان هناك صناعة السجاد بأنواعه وزخارفه الرائعة المتنوعة.

وللمسلمين فضل كبير في عمارة الدنيا فقاموا بتطوير المجالات المختلفة التي تتعلق بعمارة الأرض ، مثل: الزراعة والتقنية الصناعية والزراعية وتطوير وسائل الري وإصلاح الأراضي الزراعية وإنشاء السدود .

ففي عصر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (136-158هـ) شقت كثير من الترع والجداول حتى غطت أجزاء كثيرة من العراق ، وأمكن ري الأراضي الممتدة بين الصحراء الغربية وجبال كردستان وتحويلها إلى جنات وارفة عامرة بالزراع والنهاء .

وفي مرو شرق فارس كان هناك جهاز متخصص للري ، يسمى ديوان الماء يعمل به عشرة آلاف عامل يرأسهم صاحب ديوان الماء .

وأقام المسلمون القناطر والسدود لحجز الماء وتوفيره للري مثل السدود التي أقيمت في مصر وفي بلاد ما وراء النهر وفي اليمن والأندلس ، وأقاموا عليها المقاييس لمعرفة منسوب الماء في النهر ، وكانت السدود تبنى من الحجر مثل سدود فارس وخوزستان ، أو تبنى من الخشب مثل سد بخارى وقد بنى عضد الدولة البويهى

(1) د. سعاد ماهر ، دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى (3 مجلدات بواسطة نخبة من العلماء) ، المجلد الأول : الفنون عند المسلمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985م.

(367-372هـ) «سكراً» عظيمًا على نهر الكرى بين شيراز واصطخر ، وكان السكر عبارة عن حائط عظيم أماسه من الرصاص بناه في عرض النهر فتبحر الماء خلفه وارتفع ، فجعل عليه من الجانبين عشر دوليب ، وتحف كل دولاب رحي ، وأجرى ماءه في قنوات تسقى ثلاثمائة قرية⁽¹⁾.

وكان على نهر النيل في مصر سدان الأول هو سد أمير المؤمنين وكان يقام قبل زيادة النهر بعين شمس ، فإذا جاء الفيضان وارتفع الماء انسحب في الترع والقنوات ورويت الأراضي والضياع . أما السد الآخر فكان عظيم البناء ويقع في سردوس أسفل عين شمس ، وكان مقياس النيل عمودًا طويلًا عليه الأذرع والأصابع يوضع في بركة يحاط بها الماء ، وأهم المقاييس في مصر كان مقياس الروضة⁽²⁾.

وقد اعتنى المسلمون بالزراعة عناية كبيرة واستخدموا أنواعًا مختلفة من السداد ، ولكل نوع من النبات السداد الصالح له ، واستخدموا التلقيح وتطعيم بعض الأشجار مثل : الكروم بفلسطين والتين في المغرب العربي ، كما قام المسلمون بزراعة كل أنواع الحبوب في كل أنحاء العالم الإسلامي ، وانتقلت وسائل الزراعة والرى من إقليم إلى آخر فزرعوا القمح والشعير والذرة والأرز ، كما زرعوا الحمص والعدس واللوبة والبسلة والسمسم والقرطم وقصب السكر ، كما زرعوا القطن والأزهار والرياحين مثل : الورد والبنفسج والياسمين والنجس والآس والنسرين واللينوفر والتمرحناء والرياحين وزهر الليمون والبرتقال ، ومن الفواكه زرعوا : البلح الرطب والعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والبرقوق والتفاح والقراسية والكمثرى والسفرجل والموز والجوز والبطيخ والزيتون والأترج والليمون ، وكان كل نوع من هذه الأنواع يزرع في أماكن عديدة في العالم الإسلامي.

(1) د . محمد عماد عبد القادر الخطيب ، أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد بجامعة الأزهر ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، مطبعة الحسين ، 1411 هـ - 1991 م .

(2) المصدر السابق .

كما اعتنى المسلمون بتربية الحيوان مثل: تربية الإبل والبقر والجاموس والخيول والبغال والحمير ، وتربية الطيور كالبط والإوز والدجاج والحمام ، وقاموا بتربية دود القز واستخراج الحرير واستخدامه في الصناعة ، وكذلك قاموا بصيد الأسماك وغير ذلك من استخراج اللؤلؤ والمرجان من بعض الشواطئ .

والمسلمون كانوا يهتمون بثقافتهم وحضارتهم الإسلامية، ويجمعونها من تأثير وغزو الثقافات والحضارات الأخرى .

ففي خلافة هارون الرشيد رأى في بعض الأوراق طرازاً يحمل علامات مغايرة للثقافة الإسلامية ، فسأل عن مصدر هذا الطراز، ف قيل له إنه من مصر وإنه يصدر إلى الدولة الرومانية ، وأنهم صنعوا هذا الطراز ليوافق رغبة الدولة الرومانية ، فاستنكر ذلك وأرسل إلى والى مصر ليغير هذا الطراز - الذى يصدر إلى الدولة الرومانية - إلى طراز إسلامى ، وكتب إلى جميع الولاة بأنه يجب أن تحمل الطرز على الملابس والأوراق وما شابهها المفاهيم الإسلامية .

استفادة المسلمين من الحضارات الأخرى

وقد استفاد المسلمون من الحضارات السابقة لحضارتهم والحضارات المعاصرة لها مثل: الحضارة البيزنطية والهندية والفارسية والصينية والمصرية القديمة واليونانية، ونقلوا عنها كثيراً مما هو مشترك عام بين الحضارات .

ففى مجال العلوم، مثل : الحساب والهندسة والكيمياء والصيدلة والطب وعلم الفلك والجغرافيا والفيزياء .. نقل المسلمون كثيراً من الحضارات الأخرى وأضافوا إليه ، ففي مجال الرياضيات نقلوا عن الهند الأشكال التى تدل على الأعداد وكونوا منها سلسلتين هما : السلسلة الهندية التى نستعملها الآن فى الترقيم ، والسلسلة الغبارية التى انتشر استعمالها فى الأندلس ، ودخلت منها إلى أوروبا ، وعرفت باسم

الأرقام العربية، بينما نطلق عليها نحن خطأ الأرقام الإفرنجية⁽¹⁾. (د. محمد جمال الفندى).

والسلسلة الغبارية هذه مرتبة على أساس الزوايا : الرقم 1 فيه زاوية واحدة ، والرقم 2 فيه زاويتان ، والرقم 3 فيه ثلاث زوايا

وقد أدخل على هذه الأرقام التعديل ، مما جعلها تبدو على الشكل الذى نعرفه⁽²⁾.

ونقل المسلمون عن اليونان علم الهندسة ، حيث كان اليونانيون قد بلغوا شأنًا عظيمًا فيها على يد أمثال إقليدس التى لا تزال هندسته تدرس حتى الآن ، إلا أن المسلمين أضافوا إليها الشيء الوفير حتى توصلوا إلى حسابات الفلك الكروى التى تعتبر خطوة حقيقية نقلت علم الفلك إلى علم حديث غير مفاهيم أرسطو ونحوه عن العالم والكون والأرض . وتوصل المسلمون إلى النسبة التقريبية ط ، حيث بينوا طريقة إيجاد نسبة محيط الدائرة إلى قطرها ، وقد ذكر الخوارزمى - الذى ابتكر علم الجبر لأول مرة فى التاريخ - فى كتابه الجبر والمقابلة أن هذه النسبة 22 على 7 ، وهى نسبة سليمة إلى أكبر حد⁽³⁾.

كان أول قياس علمى سليم لنصف قطر الأرض على يد العالم المصرى اراتوستينس من مدرسة الإسكندرية القديمة ، ويعتبر قياس ثابت بن قرة 836 - 901 م ثانى قياس علمى سليم لنصف قطر الأرض ، حيث أعطت هذه القياسات رقمًا سليمًا لطول محيط الأرض بدقة متناهية ، مما دفع المستكشفين فى الغرب بعد ذلك أمثال كولومبس إلى المغامرة بالإبحار غربًا فى عرض المحيط الأطلنطى ، وهم على

(1) د . محمد جمال الدين الفندى ، تراث المسلمين فى مجال العلوم ، دراسات فى الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى ، المجلد الثانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985 م .

(2) المصدر السابق .

(3) المصدر السابق .

يقين من أنهم سوف يعودون إلى نقطة الابتداء⁽¹⁾. وبذلك انتقلت الفكرة العلمية لقياس قطر الأرض من الحضارة المصرية القديمة إلى الحضارة الإسلامية إلى الحضارة الغربية الحديثة، وعلى أساسها تم استكشاف القارة الأمريكية.

ويعتبر أبو بكر الرازي المولود 854 م مؤسس علم الكيمياء الحديثة، وقد تضمن كتابه المعروف باسم «سر الأسرار» منهجه في الأخذ بمبدأ التجربة.

ومن المعروف أن أصل كلمة كيمياء هو الكمي، حيث اشتق لفظ كمي من أسماء مصر، وهو يعنى الأرض السوداء، وفي الغالب يشير الاسم إلى تلك المنطقة المنزرعة على جانبي شاطئ النيل بعد أن غمرها النهر مرارًا وميزها عن بقية الصحراء الجرداء ورمالها الصفراء، وأمدّها بكثير من عناصر الأرض، وهناك البعض يعتبر أن أصل الكلمة يوناني قديم⁽²⁾.

ولقد كان لحركة الترجمة التي بدأت في العصر الأموي فضل كبير في استفادة المسلمين من الحضارات الأخرى، وقد شجع عليها الخلفاء والأمراء، وكان اقتناء أشهر المؤلفات وجمع نفائس المخطوطات والحرص عليها من الهوايات التي حرص عليها الخلفاء والأمراء. وحرص الخليفة المأمون على توثيق علاقاته بالروم وأنحفهم بالهدايا الثمينة، وطلب منهم أن يمدوه بما كان عندهم من كتب الإغريق فبعثوا إليه بالكثير من مؤلفات افلاطون وارسطو وسقراط وجالينوس وإقليدس وارشميدس وبطليموس⁽³⁾. وقد ترجم كتاب بطليموس في الفلك في عصر المأمون وأطلق عليه

(1) د. محمد جمال الدين الفندي، تراث المسلمين في مجال العلوم، دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري، المجلد الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985 م.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

المجسطى. وفي عام 215 هـ / 820 م أنشأ المأمون في بغداد بيت الحكمة ، وأمدّه بمكتبة ضمت آلاف المخطوطات في شتى العلوم والفنون⁽¹⁾.

ونقل المسلمون عن الهند كثيراً من الفنون مثل مسرح خيال الظل، أى مسرح العرائس الذى انتشر من بغداد إلى بقية العالم الإسلامى ويوجد في متحف برلين القسم الإسلامى بعض العرائس المخرمة ، والى تنسب للعصر المملوكى⁽²⁾.

وقد نقل المسلمون عن الحضارات الأخرى مما هو مشترك عام كثير من الصناعات ، مثل: السكر والورق وصناعة الزجاج والنسيج ، مثل القباطى : التى انتقلت من مصر إلى بقية العالم الإسلامى، ومثل: الشطوى، وهو نوع من النسيج ينسب إلى مدينة شطا بدمياط بمصر. ونسيج القباطى هونسيج مصرى مشهور ينسب إلى مصر القبطية قبل دخول الإسلام إلى مصر⁽³⁾. وكانت القباطى تصنع في خراسان بإيران ، وتستخدم في كساء الكعبة كما ذكر ذلك ابن عبد ربه في العقد الفريد.

وكان الذين دخلوا في الإسلام من أبناء الحضارات الأخرى ، ينقلون ما كانوا يجيدونه أو يعرفونه من الصناعات أو التقنيات أو العلوم أو الفنون المختلفة أو الحرف المختلفة إلى حضارتهم الإسلامية مادام لا يتعارض مع المفاهيم الإسلامية . فعندما ترجم المسلمون علوم اليونان لم يترجموا الإلياذة والأودسا هو مبروس لأنهم وجدوا فيها ما يتعارض مع المفاهيم الإسلامية .



(1) د . أحمد عبد الرازق أحمد ، دراسات في الحضارة الإسلامية ، بمناسبة بداية القرن الخامس عشر الهجرى (3 مجلدات) المجلد الأول: التسلية عند المسلمين. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985 م .

(2) د . سعد ماهر ، الفنون عند المسلمين ، دراسات في الحضارة الإسلامية المجلد الأول. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985 م .

(3) المصدر السابق .

خلاصة

في هذا الفصل يمكن أن نلاحظ النتائج التالية :

أولاً : عندما أراد المولى عز وجل أن يعز العرب والمسلمين بالإسلام وأرسل إليهم محمدًا بن عبد الله النبي الأمي وأنزل عليه القرآن الكريم ليكون للعالمين نذيرًا، انتشر الإسلام في ربوع الجزيرة العربية ، وقامت دولة الإسلام وقام المجتمع الإسلامي والثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية ، كل ذلك كان متزامنًا مع مجيء الإسلام وانتشاره .

فالإسلام .. هذا الدين الجديد جاء معه بثقافة جديدة ، هي الثقافة الإسلامية، وحضارة جديدة هي الحضارة الإسلامية .

ومن ذلك يتضح أن أى حضارة جديدة لابد وأن تقوم على اعتقاد جديد ، سواء كان هذا الاعتقاد دينًا سماويًا أو اعتقادًا غير سماوي .. اعتقادًا ماديًا لا ديني .. لا يؤمن بالغيب، ويؤمن فقط بما تدركه الحواس الخمس .

ثانيًا : عندما ينهار المعتقد الديني لمجتمع من المجتمعات تنهار الثقافة والحضارة التي قامت على هذا المعتقد، إذا لم يكن هناك مجتمع آخر يؤمن بهذا المعتقد.

فالمجتمع الجاهل الذى عبد الأصنام عندما دخل أفرادها في الدين الإسلامى تدريجيًا، وتركوا عبادة الأصنام انهارت ثقافته الشركية ، إذ لم يكن هناك مجتمع آخر ظل محتفظًا بعبادة الأصنام.

وأهل فارس عندما تحول مجتمعهم المجوسى من عبادة النار إلى الإسلام، ولم يعد هناك مجتمعات أخرى تؤمن بالمجوسية انهارت الحضارة والثقافة المجوسية الفارسية .

أما الروم عندما هزمهم المسلمون - في الوقت نفسه مع الفرس - ودخلت

الشام كلها في الدين الإسلامي وأجزاء أخرى كثيرة من الإمبراطورية الرومانية، فإن حضارة الروم لم تنهار ولا انهارت ثقافتهم، وذلك لأن هناك مجتمعات أخرى في أوروبا ظلت محتفظة بعقيدتها المسيحية .

ثالثاً : الحضارة مثل الكائن الحي تقوم في مجتمع أو أمة يؤمن أفرادها بالمعتقد الديني الذي قامت عليه الحضارة .

أما الحضارة الميتة أو المندثرة ، فهي الحضارة التي لم يعد هناك مجتمعات تؤمن بالمعتقد الديني الذي قامت عليه .

والغرب أعاد إحياء مفاهيم الثقافة اليونانية والحضارة اليونانية والفكر اليوناني بعد أن تحول إلى المعتقدات العلمانية بديلاً عن المسيحية .

رابعاً : هناك أشياء كثيرة جداً مشتركة بين الحضارات، وهو ما أطلقت عليه (المشترك العام بين الحضارات)، وهذه الأمور المشتركة بين الحضارات أغلبها مفيد جداً في مجال التقدم العلمي والاقتصادي والصناعي والتقني و... إلخ .

ولكن الخلط الفكري والثقافي وعدم وضوح المفاهيم أدى إلى عدم الاستفادة من الحضارات الأخرى . إن بعض المسلمين تركوا ما هو مشترك عام بين الحضارات - مثل العلوم الطبيعية والصناعات والتقنيات الحديثة - وقاموا بنقل مفاهيم الثقافة العلمانية الغربية في مجالات كثيرة مثل الفنون .

* * *

الباب الرابع

عوامل قيام الحضارات وانهيارها في القرآن الكريم

الفصل الأول

الكفر والفساد والبغى وانهيار الحضارات .

الفصل الثاني

السنن الإلهية والحفاظ على الحضارات .

الفصل الثالث

التغيير في الدين والتعريف في الكتب المقدسة وسقوط الحضارات .

الفصل الرابع

العلم والحضارة .

البَقَصُكُ الْأَوَّلُ

الكفر والفساد والبغى وانهيار الحضارات

إن الشرك والكفر والبغى والفساد والطغيان من عوامل انهيار الحضارات ، لأنها لو استمرت دون رادع أو مانع فقد يحدث اختلال عظيم وتصبح الأرض غير صالحة للحياة فتنهيار الحضارة بسبب ذلك الاختلال .

فالاختلال البيئي الخطير مثل الارتفاع المستمر في حرارة الأرض - مثلاً - الاحتباس الحرارى - بسبب الإفساد الذى تحدثه الحضارة الغربية الحديثة للبيئة قد يؤدي إلى إغراق مناطق شاسعة من الأرض وإهلاك الحضارة فيها .

والاختلال الذى قد ينتج عن الهندسة الوراثية واللعب في الخريطة الجينية دون ضوابط ، والاختلال الناتج عن استنزاف الموارد الطبيعية على الأرض دون ضوابط .. كل ذلك ينتج عن الفساد والكفر اللذين يعملان على هدم الحضارات وانهيارها . وهو ما سوف نناقشه ونوضحه في هذا الفصل .

أولاً : حضارات انهارت بسبب الشرك والكفر والفساد والطغيان والبغى واكتشفت الآثار الدالة عليها :

جاء في القرآن الكريم أن هناك أمماً وحضارات هلكت وانهارت وكان الشرك والكفر والفساد والطغيان والبغى سبب هلاكها وانهيارها ، ومن تلك الأمم والحضارات عاد وثمود وفرعون ، وهذه الحضارات تركت الآثار الدالة عليها ، وبعضها تم اكتشاف آثارها في الفترة الأخيرة مثل حضارة عاد .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٣﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٤﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ طَفَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿٦﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْعِرْصَادِ ﴿٩﴾ ۝ (١).

1- عاد وحضارتهم :

اسم عاد «عاد إرم» نسبة إلى عاد بن إرم بن سام بن نوح أو نسبة إلى قبيلة إرم وعاد إحدى بطونها^(٢).

وكان قوم عاد إرم عمالقة طوال القامة وجبابة وكانت لهم أبنية عالية لثناسبهم ، أحجارها ضخمة ، فكانت قراهم لذلك فريدة ليس لها مثل ، وكانوا يسكنون بالأحقاف ، يقول تعالى : ﴿ وَادْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْبُذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ (٣).

والأحقاف جمع حقف ، وهو ما استطال من الرمل ، ولم يبلغ أن يكون جبلاً ، وتقع جنوب الجزيرة العربية وهي من حضرموت بلاد اليمن^(٤).

وفي الفترة الأخيرة جاء في وسائل الإعلام المقروءة أن بعثة من رجال الآثار قامت بالبحث عن آثار قوم عاد في الربع الخالي جنوب الجزيرة العربية بعد أن حددت وسائل الاستشعار عن بعد أماكن وجود تلك الآثار تحت الرمال . وقد نشرت وسائل الإعلام مع هذا الخبر بعض الصور المكتشفة لآثار حضارة عاد ، وهي صور لآثار ضخمة تدل على هذه الحضارة .

(1) الفجر : 6 - 14 .

(2) د. عبد المنعم الحفنى ، موسوعة القرآن العظيم ، الطبعة الأولى ، 2004م ، مكتبة مدبولي ، القاهرة .

(3) الأحقاف : 21 .

(4) تفسير ابن كثير .

يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٢٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾ أَتَتَّبِعُونَ كُلَّ رِيعٍ ؕ أَيَّةَ تَغْيُثُونَ ﴿١٢٦﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٧﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٢٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٢٩﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٠﴾ أَمَدُّكُمْ بِاتَّعْمُرِ وَيَسِينَ ﴿١٣١﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٢﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٣﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَصْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٥﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴿١٣٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ؕ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٩﴾ ١

فهم كانوا في رغد من العيش وكانوا جبابرة ، استمرأوا الطغيان والبنى والبطش ، فكذبوا نبيهم هوداً لما جاءهم برسالة التوحيد وكذبوا بعذاب الآخرة .

وفي سورة العنكبوت تذكر أن مساكن قوم عاد وثمود كانت آثارها موجودة أيام النبي ﷺ يراها العرب في رواحهم وبحيثهم ، وأن مشاهد هذه المساكن تؤكد أنهم كانوا قومًا على دراية وعلم وهو معنى ﴿ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ كما سنرى .. وُصفوا كذلك لأنهم لم يكونوا حقى ليكفروا ، المسألة عندهم أنهم صدوا عن السبيل ⁽²⁾ . يقول تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ ؕ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ ⁽³⁾ .

(1) الشعراء : 123 - 140 .

(2) د. عبد النعم الحفنى ، موسوعة القرآن العظيم ، طبعة 2004م ، مكتبة مدبولي .

(3) العنكبوت : 38 .

وقوم عاد كانوا من البناة ، وكانت بناياتهم إما مصانع في مختلف الصناعات والحرف ، وإما منازل للسكنى يختارون لها الهضاب ويعلون في البناء ، وإما قصوراً مشيدة ، وإما دوراً للهو والعبث ، وكانوا قوماً جبارين يبنون للخلود ⁽¹⁾ .

وقد دعاهم نبيهم هود إلى عبادة الله الواحد الذي لا إله غيره ، وقد ذكّرهم بنعم الله عليهم إذ زادهم بسطة في الخلق وبسطة في العيش ، فكذبوه . واتهموه بالسفاهة وظلوا متمسكين بشركهم وكفرهم ، يقول تعالى : ﴿ وَإِلَّاءِ آخَاهُمْ هُودًا قَالِ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (١) قَالِ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُكَلِّمُكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢) قَالِ يَتَّقُوا اللَّهَ يَاسَيِّدُ سَفَاهَةٍ وَلِكَلِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣) أُنِيفُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٤) أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادْتُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا لَآلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٥) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُهُ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٦) قَالِ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَتُتْرَفُ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانْتَقِظُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧) فَأُجِيبْنِي وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْتَ دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِمَا يَنْتَظِرُونَ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٨) .

وقد أهلكهم الله ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (١) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَیْنَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى

(1) د. عبد المنعم الحفني ، موسوعة القرآن العظيم ، طبعة 2004م ، مكتبة مدبولي .

(2) الأعراف : 65 - 72 .

الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغَى كَاثِمٌ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿١﴾ قَهْلَ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٢﴾
وجاء في سورة القمر قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَالِي وَنَذِيرٍ ﴿١﴾ إِنَّا
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿٢﴾ تَنَزَّعُ النَّاسُ ظُكُومًا أَعْجَازُ نَخْلٍ
مُنْقَعِرٍ ﴿٣﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَالِي وَنَذِيرٍ ﴿٤﴾ ﴾ (٢).

أهلك الله سبحانه وتعالى قوم عاد بريح شديدة البرد وقيل شديدة الصوت (٣) .
وانهارت حضارتهم بظلمهم وفسادهم وكفرهم وإفسادهم في الأرض وبغيهم
وجبروتهم .

2- ثمود وحضارتهم :

ثمود كانوا يسكنون الحجر بين وادي القرى وبلاد الشام ونيهم هو صالح عليه السلام ،
وقد كذبوا بجميع المرسلين ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ
الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٤) .

وذكر الله سبحانه وتعالى أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمين من غير خوف
ولا احتياج إليها ، يقول تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١﴾ وَكَانُوا
يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْجِعِينَ ﴿٣﴾ فَمَا
أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٥) .

وقد مر رسول الله ﷺ بمساكنهم بوادي حجر وهو ذاهب إلى تبوك فقع رأسه

(1) الحاقة : 6 - 8 .

(2) القمر : 18 - 21 .

(3) تفسير القرطبي ، وفي الجلالين : شديدة الصوت ، وفي تفسير ابن كثير : شديدة البرد .

(4) الحجر : 80 .

(5) الحجر : 81 - 84 .

وأسرع دابته ، وقال لأصحابه : لا تدخلوا بيوت المعدنين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا فتبكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم ⁽¹⁾ .

ويقول تعالى : ﴿ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ ⁽²⁾ . فهم كانوا جبابرة يبنون بيوتهم بالصخور يقطعونها من الوادي ، وقد أرسل الله إليهم نبيه صالحا يقول تعالى : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَبْذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾ ⁽³⁾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَغْنَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ⁽⁴⁾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ بِهِمْ اتَّعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ ⁽⁵⁾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ⁽⁶⁾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَنْصَلِحُ آتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ⁽⁷⁾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴾ ⁽⁸⁾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴾ ⁽⁹⁾ ⁽³⁾ .

إن صالحا كان أخا لهم يعنى من ثمود نفسها ودعوته كانت التوحيد وبيئته كانت الناقة جعلت آية ومعجزة ، وتركت حرة تأكل في أرض الله ، تدربنها على من يطلبه .

(1) تفسير ابن كثير .

(2) الفجر : 9 .

(3) الأعراف : 73 - 79 .

وجاء قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ فَخَتَمُومُوتَ ۖ قَالَ يَبْقَوْمُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيْفَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۖ قَالُوا أَطِيعُوا بَكَ وَيَمَن مَعَكَ ۖ قَالَ طَعِمْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ۖ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَنُو زُهَيْرِ بْنِ قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ إِذْ هُمْ يَلْعَلُونَ ۖ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۖ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ فَيَلَاكُ يَوْمَهُمْ خَارِبَةٌ يَمَّا ظَلَمُوا رَبَّ فِي ذَلِكَ لَآئِيَةٌ يُقِيمُونَ لَعْنُومُوتَ ۖ وَأُخْبِيتْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۖ ۝ (١) . وهكذا تأمر قادتهم وكبرائهم الذين أفسدوا في الأرض ولم يصلحوها على نبيهم الذي أرسل إليهم ، فدمرهم الله أجمعين .

دمرهم الله عز وجل بالصاعقة ، يقول تعالى : ﴿ وَبِثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُم تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۖ فَهَرَبُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۖ ۝ (٢) .

دمر الله سبحانه وتعالى ثمود الطغاة المكذبين لفسادهم وظلمهم وجبروتهم وتكبرهم ومحاولة قتل نبيهم ورفضهم عقيدة التوحيد ورفض ما جاء به نبيهم صالح ، وانهارت حضارتهم ولم يبق إلا الآثار الدالة عليها .

وقد جاء في التاريخ ذكر لقوم ثمود في كتابات سرجون (نحو 715 ق.م) ، ومؤلفات أرسطو وبطليموس وهليني ، وأنهم كانوا من الشعوب أو الأقوام البائدة (٣) .

(1) النمل : 45 - 53 .

(2) الذاريات : 43 -- 45 .

(3) د. عبد المنعم الحفني ، موسوعة القرآن العظيم ، الطبعة الأولى ، 2004م ، مكتبة مدبولي .

ثانياً : أمم وأقوام وحضارات أخرى هلكت بسبب الكفر والفساد والطغيان والبنى :

وقد جاءت آيات قرآنية كريمة تتحدث عن هلاك أمم وأقوام وحضارات سابقة كثيرة :

• قوم نوح الذين أرسل الله عليهم الطوفان فأغرق الكافرين الظالمين المفسدين ، يقول تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَ لَكَ بِأَعْيُنِنَا ووَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنْزِيرُ فَاسْتَلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (١) .

• وهلاك قوم لوط بأن قلب المولى - سبحانه وتعالى - عليهم الأرض وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، يقول تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢) .

ويقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سِجِيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾ (٣) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٤) .

وذلك لأنهم كانوا يأتون الفاحشة فيأتون الرجال شهوة دون النساء ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (٥) .

• وفرعون وقارون وهامان ، المتغترسون المكذبون المستكبرون ، يقول تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنُ وَفِرْعَوْنُ وَهَمْرُ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَبِقِينَ ﴾ (٦) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ

(1) المؤمنون : 45 ، 53 .

(2) الأعراف : 84 .

(3) هود : 82 ، 83 .

(4) الأعراف : 81 .

حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْآرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١﴾

وفي تفسير ابن كثير لهاتين الآيتين الكريمتين : ﴿ فُكِّلًا أَخَذْنَا يَذْنِبِهِ ﴾ كان عقوبته بما يناسبه ، ﴿ فَعِثُّهُمْ مِّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ وهم عاد ، وذلك أنهم قالوا من أشد منا فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد .. شديدة الهبوب جدًا ، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقاها عليهم وتقتلعهم من الأرض ، فترفع الرجل منهم إلى السماء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدنًا بلا رأس ، كأنهم أعجاز نخل منقعر .
﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْآرْضَ ﴾ وهم ثمود .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَقْنَا ﴾ وهو فرعون وقومه معه .

ويقول تعالى : ﴿ كَذَّابٌ ءَالٍ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُ مَغْفِرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢﴾ كَذَّابٌ ءَالٍ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلًّا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣﴾

• وقوم تبع الذين أهلكهم الله :

يقول تعالى : ﴿ أَهْمٌ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (٣) . ويقول تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبِعَ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ (١) .

(1) العنكبوت : 39 ، 40 .

(2) الأنفال : 52 - 54 .

(3) الدخان : 37 .

(4) ق : 14 .

• وأصحاب القرية الظالمة :

يقول تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا
إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴾ قَالُوا يَبُولْنَا إِنْأَ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿
فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ (١).

وفي تفسير الجلالين : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا ﴾ أهلكنا ﴿ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أى أهلها ﴿ كَانَتْ
ظَالِمَةً ﴾ كافرة ﴿ وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ .

• وهناك أمم وحضارات أخرى كثيرة هلكت وانهارت ، بسبب كفر أهلها
وفسادهم وبغيهم وطغيانهم .

ثالثاً : الإصلاح وعدم الفساد وعدم الطغيان والبغى وانهايار الحضارات :

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ
الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجَجْنَا مِنْهُمْ ۖ وَاَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا
أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ يَظْلِمِ
وَأَهْلَهَا مُضْلِحُونَ ﴾ (٢) .

إن الله سبحانه وتعالى البر الرحيم لا يهلك الحضارات بكفر أهلها إذا أصلحوا ولم
يعملوا على الإفساد فى الأرض ، ولم يعملوا على ظلم بعضهم لبعض ، وبغى بعضهم
على بعض ، ولم يعملوا الخبائث والفسق والفجور والطغيان ، والمولى عز وجل الرحيم

(١) الأنبياء : ١١ - ١٥ .

(٢) هود : ١١٦ • ١١٧ .

بخلقه لا يهلك القرى إلا بعد إرسال الرسل وإنذار أهلها ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ ﴾ ^(١) .

واقتران الكفر والشرك بالفساد والبغى ويظلم الناس بعضهم لبعض من أهم العوامل في انهيار الحضارات ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رِئَاكُ لِيَهْلِكَ الْفَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ^(٢) .

ومعنى ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ في هذه الآية الكريمة بشرك كما جاء في معظم كتب التفسير ، ومنها : الطبري ، وابن كثير ، وتفسير الجلالين ، وفي فتح الرحمن في تفسير القرآن للدكتور عبد المنعم تعليل ، وفي موسوعة القرآن العظيم للدكتور عبد المنعم الحفنى ... وغيرهم .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ ^(٣) شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أين لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله ﷺ : ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ لِقْمَنُ لِأَبْنَيْهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(٤) .

وفي تفسير الآيتين 116 و 117 من سورة هود ونصها : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ ﴾ وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿ وَمَا كَانَ رِئَاكُ لِيَهْلِكَ الْفَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ^(٥) .

(١) الشعراء : 208 .

(٢) هود : 117 .

(٣) الأنعام : 82 .

(٤) لقمان : 13 .

(٥) هود : 116 ، 117 .

سوف نورد بعض ما كتب المفسرون لهاتين الآيتين الكريميتين في تفسير القرطبي وابن كثير ، وعبد المنعم تغليب والرازي وابن تيمية .

جاء في تفسير الإمام الرازي لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ :

«إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك ، والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين ، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح وعدم الفساد»⁽¹⁾ .

قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة :

«وأمر الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في الإثم ، ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة ، ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام . وذلك أن العدل نظام كل شيء ، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت ، وإن لم تقم بالعدل لم تقم ، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة»⁽²⁾ .

وفي تفسير القرطبي لهاتين الآيتين : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ ﴾ أي فهلا كان ﴿ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي من الأمم التي قبلكم ﴿ أُولُوا بِقِيَّةٍ ﴾ أي أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ قومهم ﴿ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾ لما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات ، وهذا توبيخ للكفار ، وقيل : لولا هنا للنفس ، أي ما

(1) تفسير الرازي ، كتاب الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، على محمد الصلابي ، دار التوزيع والنشر الإسلامية .

(2) ابن تيمية ، رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

كان من قبلكم ، كقوله : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ ^(١) ، أَى مَا كَانَتْ ﴾ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ استثناء منقطع أى لكن قليلاً ﴿ مِمَّنْ أُنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ فهو عن الفساد فى الأرض . قيل : هم قوم يونس لقوله : ﴿ إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ ^(٢) . وقيل هم أتباع الأنبياء وأهل الحق ، ﴿ مَا أَتَرَفُوا فِيهِ ﴾ أى أشركوا وعصوا ﴿ مِمَّنْ أُنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ أى من الاشتغال بالمال واللذات وإيثار ذلك على الآخرة ﴿ وَكَانُوا حَرِيرِينَ ﴾ .

﴿ لِيُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ أى أهل القرى ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أى بشرك وكفر ﴿ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ فيما بينهم فى تعاطى الحقوق . ومعنى الآية :

إن الله لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط ، ودل هذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال فى الدنيا من الشرك ، وإن كان عذاب الشرك فى الآخرة أصعب . وفى صحيح الترمذى من حديث أبى بكر الصديق رضي الله عنه : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده» ، وقد تقدم وقيل : المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون ، فإنه يكون ذلك ظلماً لهم ونقصاً من حقهم أى ما أهلك قوم إلا بعد إعدار وإنذار . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه وإن كان على نهاية الصلاح ، لأنه تصرف فى ملكه دليل قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ^(٣) .

وقيل : «المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون ، أى مخلصون فى الإيمان» . انتهى تفسير القرطبي .

(١) يونس : ٩٨ .

(٢) يونس : ٩٨ .

(٣) يونس : ٤٤ .

وفي (فتح الرحمن في تفسير القرآن)⁽¹⁾ للدكتور عبد المنعم تعيلب : في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾⁽²⁾ :

« ليس من سنن البر الرحيم أن يدمر المدن بكفر أهلها إذا لم يقربوا بكفرهم فساداً وبنياً ، فإنه - تبارك اسمه - أهلك مدين بكفر أهلها وتطيفهم ، وقلب مدائن أهل لوط بكفرهم وإتيانهم الذكران ، وقوم نوح ضموها إلى عبادة الأصنام ، تحقير أهل الإيمان : ﴿ ... وَمَا تَرْكُوكَ أَتَّبَعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا ... ﴾⁽³⁾ . ﴿ ... أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾⁽⁴⁾ . وكذبوا نبيهم وقالوا : ﴿ ... لَيْنَ لَعَنَتَهُ يُنْفَخُ لَسَانُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾⁽⁵⁾ . ولقد قدم القرآن لوقوع البطشة بهم ونجاة نبيهم والمؤمنين بالآيات المباركة : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١﴾ فَقَدَعَا رَبُّهُ أَلَىٰ مَغْلُوبٍ فَأَنْتَصَرَ ﴿٢﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَهِّرٍ ﴿٣﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْأَمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿٤﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْحِ وَدُسِرَ ﴿٥﴾ نَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿٦﴾ ﴾ . انتهى فتح الرحمن في تفسير القرآن .

وفي تفسير ابن كثير لهاتين الآيتين : « يقول تعالى فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير يهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض وقوله ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرا وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته ، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن

(1) د. عبد المنعم أحمد تعيلب ، كتاب : فتح الرحمن في تفسير القرآن ، المجلد الثالث ، دار السلام للنشر والطباعة والتوزيع .

(2) هود : 117 .

(3) هود : 27 .

(4) الشعراء : 111 .

(5) الشعراء : 116 .

(6) القمر : 9 - 14 .

يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(١) . وفي الحديث : «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب» ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ وَأَتَّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ ﴾^(٣) أى استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فاجأهم العذاب : ﴿ وَكَانُوا أَجْرِمِينَ ﴾^(٤) .

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة لنفسها ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين كما قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾^(٥) . وقال : ﴿ وَمَا رَأَيْتُكَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾^(٦) . انتهى تفسير ابن كثير .

فالكفر والفساد والبغى وظلم الناس لبعضهم يؤدي إلى انهيار الأمم والحضارات .. والفساد يؤدي إلى الاختلال المادي والمعنوي للإنسان والحياة والأحياء .. والفساد يؤدي إلى انحلال وتفكك المجتمع والأمة والحضارة ، فهو عظيم الأثر على الحضارات وانهيارها .

والفساد في الأرض مثل : الزنا وقطع الطريق والكفر والقتل ونحوه توجب القصاص من مرتكب هذه الأفعال بالقتل .

(١) آل عمران : ١٠٤ .

(٢) هود : ١١٦ .

(٣) هود : ١١٦ .

(٤) هود : ١١٦ .

(٥) هود : ١٠١ .

(٦) فصلت : ٤٦ .

يقول تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَكُسْرُفُونَ ^(١) .

وجاء في تفسير الطبري :

ومعنى ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أى بغير أن يقتل نفساً فيستحق القتل .

﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى شرك وقيل : قطع طريق . وقرأ الحسن - أو فساداً بالنصب على تقدير حذف فعل يدل عليه أول الكلام تقديره أو أحدث فساداً ، والدليل عليه قوله : ﴿ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ لأنه من أعظم الفساد . وقرأ العامة - فساد بالجر على معنى أو بغير فساد .

ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة :

﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أى شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أى من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية فكأنما قتل الناس جميعاً ، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ، ومن أحياها أى حرم قتلها واعتقد ذلك ، فقد سلم الناس كلهم منه .

وفي تفسير الجلالين جاء ما نصه :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ﴾ الذى فعله قابيل ﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ ﴾ أى الشأن ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ قتلها ﴿ أَوْ ﴾ بغير ﴿ فَسَادٍ ﴾ أنه ﴿ فِي

﴿الْأَرْضِ﴾ من كفر أو زنا أو قطع طريق أو نحوه ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ بأن امتنع عن قتلها ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ . قال ابن عباس : من حيث انتهاك حرمتها وصونها ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ﴾ أى بنى إسرائيل ﴿رُسُلْنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ مجاوزون الحد بالكفر والقتل وغير ذلك .

رابعاً : صور من الفساد تهدد الحضارة العلمانية الغربية المعاصرة :

هناك صور من الفساد تهدد بانتهيار الحضارة العلمانية الغربية المعاصرة ، نختار منها صورتان : الأولى هى مشكلة الانحلال الاجتماعى وتفكك واختلال الأسرة ، مما أدى إلى الفسق والشذوذ والزواج المثل الذى نتج عنه أمراض خطيرة مثل : مرض نقص المناعة المكتسبة «الإيدز» ، واختلاط الأنساب .

الصورة الثانية من صور الفساد هى المتعلقة بالمشاكل التى تنتج عن الاستنساخ والهندسة الوراثية واللعب فى الخريطة الجينية للإنسان ، دون أن يكون هناك ضوابط صارمة لمنع وردع الخروج عن الصواب .

(أ) اختلال أدى إلى أمراض خطيرة واستنزاف الموارد الطبيعية :

يقول تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾⁽¹⁾ .

وفى تفسير الجلالين :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ﴾ القفار بقله المطر وقله النبات ﴿وَالْبَحْرِ﴾ البلاد التى على الأنهار بقله مائها ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ من المعاصى ﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾ بالياء والنون ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ عقوبته ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون .

وفي تفسير القرطبي وتفسير ابن كثير :

جاءت أنواع عديدة من الفساد المقصود في قوله تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ﴾ ،
والله سبحانه وتعالى أعلم وأجل وأكرم .

هناك أنواع من الفساد الذى ظهر نتيجة الانحلال الأخلاقى ، واختلال نظام
الأسرة فى المجتمعات الأوروبية العلمانية والمجتمعات العلمانية الأخرى ، مثل : مرض
نقص المناعة المكتسبة .

وقد حفظ الله المجتمعات الإسلامية من هذا المرض اللعين .

وهناك أمراض ناتجة عن الاندفاع فى محاولات النمو السريع دون احتياطات لما
ينتج عن ذلك من اختلال وفساد فى البيئة ، ومن استهلاك الموارد الطبيعية وخاصة
تلك المتعلقة بالطاقة مثلما حدث فى أوروبا وأمريكا واليابان ، ومثلما يحدث الآن فى
الصين والهند التى وصل زيادة معدل النمو السنوى فيها أكثر من 9 % ، ومن المعروف
أن عدد سكانها مجتمعين أكثر من 2 مليار نسمة (حوالى 2.2 مليار نسمة) فإذا وصل
دخل الفرد فيها مثل دخل الفرد فى اليابان - اليابان 123 مليون نسمة - فسوف تحتاج
الدولتان وحدهما إلى كل ما فى الكرة الأرضية من موارد طبيعية⁽¹⁾ .

ونحن نرى الآن أن النمو السريع أصبح ممكناً فى فترة وجيزة مستمرة ، وقد رأينا
بعض دول النمور الآسيوية تتعدى حواجز الفقر والتخلف بالنمو السريع فى فترة
وجيزة جداً ، ويمكن أن تبلغ الصين والهند ذلك فى مدة عقد واحد فيصل دخل الفرد
فيها كدخل الفرد فى اليابان .

ومع أن التقرير فيه نزعة سياسية احتكارية إلا أنه يشير إلى التهديد باستنزاف
الموارد الطبيعية فى العالم الذى تمارسه الدول الغربية العلمانية منذ أوائل القرن العشرين ،

(1) صحيفة الأهرام المصرية ، الملحق الاقتصادى ، عن دراسة مركز الأبحاث الأمريكى «وورلد
ووتش» ، 2006/1/22م.

والذى يهدد الحضارة العلمانية الغربية وينذر بزوالها إذا حدث ، كما أنه يؤثر على الحضارات الأخرى والبشر جميعاً .

(ب) اختلال يهدد الجنس البشرى بسبب ما قد ينتج عن الاستنساخ والهندسة الوراثية :

وما يحدث الآن في مجال الهندسة الوراثية والاستنساخ واللعب في الخريطة الجينية للإنسان والحيوان والنبات ، وما قد ينتج عنه من فساد عظيم قد يؤدي إلى تغييرات في الجنس البشرى لا يمكن السيطرة عليها . يقول عز وجل : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ۝ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝ وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْئِيْنَهُمْ فَلَيُبَيِّنَنَّ ءَاذَانَ آلِ تَعْمِرٍ وَلَا مَرْئِيْنَهُمْ فَلَيُبَيِّنَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝﴾ (١) .

وفي تفسير القرطبي :

﴿ وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْئِيْنَهُمْ فَلَيُبَيِّنَنَّ ءَاذَانَ آلِ تَعْمِرٍ وَلَا مَرْئِيْنَهُمْ فَلَيُبَيِّنَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝﴾ (٢) .

فيه تسع مسائل (٣) : الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ ﴾ أى لأصرفهم عن طريق الهدى ﴿ وَلَا مَنِيْنَهُمْ ﴾ أى لأسولن لهم من التمنى ... وقيل : لأمنينهم طول الحياة الخير والتوبة والمعرفة مع الإصرار ﴿ وَلَا مَرْئِيْنَهُمْ فَلَيُبَيِّنَنَّ ءَاذَانَ آلِ تَعْمِرٍ ﴾ البتة القطع ومنه سيف باتك أى أحمله على قطع أذان البحيرة والسائبة ونحوه ...

(١) النساء : ١١٧ - ١١٩ .

(٢) النساء : ١١٩ .

(٣) ستعرض لما جاء في تفسير القرطبي لمسألتي فقط .

الثانية : قوله تعالى : ﴿وَلَا تُرْسِبْهُمْ فَلَْيَغْيِرُونَ خَلْقَ﴾ الآلات كلها للقسم واختلف العلماء في هذا التغيير إلى ماذا يرجع ، فقالت طائفة : هو الخضاء وفقء العين وقطع الآذان ، قال معناه ابن عباس وأنس وعكرمة وأبو صالح ، وذلك كله تعذيب للحيوان ، وتحريم وتحليل بالطغيان وقول بغير حجة ولا برهان ، والآذان في الأنعام جمال ومنفعة ، وكذلك غيرها من الأعضاء ، فلذلك رأى الشيطان أن يغير بها خلق الله تعالى . وفي حديث عياض بن المجاشعي : «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإن الشياطين أتهم فاجتالهم عن دينهم فحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ، وأمرتهم أن يغيروا خلقى» الحديث أخرجه القاضي إسماعيل ومسلم أيضا . وروى إسماعيل قال : حدثنا أبو الوليد وسليمان بن حرب قالوا : حدثنا شعبة عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص عن أبيه قال : أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة ، قال : «هل لك من مال؟» قلت : نعم . قال : «من أى المال؟» قلت : من كل المال من الخيل والإبل والرقيق - قال أبو الوليد : والغنم - قال : «إذا أتاك الله مالا فلير عليك أثره» ثم قال : «هل تنتج إبل قومك صحاحا آذانها فتعتمد إلى موسى فتشق آذانها وتقول هذه بحر وتشق جلودها وتقول هذه صرم لتحرمها عليك وعلى أهلك؟» قال : قلت أجل . قال : «وكل ما أتاك الله حل وموسى الله أحد من موسى وساعد الله أشد من ساعدك» قال قلت : يا رسول الله أرأيت رجلا نزلت به فلم يقرنى ثم نزل بى فأقر به أم أكافته فقال : «بل أقره قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أى يطيعه ويدع أمر الله ﴿فَقَدْ خَسِرَ﴾ أى نقص نفسه وغبنها بأن أعطى الشيطان حق الله تعالى فيه وتركه من أجله»^(١) . انتهى تفسير القرطبي .

(١) تفسير القرطبي .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد قال : « قال الله عز وجل : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم »⁽¹⁾.

وفي الظلال لسيد قطب :

«إنهم يدعون الشيطان - عدوهم القديم - ويستوحونه ويستمدون منه هذا الضلال . ذلك الشيطان الذي لعنه الله ، والذي صرح بنيته في إضلال فريق من أبناء بني آدم وتمنياتهم بالأمنيات الكاذبة في طريق الغواية من لذة كاذبة وسعادة موهومة ونجاة من الجزاء في نهاية المطاف : كما صرح بنيته في أن يدفع بهم إلى أفعال قبيحة وشعائر سخيفة ، كتمزيق آذان بعض الأنعام ليصبح ركوبها بعد ذلك حراماً أو أكلها حراماً - دون أن يجرمها الله - ومن تغيير خلق الله وفطرته بقطع بعض أجزاء الجسد أو تغيير شكلها في الحيوان والإنسان ، كخصاء الرقيق ووشم الجلود وما إليها من التغيير والتشويه الذي حرمة الإسلام »⁽²⁾.

فأولياء الشيطان من العاملين في مجال الهندسة الوراثية والاستنساخ ، أو هؤلاء الذين يلعبون في الخريطة الوراثية بأبحاثهم في الغرف المغلقة - دون أن يعرف شيء عنهم - يمكن أن يحدثوا تغييرات ضارة تصيب الإنسان والحيوان والنبات ولا يمكن السيطرة عليها ، أو يحدثوا تغييراً يدمر حياة الإنسان ولكن لا تظهر آثاره إلا بعد سنوات طويلة بعد أن يكون التدمير قد أصاب أعداداً هائلة من البشر ، ولذلك فالأبحاث في هذا المجال يجب أن تخضع لقوانين ونظم وضوابط صارمة يتفق عليها عالمياً .

(1) تفسير ابن كثير .

(2) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، تفسير الآيات (117-119) من سورة النساء .

خامساً : تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية يجمع المجتمعات الإسلامية ويحفظ الحضارة الإسلامية :

الشريعة الإسلامية هي المنهاج العمل لحياة الفرد المسلم وحياة المجتمع المسلم .
وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فريضة على كل مسلم ومسلمة سواء كان حاكماً أو محكوماً .

وأحكام الشريعة الإسلامية ملزمة للمسلمين في كل زمان ومكان ، وكل مسلم يلزمه - سواء كان حاكماً أو محكوماً - أن يخضع لحكم الله ورسوله ، يقول تعالى :
﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

ويقول تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً ۖ وَإِنَّ أَظْلَمَ لِمَن بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ⁽²⁾ .
وفي تفسير القرطبي :

الشريعة في اللغة : المذهب والملة ، ويقال لمشرة الماء وهي مورد الشاربة : شريعة ، ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد ، فالشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين .
قال ابن العربي : والأمر يرد في اللغة بمعنيين : أحدهما بمعنى الشأن كقوله : ﴿ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ ⁽³⁾ . والثاني ، أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي ، وكلاهما يصح أن يكون مراداً هاهنا ، وتقديره : ثم جعلناك على طريقة من الدين وهي ملة الإسلام .

(1) النور : 51 .

(2) الجاثية : 18 ، 19 .

(3) هود : 97 .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى إن اتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئاً .

وفى تفسير الجلالين : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ طريقة ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أمر الدين ﴿فَاتَّبِعَهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فى عبادة غير الله .
﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا﴾ يدفعوا ﴿عَنْكَ مِنَ اللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْئًا﴾ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ الكافرين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلَىٰ الْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين .

وأحكام الشريعة الإسلامية وتطبيقها على الأفراد والمجتمعات والحكومات هى التى تميز الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم وتميز الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات ، وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية يحمى المجتمع الإسلامى من الفساد والبغى والطغيان والاستبداد ، ويحفظ الحضارة الإسلامية من تهديدات الحضارات الأخرى .

إن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية يوحد الأمة الإسلامية ثقافياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ...

ومنذ دخول الاستعمار البلاد الإسلامية ، فإن وحدة المفاهيم فى بعض المجالات - وخاصة فى المجال الثقافى - أصابها التمزق .

وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى البلاد الإسلامية المختلفة هو الذى يعيد وحدة الأمة الإسلامية ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً .

إن الخلط الثقافى الموجود فى كثير من البلاد الإسلامية لم يبدأ إلا بعد احتلال البلاد الإسلامية بواسطة الاستعمار الأوروبى .

ففى مصر وفى عصر محمد على - قبل الاحتلال البريطانى لمصر - كان العلماء والمفكرون الذين ينادون بالتقدم والنهضة .. كانوا على وعى كامل بما يجب نقله عن

الحضارة الغربية - مما هو مشترك عام بين الحضارات - وما ينبغي تركه ، يقول رفاعة رافع الطهطاوى - العالم الأزهرى الذى أرسله محمد على مشرقاً على البعثة الدراسية التى أرسلها إلى فرنسا سنة 1826م (1242هـ) : «علينا أن نأخذ من أوروبا المعارف البشرية المدنية والعلوم الحكمية العلمية . أما روح حضارتهم وفلسفاتهم فإنها مليئة بالحشوات الضلالية المخالفة لسائر الكتب السماوية»⁽¹⁾ .

(1) د. محمد الجوهري حمد الجوهري ، النظام السياسى الإسلامى والفكر الليبرالى ، دار الفكر العربى ، 1993م ، ص 68 .

خلاصة

نستخلص من هذا الفصل النتائج التالية :

أولاً: الشرك والكفر والفساد والبغى والطفيان من عوامل انهيار المجتمعات والأمم والحضارات ، وقد جاء ذلك في العديد من آيات القرآن الكريم .

ويرجع ذلك إلى أنه إذا لم يكن هناك رادع أو مانع لاستمرار الشرك والكفر والفساد والبغى والطفيان ، فإنه قد يحدث اختلال عظيم في الأرض أو المخلوقات بما فيها الإنسان نفسه .

فالفساد الذى يسبب اختلال في البيئة مثلاً قد يجعل الأرض غير صالحة للحياة أو يفرق أجزاء شاسعة من الأرض - بما عليها من حياة وأحياء ، بسبب ارتفاع حرارة الأرض الذى قد ينتج عن الاحتباس الحرارى أو ثقب الأوزون ، وتلوث التربة أو الماء أو الهواء ، بسبب الفساد الذى يمارسه البعض دون رادع من دين أو ضمير ، وما يسببه ذلك من أضرار وخيمة .

والفساد الذى يؤدي إلى اللعب في الخريطة الجينية للإنسان والحيوان والنبات ، دون رادع أو ضوابط صارمة تمنع المنحرفين الذين يعثون بالخريطة الجينية ، أو أى مجال من مجالات الهندسة الوراثية .

والفساد الذى قد يسبب استنزاف الموارد الطبيعية المحدودة على سطح الأرض بصورة عشوائية دون ضوابط محددة .

كل ذلك قد يؤدي إلى انهيار المجتمعات والحضارات ويهدد بأضرار جسيمة تصيب الحياة والأحياء على سطح الأرض .

ثانيًا : هناك حضارات هلكت مثل حضارة عاد وثمود وفرعون نتيجة لفساد أهلها وكفرهم وبغيهم وطغيانهم ، وقد اكتشفت الآثار الدالة على حضارة عاد وثمود .

وكانت عاد من المكذبين بنبيهم هود وبالرسل أجمعين وكانوا طغاة جبارين ، يشيدون المساكن الضخمة على الهضاب بينونها للخلود ، وقد زين لهم الشيطان أعمالهم فكفروا بها جاءهم من الحق ، وكانوا يبنون مصانع للصناعات والحرف إذ كانوا على فهم ودراية ، أو يبنون منازل للسكن أو يبنون دورا للهو والعبث .

وقد دعاهم نبيهم هود إلى عبادة الله الواحد الذي لا إله إلا هو وذكرهم بنعم الله عليهم إذ زادهم بسطة في الخلق وبسطة في العيش ، فكذبوه واتهموه بالسفاهة وظلوا متمسكين بكفرهم فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية أهلكتهم وأهلكت حضارتهم ، ولم يبق إلا الآثار الدالة عليها نتيجة كفرهم وطغيانهم وفسادهم .

وأما ثمود فقد كفروا وكذبوا جميع المرسلين وكانوا جابرة طغاة ينحتون بيوتهم في الصخور ويعيشون في الأرض فسادا ، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم نبيه صالح ومعه الناقة آية لهم ودعاهم إلى التوحيد فكذبوه وعقروا الناقة فدمرهم الله سبحانه وتعالى نتيجة لفسادهم وكفرهم وجبروتهم وتكبرهم فهلكوا وهلكت حضارتهم ، ولم يبق إلا الآثار الدالة عليها .

وهناك حضارات أخرى هلكت نتيجة لكفر أهلها وفسادهم وطغيانهم وبغيهم ولكن لم تكتشف الآثار الخاصة بهم بعد ، وكل عدة سنوات تكتشف آثار هذه الحضارات .

ثالثًا : يقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾⁽¹⁾ . إن الله سبحانه وتعالى البر الرحيم لا يهلك الحضارات بكفر أهلها

(1) هود : 117 .

إذا أصلحوا ، ولم يعملوا على الإفساد في الأرض ، ولم يعملوا على بغى بعضهم على بعض ، ولم يعملوا الخبائث والفساد والفجور والطغيان .

والفساد والبغى والطغيان والفجور والفسق من أخطر الأمور على الأمم والحضارات ، ولذلك جاءت أحكام الشريعة الإسلامية الخاصة بالحدود رادعة لئلا يمنع الفساد والبغى والطغيان ، فقتل القاتل وقاطع الطريق الذي يعنبدى على أرواح الناس ويثير الفتنة والفساد في الأرض يحمى المجتمعات من الفساد ويحفظ حياة الناس وأموالهم وأعراضهم ، وعقوبة الزانى وشارب الخمر تمنع انتشار الفساد وتحمى المجتمع من الفاسدين الفاسقين .



الفصل الثاني

السنن الإلهية والحفاظ على الحضارات

لقد جاءت آيات قرآنية عديدة تبين سنن الله التي نراها في الكون من حولنا مثل سنّة التدافع وسنّة التكامل وسنّة التوازن وسنّة التعارف وسنّة التعاون ، وفهمنا لهذه السنن الإلهية فهماً صحيحاً كما جاءت في القرآن الكريم له قيمة كبيرة في الحفاظ على حضارتنا الإسلامية ، والحفاظ على خصوصيتها الإسلامية وحماية من التأثير السلبي للحضارات الأخرى .

ويقول الدكتور على جمعة مفتى الجمهورية في جريدة الأهرام⁽¹⁾ : « القرآن الكريم تكلم عن السنن الإلهية وبينها ، وهي تعد البيئة الخارجية للنشاط البشري وهي التي تتحكم في المسلم عند نشاطه واختباراته ووضع برامج وأهدافه .

وإذا لم يدرك المسلم السنن الإلهية ويستوعبها بعقله ، فإنه يتخبط ويفقد المعيار السليم للقرار السليم ، ويضع استراتيجيات أخرى غير التي أمر الله بها ، والسنن الإلهية تزيد عن خمسين سنّة » .

(1) د . على جمعة ، (مفتى الجمهورية) ، مقال في جريدة الأهرام المصرية ، بعنوان : « النموذج المعرفي الإسلامي وتجديد الخطاب الديني » المقال الثاني من ثلاثة مقالات 24 / 4 / 2004 م .

يقول تعالى عن سُنَّةِ التعارف : ﴿ يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾ .

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ ﴾ فالكریم حقاً هو الکریم عند الله ، وهو یرزکم بعلم وخبرة بالقیم والموازن ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

وهكذا تسقط جميع القيم وجميع الفوارق ويبقى ميزان واحد وإليه يتحاكم البشر .
وهكذا تتوازي جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس ويظهر سبب ضخم للألفة والتعاون ، ألوهية الله للجميع وخلقهم من أصل واحد ، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته لواء التقوى في ظل الله وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لإنفاذ البشرية ، وهذا هو أساس المجتمع الإسلامي . فالمجتمع الإسلامي مجتمع إنساني عالمي .

ويقول سيد قطب في تفسير هذه الآية الكريمة :

« يا أيها الناس يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً المتفرون شعوباً وقبائل ، إنكم من أصل واحد فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بدذا .

يا أيها الناس ، والذي يناديكم بهذا النداء هو الذي خلقكم من ذكر وأنثى ، وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل ، إنها ليس للتناحر والخصام ، إنما هي للتعارف والوفاء » .

أما اختلاف الألسنة والألوان والمواهب فتتبع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات .

وعن سنة التوازن يقول تعالى : وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١﴾ . ويقول تعالى : وَأَقِيمُوا الزُّنُوبَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٢﴾ . ويقول تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ ﴿٣﴾ .

وفي هذا المجال سوف نتناول سنة التدافع بالتفصيل .

(أ) التدافع يحافظ على الحضارات :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ ۚ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤﴾ .

ويقول تعالى : ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ يَغْيِرُ حَتَّىٰ إِذَا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥﴾ .

وعن معنى هاتين الآيتين الكريمتين نورد تفسير ابن كثير والجلالين والدكتور على جمعة مفتي الجمهورية وسيد قطب في الظلال والشيخ محمد متولى الشعراوى فى خواطره عن هاتين الآيتين .

(١) الحجر : ١٩ .

(٢) الرحمن : ٩ .

(٣) الحديد : ٢٥ .

(٤) البقرة : ٢٥١ .

(٥) الحج : ٤٠ .

وجاء في تفسير الجلالين لآية سورة البقرة :

« ﴿ فَهَزَمُوهُمْ ﴾ كسروهم ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ ﴾ وكان في عسكر طالوت ﴿ جَالُوتَ وَءَاتَتْهُ ﴾ أى داود ﴿ اللَّهُ الْمَلِكُ ﴾ فى بنى إسرائيل ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ النبوة بعد موت شمويل وطالوت ولم يجتمعا لأحد قبله ﴿ وَعَلَّمَهُ ﴾ مِمَّا يَشَاءُ ﴿ كَصْنَعَةِ الدُّرُوعِ وَمَنْطِقِ الطَّيْرِ ﴾ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِدَلِّ بَعْضٍ مِنَ النَّاسِ ﴿ بَبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ بغلبة المشركين وقتل المسلمين وتخريب المساجد ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ فدفع بعضهم ببعض . انتهى تفسير الجلالين .

وفى تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِمْ بَغْيَ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَصَلَّوْا وَمَسَجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اِسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ^(١) .

يقول ابن كثير فى تفسيره لها :

﴿ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِمْ بَغْيَ حَقٍّ ﴾ قال العوفي عن ابن عباس : أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعنى محمدا وأصحابه ﴿ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ أى ما كان لهم إلى قومهم إساءة ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما فى نفس الأمر ، وأما عند المشركين فإنه أكبر الذنوب كما قال تعالى : ﴿ نَخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ (المتحنة : ١) ، وقال تعالى فى قصة أصحاب الأخدود : ﴿ تَقَمَّوْا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (البروج : ٨) . ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون فى بناء الخندق ويقولون :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فأنزلن سكينتنا علينا وثبت الأقدام إن لاقينا إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا يوافقهم رسول الله ﷺ ويقول معهم آخر كل قافية فإذا قالوا: إذا أرادوا فتنة أبينا، يقول: «أبينا» يمد بها صوته ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَآ أَهْلَكَ الْقَوَى الضَّعِيفُ﴾ هُذِمَتْ صَوَامِعُ وهى المعابد الصغار للرهبان قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم، وقال قتادة: هى معابد الصابئين، وفى رواية عنه صوامع المجوس، وقال مقاتل بن حيان: هى البيوت التى على الطرق ﴿وَبَيْعٌ﴾ وهى أوسع منها وأكثر عابدين فيها وهى، للنصارى أيضا، قاله أبو العالية و قتادة والضحاك وابن صخر ومقاتل بن حيان وخصيف وغيرهم، وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره أنها كنائس اليهود، وحكى السدى عن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس اليهود ومجاهد إنها قال: هى الكنائس والله أعلم وقوله: ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ قال العوفى عن ابن عباس: الصلوات الكنائس، وكذا قال عكرمة والضحاك و قتادة: إنها كنائس اليهود وهم يسمونها صلوات، وحكى السدى عن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس النصارى وقال أبو العالية وغيره: الصلوات معابد الصابئين، وقال ابن أبى نجيع عن مجاهد الصلوات مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق وأما المساجد فهى للمسلمين، وقوله: ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، فقد قيل الضمير فى قوله يذكر فيها عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات، وقال الضحاك الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا، وقال ابن جرير: الصواب هُذِمَتْ صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود وهى كنائسهم ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيرا لأن هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب، وقال بعض العلماء: هذا ترقى من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد وهى أكثر عمارا وأكثر عبادا

وهم ذوو القصد الصحيح وقوله : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ءَاضُلٌ أَعْمَلْتُمْ ﴾ (٨) وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا ، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب ، بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه ، ومن كان القوى العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الۡمُرْسَلِينَ ﴾ (٩) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٠) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١١) (الصافات : ١٧١ - ١٧٣) . وقال تعالى : ﴿ كَتَبَ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ . انتهى تفسير ابن كثير .

وجاء في الجلالين عنها :

« هم ﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿ في الإخراج ما أخرجوا ﴾ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا ﴿ أَيُّ بَقُولِهِمْ ﴾ رَبُّنَا اللَّهُ ﴿ وحده وهذا القول حق فالإخراج به إخراج بغير حق ﴾ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴿ بدل بعض من الناس ﴾ يَبْغِضُ هَٰذِهِمُ ﴿ بالتشديد للتكثير وبالتخفيف ﴾ صَوَامِعُ ﴿ للرهبان ﴾ وَبَيْعٌ ﴿ كنائس للنصارى ﴾ وَصَلَوَاتٌ ﴿ كنائس لليهود بالعبرانية ﴾ وَمَسْجِدٌ ﴿ للمسلمين ﴾ يُذَكَّرُ فِيهَا ﴿ أى المواضع المذكورة ﴾ أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿ وتنقطع العبادات بخرابها ﴾ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴿ أى ينصر دينه ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ ﴿ على خلقه ﴾ عَزِيزٌ ﴿ منيع فى سلطانه وقدرته ﴾ . انتهى تفسير الجلالين . ويقول الدكتور على جمعة مفتى الجمهورية تحت عنوان سُنة التدافع^(١) .

(١) د . على جمعة (مفتى الجمهورية) ، مقال فى جريدة الأهرام المصرية ، بعنوان : سُنة التدافع 2004 / 4 / 24 .

« هي سُنة مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَئِكَنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ⁽¹⁾ . وهذا التعبير القرآني يبين حقيقة علو القرآن على التفاسير التي خطها البشر فهو لم يحصر هذا في القتال أو النزاع والخصام كما ورد في التفاسير ، عبر بالتدافع ليشمل كل أنواع التعامل والاختلاف بل والصراع والصدام للوصول بكل وسيلة إلى الاستقرار وتحقيق مراد الله من خلقه عبادة وعبارة وتركية فالتدافع سُنة إلهية تبين أن الإنسان قد خلقه الله سبحانه وتعالى اجتماعياً يحتاج إلى الآخرين وهم يحتاجون إليه ، فلم يخلقه منعزلاً قادراً على البقاء وحده حتى يحقق مراد الله من خلقه ، بل لابد أن يعمل في فريق ليصل إلى هدفه ، وعمله في الفريق وحراكه الاجتماعي ونشاطه الذاتي يحتاج إلى إدراك سُنة التدافع ، وإدراك هذه السنة يتولد منها قوانين كثيرة لضبط هذا النشاط وهو ما يكون الإنسان العصري قد افتقده حيث سبق النشاط الفكر ، وكان ينبغي أن يسبق الفكر النشاط ، ويسبق حديث القلب أيضاً الفكر ، ولهذا موضع آخر يشرح الفرق بين الأمرين » ، انتهى كلام الدكتور على جمعة .

وفي الظلال في تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا زَيْنًا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَئِكَنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ⁽²⁾ .

« ... وذلك فوق أنهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير الحق : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا زَيْنًا اللَّهُ ﴾ ، وهي أصدق كلمة أن تقال وأحق كلمة أن تقال ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم فهو البغي

(1) البقرة : 251 .

(2) الحج : 40 .

المطلق الذى لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين وهو التجرد من كل هدف شخصى من ناحية المعتدى عليهم ، إنما هى العقيدة وحدها من أجلها يخرجون ، لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض التى تنتحر فيها الأطماع ، وتتعارض فيها المصالح وتختلف فيها الاتجاهات ، وتتضارب فيها المنافع ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة ..حاجة العقيدة إلى الدفع عنها : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هَدَمْتَ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۚ ۞ . والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للربان والبيع للنصارى عامة ، وهى أوسع من الصوامع ، والصلوات أماكن العبادة لليهود والمساجد أماكن العبادة للمسلمين وهى كلها معرضة للهدم - على قداستها وتخصصها لعبادة الله - لا يشفع لها فى نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها ولا بحميتها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، أى دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين يتهكون حرمتها ويعتدون على أهلها ، فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التى يصول بها ويجول ، ولا يكفى الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لابد من القوة تحميه وتدفع عنه ، وهى قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان ۞ . انتهى تفسير سيد قطب فى الظلال .

يقول الشيخ محمد متولى الشعراوى فى خواطره عن الآية الكريمة : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۚ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۚ ۞ ^(١) .

إن الحق يأتى هنا بقضية كونية فى الوجود وهى أن الحرب ضرورة اجتماعية وأن الحق يدفع الناس بالناس ، وأنه لولا وجود قوة أمام قوة لفسد العالم ، فلو

(١) البقرة : 251 .

سيطرت قوة واحدة في الكون لفسد . فالذى يعمر الكون هو أن توجد فيه قوى متكافئة .. قوة تقايلها قوة أخرى ، ولذلك نجد العالم دائما محروسا بالقوتين العظميين ، ولو كانت قوة واحدة لعم الضلال ، ولو تأملنا التاريخ منذ القدم لوجدنا هذه الثنائية في القوى تحفظ الاستقرار في العالم .

في بداية الإسلام كانت الدولتان العظيمتان هما الفرس في الشرق والروم في الغرب ، والآن سقطت قوة روسيا من كافة ميزان العالم ، وتتسابق ألمانيا واليابان ليوازننا قوة أمريكا .

« ... إن قول الله تعالى: وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » جاء تعقيبا على قصة الصراع بين بنى إسرائيل وبين أعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم ، وعندما نتأمل هذه القصة من بداياتها نجد أنهم طلبوا أولا من الله الإذن بالقتال وبعث الله لهم ملكا ليقاتلوا تحت رايته ، وكانت علامة هذا الملك في الصدق أن يأتي الله بالتأبوت . ثم جاءت قضية اجتماعية ينتهي إليها الناس عادة بحكيم الرأي ولو بدون الوحي ، وهى أن الإنسان إذا ما أقبل على أمر يجب أن يعد له إعدادا بالأسباب البشرية حتى إذا ما استوفى إعداداه كل الأسباب لجأ إلى معونة الله ، لأن الأسباب - كما قلنا - هى من يد الله فلا ترد أنت يد الله بأسبابها لتطلب معونة الله بذاته ، بل خذ الأسباب أولا لأنها من يد ربك ، ويعلمنا الحق أيضا أن من الأسباب تمحيص الذين يدافعون عن الحق تمحيصا يبين لنا قوة ثباتهم في الاختبار الإيماني ، لأن الإنسان قد يقول قولاً بلسانه ولكنه حين يتعرض للفعل تحدته نفسه بالأيوبي ، وقد نجح قلة من القوم في الابتلاءات المتعددة ، وفعلت دارت المعركة وهزم هؤلاء المؤمنون أعداءهم وانتصر داود بقتل جالوت .

إذا فتلك قضية دفع الله فيها أناسا بأناس ، ويطلقها الحق سبحانه قضية عامة ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ فالدفع هو

الرد عن المراد ، فإذا كان المراد للناس أن يوجد شر فإن الله يدفعه . إذاً فالله يدفع ولكن بأيدي خلقه ، كما قال سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتُخْزِرُهُمْ وَيُصْغِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (1) .

إنه دفع الله المؤمنين ليقاتلوا الكافرين ويعذب الحق الكافرين بأيدي المؤمنين وعندما تتأمل القول الحكيم : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ فإننا نجد مقدمة سابقة تمهد لهذا القول ، لقد أخرجوا من ديارهم وأبنائهم فكان هذا مبرر القتال ، ونجد آية أخرى تقول : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ يَقْتَرِحْ إِلَى آتٍ يَقُولُوا نَبَأَ اللَّهِ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ (2) .

والسياق يختلف في الآيتين ، السياق الذي يأتي في سورة البقرة عن أناس يحاربون بالفعل والسياق الذي يأتي في سورة الحج عن أناس مؤمنين برسول الله ﷺ خرجوا وهم المستضعفون من مكة لينضموا إلى إخوانهم المؤمنين في دار الإيمان ليعيدوا الكرة ويدخلوا مكة فاتحين .

صحيح أننا نجد وحدة جامعة بين الآيتين وهو الخروج من الديار . إذاً فمرة يكون الدفاع بأن تفر لتكر ، أى تخرج من ديار الكفر مهاجراً لتجمع أمر نفسك أنت ومن معك وتعود إلى بلدك مقاتلاً فاتحاً ، ومرة يكون الدفاع بأن تقاتل بالفعل ، فالآية التى نحن بصدد خواطرنّا عنها هنا تفيد بأنهم قاتلوا بالفعل ، والآية الثانية تفيد بأنهم خرجوا من مكة ليرجعوا إليها فاتحين ، فالخروج نفسه نوع من الدفع . لماذا ؟ لأن المسلمين الأوائل لو مكثوا في مكة فربما أفناهم خصومهم فلا يبقى للإسلام خيرة ،

(1) التوبة : 14 .

(2) الحج : 40 .

فذهبوا للمدينة وكونوا الدولة الإسلامية ثم عادوا متتصرين فاتحين : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (١) .

إن السياق في الآيتين واحد ولكن النتيجة تختلف ، هنا يقول الحق : ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ . لماذا تفسد ؟ لأن معنى دفع الناس بعضهم ببعض أن هناك أناسا ألقوا الفساد ويقابلهم أناس خرجوا على من ألق الفساد ليردوهم إلى الصلاح ، ويعطينا الحق سبحانه وتعالى في الآية الثانية السبب فيقول : ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هُدًى مِّنْ صَوَامِعَ وَبَيْعٍ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ من الآية 40 من سورة الحج والصوامع هي ما يقابل الآن الدير للنصارى وكانوا يتعبدون الله فيه ، لأن فيه متعبداً عمل بالتكليف العام ومتعبداً آخر قد ألزم نفسه بشيء فوق ما كلفه الله به ، فالذين يعبدون الله بهذه الطريقة يجلسون في أماكن بعيدة عن الناس يسمونها الصوامع وهى تشبه الدير الآن ، والمعنى العام في التعبد للنصارى هو التعبد في الكنائس وهو المقصود بالبيع ، والمعنى الخاص هو التعبد في الصوامع .

إذا هدمت صوامع هذا الخاصة المتدينين ، وكنائس أو بيع لعامة المتدينين ، وقول الحق : ﴿ وَصَلَوَاتٍ ﴾ من صلوات ، وهى مكان العبادة لليهود ، ﴿ وَمَسَاجِدُ ﴾ ، وهى مساجد المسلمين .

إن قوله تعالى : ﴿ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ في هذه الآية وقوله تعالى هنا : ﴿ هُدًى مِّنْ صَوَامِعَ وَبَيْعٍ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ ﴾ أى أنه ستفسد الأرض إذا لم تقم الصوامع والبيع والصلوات والمساجد ، لأنها هى التى تربط المخلوق بالخالق ، وما دامت تلك الأماكن هى التى تربط المخلوق بالخالق فإن هدمت : يكون الناس على غير ذكر من ربهم وتفتت أسباب الدنيا .

فالأديرة والكنائس والصوامع - حين كانت - والمساجد الآن هي حارسة القيم في الوجود ، لأنها تذكرك دائماً بالعبودية وتمنع عنك الغرور

ولماذا يدفع الله الناس بعضهم ببعض ؟ لأن هناك أناساً يريدون الشر وأناساً يريدون الخير فمن يريد الشر يدفع من يريد الخير ، وإذا وقعت المعركة بهذا الوصف فإن يد الله لا تتخلى عن الجانب المؤمن الباحث عن الخير ، فهو سبحانه القائل : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ^(١) . انتهى تفسير الشيخ محمد متولى الشعراوى .

(ب) عدم الأخذ بسنة التدافع يعرض الحضارة للضعف والانحيار :

يقول فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى : « الدفع هو الرد عن المراد ، فإذا كان المراد للناس أن يوجد شر فإن الله يدفعه ، إذا فاته يدفع ولكن بأيدي خلقه ، كما قال سبحانه : ﴿ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) . »

وفي الحرب العالمية الثانية بعد أن حطمت اليابان الأسطول الأمريكى فى ميناء بيرل هاربور قامت الولايات المتحدة الأمريكية بضرب هيروشيما ونجازاكي بالقنابل الذرية - التى لم تكن أى دولة فى العالم قد توصلت إلى صنعائها فى ذلك الوقت غير أمريكا - وقتل نتيجة لذلك مئات الآلاف من اليابانيين سواء بالتدمير المباشر أو نتيجة للإشعاع ، وهلكت الزراعة والمزروعات والنباتات والحيوانات وتلوثت النباتات والبيئة من ماء وتربة وهواء بالمواد المشعة فى هاتين المقاطعتين اليابانيتين وفسدت الحياة فيها ، وظل هذا الفساد الذى شمل الحرث والنسل عشرات

(١) الخ ح : 40 .

(٢) التوبة : 14 .

السنوات حتى خف تدريجيا بعد زوال أثر الإشعاع ، وإن كان بعض الأفراد الذين طاهم الإشعاع قد مات متأخرا بعد إصابتهم بالسرطانات المختلفة نتيجة للإشعاع الذرى .

و كان ومازال يمكن أن يتكرر ذلك لو لم يكن هناك رادع بنفس القوة بردع أمريكا.

بعد فترة وجيزة من هروشيا ونجازاكي استطاعت روسيا أن تتوصل إلى صناعة قنبلتها النووية ، وأصبح هناك ما يعرف بالردع النووى أى توازن القوى العسكرية نتيجة للسلاح النووى .

وأصبحت الدول التى تهدد استراتيجيا - أو تشعر بضعفها أمام الدول الأخرى - أثناء الحروب تلجأ إلى الردع النووى لتوقف غطوسة الدول الأخرى مثلما حدث بين باكستان والهند فى الآونة الأخيرة ، ومثلما حدث من تهديدات كوريا الشمالية باستخدام السلاح النووى ضد أمريكا إذا ما قررت أمريكا الاعتداء عليها - بعد اعتبارها من دول محور الشر التى أذرتها أمريكا - فتغير موقف أمريكا نتيجة لذلك ، وتحول التهديد بالقوة إلى مفاوضات سياسية بين كوريا الشمالية وأمريكا ووسطاء من الصين واليابان بينهما .

وقد رأينا فى العقود الأخيرة مدى الغطوسة الإسرائيلية ضد الفلسطينيين والدول العربية ، نتيجة لامتلاك إسرائيل للسلاح النووى وعدم امتلاك العرب لهذا السلاح الاستراتيجى الخطير .

إن امتلاك العرب للسلاح النووى يحدث الردع للأعداء ويوقف إفسادهم فى المنطقة العربية .

وإذا تأملنا السيرة النبوية نجد أنه بعد نزول الأمر الإلهي بالجهار بالدعوة ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾⁽¹⁾، وقيام الرسول ﷺ بالجهار بالدعوة قامت قريش بإعلان الحرب الشعواء المسعورة على النبي ﷺ والقتلة المؤمنة معه وساموهم العذاب والاضطهاد والتجويج ، ولما اشتد إيذاء قريش للمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة .

فاستمرت الحرب التي أعلنتها قريش على الإسلام والمسلمين حتى أبلغتهم إلى شعب أبي طالب ، وكان الصبر والثبات والاحتساب والتمحيص هو ما كان عليه المسلمون ، لأنه لم ينزل الأمر الإلهي على رسول الله ﷺ بقتال المشركين في ذلك الوقت حيث كان المسلمون قلة مستضعفة ، وبعد الهجرة إلى المدينة نزل الرسول ﷺ بقباء وأسس مسجد قباء وهو أول مسجد أسس على التقوى منذ بعثة النبي ﷺ وأرسل الرسول ﷺ إلى أخواله بنى النجار فجاؤوا متقلدين سيوفهم .

وعند وصول النبي ﷺ إلى المدينة ارتجت شوارعها ودورها بالتسييح والتحميد والفرح والأناشيد بقدومه ﷺ ، وكان ﷺ لا يمر بدار من دور الأنصار إلا خرجوا متقلدين أسلحتهم ليأخذوا بخطام ناقته : هلموا إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة ، متمنين أن ينزل الرسول دارهم ، كان خروج الأنصار بأسلحتهم نوع من ردع كفار مكة الذين أرادوا قتله ، وكان طبعيا أن يتخذ الأنصار هذا الموقف البطولي في حماية الرسول ﷺ والمهاجرين لمنع أذى الكافرين من قريش الذين كانوا قد رصدوا الجوائز والأموال لمن يدهم على طريقه أو لمن يقتله ، بعد أن فشل تأمرهم على قتله حين خروجه وأبى بكر من مكة .

وطوال عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين وطوال العصور الإسلامية المختلفة ، كانت هناك حروب لرد المعتدين وردعهم وللدفاع عن الدين ، وعن

(1) الشعراء : 214 .

النفس وعن الأعراض وعن البلاد الإسلامية من اعتداء الذين يريدون بالإسلام والمسلمين شرًا .

وفي القرنين الأخيرين أصاب المسلمون الضعف والانحطاط والوهن بابتعادهم عن دينهم وعدم الأخذ بأسباب القوة التى حثهم عليها دينهم يقول تعالى : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلُمُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

ولعدم الأخذ بسنن الله جل شأنه ومنها سُنَّةُ التدافع ، استطاع الاستعمار الغربى أن يحتل كل البلاد الإسلامية تقريبًا ، وأن يعيث فيها فسادا ويحدث التغريب والغزو الفكرى ليعير المفاهيم الإسلامية فى بعض المجالات ، وخاصة المجال الثقافى ويؤثر بذلك على قلة من المسلمين الذى يرون أن النهوض والتقدم لا يمكن أن يقوم إلا عبر مفاهيم الثقافة والحضارة الغربية العلمانية ، ولما فشلت تلك الموجة من الاستعمار والتغريب - كما فشلت سابقتها الحروب الصليبية - ها هو الاستعمار الأمريكى يجرى زاحفا لاحتل أفغانستان والعراق ويعلن مشروعه الشرق الأوسط الكبير قاصدا أن يغير بنية المجتمعات الإسلامية ، وذلك بتدخله المباشر فى التعليم وفى عملية تدريب المعلمين وتغيير المناهج بادعاء تطويرها ⁽²⁾ ، وتدخله فى المجالات الإعلامية والثقافية والسياسية ...

(1) الأنفال : 60 .

(2) د . محمد الجوهري حد الجوهري ، الديمقراطية الأمريكية والشرق الأوسط الكبير ، دار الأمين القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2004م .

(ج) التنافس والسبق يحمي الحضارات :

وحتى تتحقق سُنَّةُ التدافع يجب الأخذ بالتنافس والسبق وإحراز النجاح في شتى المجالات ، وليس المجالات العسكرية فقط .
كما أن النجاح في العمل العسكرى وتحقيق النصر يستلزم مقدرة اقتصادية وعلمية وتقنية وما شابهها .

والتنافس والسبق وإحراز النجاح في المجالات المختلفة يحقق التقدم للفرد والمجتمع ، ويعزز تفوق الأمة والانتصار على الأعداء ، كما أنه يحمي المجتمع من الانحلال والتفسخ ويحافظ على الحضارة من غزو الحضارات الأخرى ويحافظ عليها من السقوط والانهيار والتنافس والسبق ، يشمل الجوانب : العسكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية ، ويشمل : التعليم والتقنية والصناعة والعلوم .

وفي العقود الأخيرة رأينا دول النمر الآسيوية تتقدم بصورة مذهلة في المجالات الاقتصادية وغيرها من المجالات في مدة وجيزة جداً ، وتحقق السبق على مثيلاتها من الدول النامية الأخرى .

إن السبر في هذا التقدم السريع لدول النمر الآسيوية يرجع إلى التنافس الشرس في المجال الاقتصادي ، والتنافس في تجويد الصناعة ورخص الأسعار ، والتنافس في التسويق والتصدير وفتح أسواق جديدة للتصدير وتشجيع الاستثمار المحلي والأجنبي ، وفتح المجالات المختلفة للاستثمار الأجنبي المباشر ، وتشجيع الادخار المحلي .. كل ذلك أدى إلى نسبة نمو عالية حتى بلغت نسبة النمو في الصين 13٪ سنوياً في بعض السنوات ، والمهم أن هذه الدول - دول جنوب وشرق آسيا ويطلق عليها النمر الآسيوية - حافظت على هذه النسبة من النمو المرتفع لمدة عقد أو أكثر ، مما جعلها تقفز سريعاً جداً وتتفوق وتنافس الدول الأوروبية والأمريكية في مجالات كثيرة .

الباب الرابع - الفصل الثاني

وتحقيق النمو السريع المرتفع يستلزم تحقيق نسبة ادخار محلى عالية وتحقيق نسبة استثمار أجنبى مباشر مرتفعة والاستمرار على ذلك ، ويمكن أن يتحسن الاقتصاد ويشعر المواطنون بالتحسن فى مدة سنتين أو ثلاثة إذا كانت نسبة النمو 9٪ سنوياً مثلاً .

ومن الملاحظ أنه عندما حدثت الأزمة الاقتصادية سنة 1998م فى دول جنوب شرق آسيا اعتقد البعض أن الانهيار الاقتصادى فى هذه الدول سوف يستمر ، وأن ما حقته من تقدم اقتصادى فى عشر سنوات سوف يتبخر فى لحظة ، ولكن كانت المفاجأة أن هذه الدول نهضت ثانية فى مدة وجيزة لقد كانت نسبة النمو السنوى للاقتصاد فى ماليزيا قبل أزمة 1998 ، نحو 9 ٪ تقريباً فلما حدثت الأزمة أصبحت نسبة النمو صفر ، وبعد عامين من الأزمة عادت نسبة النمو 9٪ كما كانت .

أرجع البعض السبب فى هذه القوة الاقتصادية إلى أن هذه الدول وظفت تقنية المعلومات والاتصالات بصفة أساسية فى اقتصادها - وفى المجالات الأخرى - فأصبحت القوة فى المعلومات نفسها وليس فى الأدوات الأخرى .

فالتنافس والسبق والإصرار على تحقيق الأهداف من أسباب التقدم فى المجال الاقتصادى والمجالات الأخرى .

(د) التدافع يعنى الأرض من الفساد .. والتدافع ليس بين الناس وبين المخلوقات الأخرى :

الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ فى الآيتين الكريمتين ولم يذكر المخلوقات الأخرى ، فليس هناك فى الإسلام صراع بين الإنسان وبين المخلوقات الأخرى فى الكون فالذى يفسد الأرض هم الناس وليس المخلوقات الأخرى ، إن أصل الخلق عند المسلم هو التكامل وليس الصراع ، والتكامل من سنن الله الكونية والتكامل موجود بين مخلوقات الله فى الكون ، والمسلم

يشعر بأن التكامل هو الصبغة التي تصبغ تعامله مع مخلوقات الله ، فالتكامل يشمل الثنائيات مثل الليل والنهار والذكر والأنثى ويشمل غير ذلك من مخلوقات الله .

فليس هناك صراع بين الإنسان والمخلوقات الأخرى ، والذي يفسد الأرض هم الناس وليس المخلوقات الأخرى . فالتدافع يحمى الأرض من الفساد الذي يحدثه الأشرار من الناس - مخلوقات الله الأخرى لا تحدث فسادا في الأرض - فالأرض خلقها الله سبحانه وتعالى صالحة تماما لحياة الإنسان والمخلوقات الأخرى ولكن الإنسان هو الذي يفسدها بغروره وجهله وابتعاده عن منهج الله ، يقول تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوَزَّنٍ ۝ ⁽¹⁾ ۚ

وفي تفسير القرطبي ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوَزَّنٍ ﴾ أى مقدر معلوم ، وكذلك عند ابن كثير وفي الجلالين .

ويقول تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَمْنَاهَا فَيَعْمَ الْمُهْدُونُ ۝ ⁽²⁾ ۚ

ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادَّعَوْهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ۝ ⁽³⁾ ۚ

أما الصراع في الحضارة الغربية العلمانية المعاصرة فشيء مختلف تماما ، لقد حدثت تغيرات جذرية في المعتقدات والفكر ومفهوم الحضارة ومفهوم الثقافة في البلاد الأوروبية في الفترة الممتدة من القرن الثالث عشر وحتى القرن الثامن عشر - وهذه التغيرات مستمرة حتى الآن - وجاء ما يعرف بالعلمانية ، والعلمانية في

(1) الحجر : 19 .

(2) الذاريات : 48 .

(3) الأعراف : 56 .

حقيقتها تغير تدريجي ممتد حدث في المعتقدات الدينية في المجتمعات الأوروبية والأمريكية تحولت فيه المعتقدات الدينية المسيحية لهذه المجتمعات إلى المعتقدات العلمانية المادية اللادينية ، أو ما أطلق عليه الدكتور عبد الوهاب المسيري العلمانية الشاملة ، وفي رأى الدكتور عبد الوهاب المسيري أن العلمانية تنقسم إلى علمانية جزئية وعلمانية شاملة ، والعلمانية الجزئية هي المتداولة بيننا .

والعلمانية الجزئية هي المرحلة الأولى وفيها تمت التحولات في المعتقدات - وفي الفكر والثقافة والحضارة ومفاهيم كثير أخرى - الدينية بصورة جزئية مثل فصل الكنيسة عن الدولة وفصل الدين عن الدولة ...

والعلمانية الشاملة وهي تلك التي تمت فيها التحولات إلى مادية لادينية شاملة مثل النظرة المادية اللادينية للكون والحياة والأحياء وعدم الإيمان بالله جل في علاه وعدم الإيمان بالغيبيات : ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾⁽¹⁾ وصاحب ذلك تغيرات كثيرة شملت وسيطرت وسادت على المجتمعات الأوروبية والأمريكية مثل التغيرات في الفكر الأوربي ومفاهيم الثقافة ومفاهيم الحضارة والقواعد والنظم الاجتماعية الأوروبية ...

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري : « وتقف التعريفات الجزئية السابقة للعلمانية والتي تسمح بقدر من الثنائية واستقلال الظاهرة الإنسانية عن الظواهر الطبيعية / المادية ومن ثم تسمح بوجود إنسان على طرف النقيض من تعريفات العلمانية الشاملة التي تنطلق من رؤية شاملة للكون ترى أن عالم المادة ، عالم الحواس هو البداية والنهاية »⁽²⁾ .

(1) النحل : 1 .

(2) د . عبد الوهاب المسيري ، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ، المجلد الأول ، دار الشروق ، ص 72 .

و في الحقيقة ، فإن هذا التغيير في المعتقدات الدينية للمجتمعات الأوروبية والأمريكية لم يستقر على حال منذ بدايته وحتى الآن .

و تعتبر نظرية النشوء والارتقاء لدارون من أسس هذا التغيير في المعتقدات ، وفي الفكر وفي المفاهيم التي حدثت في المجتمعات الأوروبية والأمريكية ، وحسب هذه النظرية فالإنسان في نشأته وتطوره هو في صراع مستمر مع الطبيعة ، ومع المخلوقات الأخرى وصراع من أجل البقاء والانتخاب الطبيعي

وأيضاً الإنسان - حسب الفكر الإغريقي الذي تؤمن به المجتمعات الأوروبية - في صراع مستمر مع الآلهة ... و صراع مع بنى جنسه لتحقيق رغبته في اعتراف الآخرين به « الثيمس »⁽¹⁾.



(1) فرنسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ ، ترجمة حسين أحمد حسين ، مركز الأهرام للترجمة.

خلاصة

أولاً : هناك سنن إلهية كثيرة جاء ذكرها فى القرآن الكريم مثل سُنَّة التدافع وسُنَّة التكامل وسُنَّة التوازن وسُنَّة التعارف وسنة التعاون .

والسنن الإلهية التى ذكرها القرآن الكريم تزيد عن خمسين سنة .

وفهم السنن الإلهية التى جاء ذكرها فى آيات القرآن الكريم فهما صحيحا تعطى المسلم المعيار الصحيح فيتخذ القرار السليم المتزن بما أمر به الله سبحانه وتعالى .

وفهم هذه السنن الإلهية على وجهها الصحيح كما أرادها الله عز وجل يحافظ على الحضارة الإسلامية ويحفظ خصوصيتها الإسلامية ويحميها من التأثيرات السلبية للحضارات الأخرى .

ثانياً : تم تناول سنة التدافع بالتفصيل نظرا للظروف التى تمر بها الدول الإسلامية فى الوقت الراهن وحتى نبين حقيقة هذه السنة الإلهية كما جاء ذكرها فى القرآن الكريم .

ولقد ذكرت تفاسير كثيرة مختلفة لعلمائنا الكبار حتى نزىل اللبس الذى قد يكتنف فهمنا لهذه السنة الإلهية .

ثالثاً : يقول فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى - رحمه الله - فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ * وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ

الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ»⁽¹⁾. «إن الحق يأتي هنا بقضية كونية في الوجود وهي أن الحرب ضرورة اجتماعية وأن الحق يدفع الناس بالناس ، وأنه لولا وجود قوة أمام قوة لفسد العالم، فلو سيطرت قوة واحدة في الكون لفسد . فالذي يعمر الكون هو أن توجد فيه قوى متكافئة قوة تقابلها قوة أخرى ، ولذلك نجد العالم دائما محروسا بالقوتين العظيمين ، ولو كانت قوة واحدة لعم الضلال ، ولو تأملنا التاريخ منذ القدم لوجدنا هذه الثنائية في القوي تحفظ الاستقرار في العالم .

في بداية الإسلام كانت الدولتان العظيمتان هما الفرس في الشرق والروم في الغرب، والآن سقطت قوة روسيا من كافة ميزان العالم وتتسابق ألمانيا واليابان ليوازنا قوة أمريكا » .

وعندما ضربت أمريكا هيروشيا ونجازاكي بالقنابل الذرية أهلكت آلاف اليابانيين وأهلك الحرق والنسل وأصاب المنطقتين بالتلوث الإشعاعي الذي أثر على البيئة بما فيها من نبات وحيوان وإنسان ومياه وهواء وتربة لسنوات طويلة وما تبع ذلك من أمراض فتاكة مثل السرطان التي أصابت الإنسان في هاتين المنطقتين .

فلو كانت اليابان في ذلك الوقت تملك قوة نووية لما جرات أمريكا على ضربها بالقنابل الذرية ولا استطاعت اليابان أن تحمي نفسها من هذه الأخطار المروعة ، فالردع يحمي البشرية ويحمي الحضارات من آثار وخيمة يسببها البغى والطغيان الذي لا يجد من يوقف جبروته وطغيانه .

وفي وقتنا الراهن وجدنا كوريا الشمالية - تلك الدولة الصغيرة الفقيرة - تتحدى الولايات المتحدة الأمريكية وتردعها عن غيها في الاعتداء عليها عندما

(1) البقرة : 251 .

أعلنت أمريكا أنها من دول محور الشر الذين يجب على أمريكا القضاء عليها ، فإذا بكوريا الشمالية تعلن أنها تملك السلاح النووي ، وأنها سوف تستخدمه ضد أمريكا إذا فكرت في الاعتداء عليها فتراجع أمريكا وتتفاوض معها سياسيا وتوقف تهديداتها ضد كوريا الشمالية .

وفي تاريخنا الإسلامى نجد عشرات المواقف التى تبين وعى المسلمين بهذه السُّنة الإلهية ، وأن ردع الأعداء بالاستعداد بالقوة هو الذى يؤدى إلى النصر ، وهو الذى يؤدى إلى وقف الجبروت والطغيان قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلُمُونَ ﴾ (١) .

وقد قام الأنصار رضى الله عنهم باستقبال النبى ﷺ عند وصوله المدينة المنورة متقلدين أسلحتهم مستعدين للقتال ، فكفار مكة تربصوا به ﷺ ليقتلوه فى ليلة الهجرة ، ورصدوا الأموال لمن يقتله أو يأتى به عندما غادر مكة ، فكان إظهار القوة من الأنصار لردع كفار مكة .

ولقد استطاع الاستعمار الأوروبى أن يحتل معظم البلاد الإسلامية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لأن المسلمين كانوا فى حالة ضعف فلم يستطيعوا أن يردعوا الاستعمار وبوقفوا عدوانه وبغيه ، والهجمة الأمريكية الشرسة على البلاد الإسلامية الآن تأتى نتيجة لهذا الضعف والفساد والتخاذل ولا تجد من يوقفها .

رابعاً : إن تقوية المجالات المختلفة - وليس مجال الحرب والدفاع فقط - ضرورى وهام فى فهمنا لِسُنَّةِ التدافع.

إن التنافس ومحاولات السبق بين الأفراد والأمم يحقق التقدم فى المجالات المختلفة .

إن التنافس والسبق فى المجال الاقتصادى استطاعت بواسطته دول جنوب وشرق آسيا ، والتى تعرف بالنمو السريع أن تحقق نمواً مذهلاً فى المجال الاقتصادى فى مدة زمنية لا تتجاوز عقد واحد ، وهذا يعطينا مؤشراً أكيداً على أن بلوغ التقدم يمكن تحقيقه فى فترة زمنية وجيزة .

والتقدم الذى أحرزته دول جنوب وشرق آسيا ليس فى المجال الاقتصادى فقط ، ولكنه شمل مجالات التقنية والصناعة والزراعة والتعليم وغيرها من المجالات الأخرى .

فالتنافس ومحاولة السبق محرك قوى للتقدم فى مجالات كثيرة بين الدول المختلفة .

فإذا كانت بعض الدول متربصة بنا فينبغى أن يكون التنافس والسبق معها أشد لبلوغ التقدم والتفوق .

والتخلى عن ذلك يعتبر ضعفاً وتخاذلاً والرسول ﷺ حذر من ذلك .

* * *

البَصَرُ الثَّالِثُ

التغيير في الدين والتحريف في الكتب المقدسة وسقوط الحضارات

إن الدين الإسلامى أنزله الله عز وجل ليهدى الناس إلى طريق الخير والرشاد ،
ويجنبهم طريق الشر والفساد ليعبدوا الله الواحد الأحد ويوحده ولا يشركوا به شيئاً
وليزكوا أنفسهم وليقيموا عمارة الكون ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ
الْإِسْلَامُ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا
بَيْنَهُمْ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ﴾⁽¹⁾ .

ويقول ابن كثير: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۚ ﴾ إخباراً منه تعالى بأنه
لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام ، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في
كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ ،
فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل ، كما قال
تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ۚ ﴾⁽²⁾ ... ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ أى بغى بعضهم
على بعض فاختلَفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابِره فحمل بعضهم
بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقاً ، ثم قال
تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ ﴾ أى من جحد ما أنزل الله في كتابه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ

(1) آل عمران : 19 .

(2) آل عمران : 85 .

سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿ أَى فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجَازِيهِ عَلَى ذَلِكَ وَيَحَاسِبُهُ عَلَى تَكْذِيبِهِ وَيُعَاقِبُهُ عَلَى خِلَافَتِهِ كِتَابِهِ ۝ . انتهى تفسير ابن كثير .

وجاء فى تفسير الجلالين لهذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ﴾ المرضى ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ هو ﴿ آلِ سُلَيْمٍ ﴾ أى الشرع المبعوث به الرسل المبني على التوحيد وفى قراءة بفتح « أن » بدل من أنه إلخ بدل اشتغال ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ اليهود والنصارى فى الدين بأن وحد بعض وكفر بعض ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ بالتوحيد ﴿ بَغْيًا ﴾ من الكافرين ﴿ بَيِّنَتُهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بَقَايَتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى المجازاة له . انتهى تفسير الجلالين .

فأهل الكتاب من اليهود والنصارى اختلفوا فغيروا وبدلوا فى الدين فوحد البعض وكفر البعض وحرفوا كتبهم كما سيأتى فيما بعد . أما مشركوا مكة فقد أدخلوا عبادات شركية كعبادة الأصنام على دين إبراهيم عليه السلام وهو ما ستناوله .

أولاً : تغيير العرب لدين إبراهيم وعبادتهم الأصنام :

قبل الإسلام كان معظم العرب يتبعون دعوة سيدنا إسماعيل عليه السلام حين دعاهم إلى دين أبيه سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فكانوا يعبدون الله ويوحده ، ولما جاء عمرو بن لحي رئيس خزاعة وكان محبوباً من الناس لحرصه على أمور الدين وسافر إلى الشام فرآهم يعبدون الأصنام فاستحسن ذلك وجلبها معه عند عودته ، وقام بوضع هُبُلٍ فى جوف الكعبة ودعى أهل مكة إلى الشرك بالله فأطاعوه وأجابوه ، ثم انتقلت هذه العبادة الشركية إلى أهل الحجاز . ثم انتشرت بين القبائل فكان لكل قبيلة صنم وفى كل بيت صنم ، وهكذا صارت عبادة الأصنام والشرك بالله أكبر مظاهر دين أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم .

ومع التمسك بعبادة الأصنام وما صاحبها من معتقدات وطقوس وعادات وسلوكيات ومفاهيم شركية فى كثير من جوانب حياتهم ، إلا أنه بقى فيهم بقية من

دين إبراهيم عليه السلام مثل تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف بعرفة ومزدلفة وإهداء البدن ، ولكنهم غيروا وبدلوا وابتدعوا في ذلك . ومن هذه البدع ما كان يقوله ويفعله الخمس .

ولما جاء الإسلام قضى على هذه العبادات الشركية ، وما كان يصاحبها من عادات ومظاهر وسلوكيات وثقافات شركية ، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك .

ثانيًا : التفسير والتحريف في الكتب المقدسة والدين عند اليهود والنصارى والآثار التي ترتبت عليه :

1 - بعض ما جاء في القرآن الكريم عن ذلك :

جاء في القرآن الكريم عن اليهود أنهم حرفوا في كتابهم أى أضافوا وأنقصوا وأرلوا في معانيه فأخرجوها عن مرادات الله عز وجل ، وهذا ما سنبينه فيما يلي في بعض الآيات القرآنية الكريمة وتفسيرها كما جاء في تفسير القرطبي وابن كثير والجلالين ، وكلها تبين التحريف الذى أحدثه اليهود في التوراة ، يقول تعالى :

﴿ يَتَّبِعُهَا الرُّسُلُ لَا تَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمْعُوتَ لِلْكَذِبِ سَمْعُوتَ لِقَوْمِهِ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ تَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ⁽¹⁾ .

وجاء في الجلالين عن تفسير هذه الآية : « ﴿ يَتَّبِعُهَا الرُّسُلُ لَا تَحْزُنْكَ ﴾ صنع ﴿ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ يقعون فيه بسرعة ، أى يظهرونه إذا وجدوا

(1) المائدة : 41 .

فرصة ﴿ مِنْ ﴾ للبيان ﴿ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَقْوَاهِهِمْ ﴾ بالسبب متعلق بقالوا ﴿ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهم المنافقون ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ قوم ﴿ سَمْعُونَ ﴾ للكذب الذى افترته أحبارهم سماع قبول ﴿ سَمْعُونَ ﴾ منك ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ لأجل قوم ﴿ ءَاخِرِينَ ﴾ من اليهود ﴿ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ وهم أهل خير زنى فيهم حصنان فكرهوا رجها فبعثوا قريظة ليسألوا النبى ﷺ عن حكمهما ﴿ مُحَرَّفُونَ ﴾ الْكَلِمَ الذى فى التوراة كآية الرجم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ التى وضعه الله عليها أى يبدلونه ﴿ يَقُولُونَ ﴾ لمن أرسلوهم ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا ﴾ الحكم المحرف أى الجلد الذى أفتاكم به محمد ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ فاقبلوه ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ ﴾ بل أفتاكم بخلافه ﴿ فَأَحْذَرُوا ﴾ أن تقبلوه ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ ﴾ إضلاله ﴿ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ ﴾ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ﴿ فى دفعها ﴾ أَوْتَيْتَكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴿ من الكفر ولو أَرَادَهُ لكان ﴾ هُمْ فى الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴿ ذل بالفضيحة والجزية ﴾ وَلَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ . انتهى تفسير الجلالين .

وجاء فى تفسير القرطبى أن « يحرفون الكلم معنى فى التوراة » .

ويقول تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا مُحَرَّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْتَ بِالْسَمِيعِ وَطَعْنَا فى الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَئِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) .

وجاء فى تفسير الجلالين لهذه الآية : « ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ قوم ﴿ مُحَرَّفُونَ ﴾ يغيرون ﴿ الْكَلِمَ ﴾ الذى أنزل الله فى التوراة من نعت محمد ﷺ ﴿ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾

التي وضع عليها ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ للنبي ﷺ إذا أمرهم بشيء ﴿ سَمِعْنَا ﴾ قولك ﴿ وَعَصَيْنَا ﴾ أمرك ﴿ وَأَتَمَعَّ غَيْرُ مُسْمَعٍ ﴾ حال بمعنى الدعاء أى لا سمعت ﴿ وَ ﴾ يقولون له ﴿ رَاعِنَا ﴾ وقد نهى عن خطابه بها وهى كلمة سب بلغتهم ﴿ لَيْتَ ﴾ تحريفا ﴿ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا ﴾ قدحا ﴿ فِي الدِّينِ ﴾ الإسلام ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ﴾ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴿ بَدَلْ وَعَصَيْنَا ﴾ وَأَتَمَعَّ ﴿ فَقَطْ ﴾ وَأَنْظَرْنَا ﴿ انْظُرْ إِلَيْنَا بَدَلْ رَاعِنَا ﴾ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿ مِمَّا قَالُوهُ ﴾ وَأَقْوَمَ ﴿ أَعْدَلْ مِنْهُ ﴾ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴿ أَعْدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ ﴾ يَكْفُرُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ مِنْهُمْ كَعَبِدَ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ ﴾ . انتهى تفسير الجلالين .

وجاء فى تفسير ابن كثير : « ... وقوله يحرفون الكلم عن مواضعه أى يتأولون على غير تأويله ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصدا منهم واقتراء . »

وفى سورة المائدة يقول تعالى : ﴿ فِيمَا نَقُصُّهُمْ وَيَتَشَكَّهَمُ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَسِيمٌ ﴿ (١) 》

وفى تفسير القرطبي لقوله تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ أى يتأولونه على غير تأويله ويلقون ذلك للعوام وقيل معناه : يبدلون حروفه .

وفى تفسير ابن كثير : « أى فسدت فهمهم وساء تصرفهم فى آيات الله ، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده ، وقالوا عليه ما لم يقل عياذا بالله من ذلك » .

وفى الجلالين « يحرفون الكلم » الذى فى التوراة من نعت محمد ﷺ .

ويقول تعالى عن تحريف اليهود للتوراة في سورة البقرة : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ خَرَفُوا لَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

وفي تفسير الجلالين عن هذه الآية الكريمة : « ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ أي اليهود ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ ﴾ طائفة ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أحبارهم ﴿ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾ في التوراة ﴿ ثُمَّ خَرَفُوا لَهُ ﴾ يغيرونه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوا ﴾ فهموه ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مفترون والهمزة للإنكار أي لا تطعموا فلهم سابقة بالكفر » .

ويقول تعالى : ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبْتَ آيَاتِهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْتَسِبُونَ ﴾ ⁽²⁾ .

وفي الجلالين جاء في تفسير هذه الآية : « ﴿ قَوْلٌ ﴾ شدة عذاب ﴿ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أي مختلفا من عندهم ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من الدنيا وهم اليهود غيروا صفة النبي في التوراة وآية الرجم وغيرهما وكتبوها على خلاف ما أنزل ﴿ قَوْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبْتَ آيَاتِهِمْ ﴾ من المختلق ﴿ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْتَسِبُونَ ﴾ من الرُّشَا جمع رشوة » .

ويخبر الله تعالى عن اليهود والنصارى الذين غيروا وبدلوا وغيروا في دينهم فقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالَتِ

(1) البقرة : 75 .

(2) البقرة : 79 .

الْيَهُودُ عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَتَلَّهُمْ اللَّهُ أَنْ يُولَافَكُونُ ﴿١﴾ .

وكان الرسول ﷺ يقرأ على اليهود القرآن ويخوفهم وكانوا يقولون مما نخاف ونحن أولياء الله وأحباؤه (٢) . فنزلت الآية : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٣) .

وقد حذر المولى عز وجل هؤلاء النصارى ، يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤) .

واليهود يعتبرون أنفسهم على الحق والنصارى على الباطل ، والنصارى يعتبرون أنفسهم على الحق واليهود على الباطل ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٥) .

وعن الغلو والتحريف والتغيير الذى أحدثوه ، يقول تعالى : ﴿ يَتَأَهَّلِ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَوُحِّىَ مِنْهُ فَتَمَيَّنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ

(١) التوبة : 30 .

(٢) د . عبد المنعم الحفنى ، موسوعة القرآن العظيم ، مكتبة مدبولى ، الطبعة الأولى ، 2004م .

(٣) المائدة : 18 .

(٤) المائدة : 73 .

(٥) البقرة : 113 .

وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خِزْيًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١١﴾ .

واليهود والنصارى ابتدعوا ففصلوا بين الإيمان بالله وبين التصديق برسله وآمنوا ببعض رسله وكفروا ببعضهم ، يقول تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٢﴾** أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ . ويقول الدكتور عبد المنعم الحفني (٣) :
فاليهود كفروا بعيسى وبمحمد والنصارى كفروا ببعض موسى وبمحمد ، فنص الله تعالى على أن التفريق بين الله تعالى ورسله كفر ، لأنه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على السنة الرسل ، فإذا جحدوا الرسل ردوا شرائعهم ولم يقبلوها منهم ، فكان جحدهم كجحد الصانع سبحانه ، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك الطاعة ، وكان دينهم لذلك ديناً مبتدعاً طالما حقيقته الجحد .

أما المسلمون فقد علمهم الله حقيقة الإيمان فقال لهم : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤) . فوَقَّعت المماثلة بين الإيانيين .

(١) النساء : ١٧١ .

(٢) النساء : ١٥٠ ، ١٥١ .

(٣) د . عبد المنعم الحفني ، موسوعة القرآن العظيم ، مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤ م .

(٤) البقرة : ١٣٦ .

واليهود هم قتلة الأنبياء ، يقول تعالى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ⁽¹⁾ .

ويقول تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَبْعَثُ حَقٌّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ⁽²⁾ .

وينزه الله تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة يقول تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ⁽³⁾ .

ولقد جاءت آيات في سورة المائدة عن كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وََمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ⁽⁴⁾ .

ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ اسْتَرِئُوا لِي آيَاتُ اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ ⁽⁵⁾ .

(1) البقرة : 91 .

(2) آل عمران : 21 .

(3) المؤمنون : 91 .

(4) المائدة : 17 .

(5) المائدة : 72 .

ويقول تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۚ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ
أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (١).

والعداوة حظ النصرارى إلى يوم القيامة ، يقول الدكتور عبد المنعم الحفنى (2):
النصارى سموا بذلك لاتباعهم عيسى الناصرى - من بلدة الناصرة - وبعد عيسى
انقسموا فرقاً بحسب حواريتهم ، فكل جماعة اتبعت إنجيلاً ، وكانت لهم تفسيرات
وتأويلات ، فقالوا المسيح ابن الله وقالت جماعة هو نبي وقال آخرون هو الله
وخالفوا بعضهم البعض حتى فى الرواية عن عيسى كانت لهم مخالقات وكثرت
الأناجيل ، فأجازت الكنيسة أربعة وحرمت غيرها كل إنجيل يعقوب وإنجيل
نيقوديموس وإنجيل الأيونيين وإنجيل المصريين وإنجيل العبرانيين وإنجيل
الناسيين وإنجيل بطرس وإنجيل توما وإنجيل الطفولية ... إلخ ، وأخبر القرآن
الكريم بذلك وما كان لمحمد ﷺ أن يلم بها ويعلم عنها وهو العربى الأمى ، وهذا
دليل على نبوته وعلى أن القرآن من لدن الله العليم ، ومن ذلك وصفه الدقيق
خلاف النصرارى حيث يقول : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَى أَخَذْنَا
مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَجْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنْفَخُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (3).

والعداوة والبغضاء لا توصف بين الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت وبين الكنائس الجديدة والكنائس القديمة ، ووصل الحد إلى الاقتال في إيرلندا .

(1) المادة : 75 .

(2) المائدة : 75. عبد المنعم الحفني ، موسوعة القرآن العظيم ، مكتبة مديبول ، طبعة أولى ، 2004م .

(3) المائدة : 14 .

2 - قيام الحضارة المسيحية في العصور الوسطى :

والعصور الوسطى في أوروبا هي الفترة الممتدة من سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الرابع الميلادي إلى القرن الخامس عشر الميلادي .

وقد أطلق العلمانيون في أوروبا اسم عصور الظلام على فترة العصور الوسطى، كما أطلقوا اسم عصر التنوير الأوروبي على الفترة التي تمت فيها تحويل المجتمعات الأوروبية إلى مجتمعات علمانية شاملة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي .

ظلت المسيحية محصورة في أعداد قليلة من البشر حتى القرن الرابع الميلادي حينما اعتنق الإمبراطور قسطنطين ومن تبعه من الأباطرة الرومان المسيحية ، وجعلوا منها ديانة الدولة⁽¹⁾ .

وعندما انتشرت الديانة المسيحية في ربوع الإمبراطورية الرومانية تخطى السكان عن معتقداتهم ومفاهيم ثقافتهم وحضارتهم الرومانية الإغريقية ، واعتنقوا الديانة المسيحية بمفاهيمها الثقافية والحضارية .

حيث تم ترجمة الإنجيل إلى اللاتينية وأغلقت مدارس الفلسفة في أثينا وأحرقت في روما مكتبة البلاطين ومكتبة الإسكندرية بمصر⁽²⁾ .

ويعد أن أصبح للمسيحية السلطة والنفوذ في الإمبراطورية الرومانية التي كانت قوة عظمى في ذلك الوقت ، قرر المسيحيون - رجال الدين - تحويل الجماهير الرومانية إلى الديانة المسيحية فقاموا بإرهاب المواطنين الرومان الذين مارسوا ديانتهم العامة ، فهاجمهم الغوغاء من المسيحيين ودمروا مذابح معابدهم

(1) د . محمد عارف ، صعود البروتستانتية الإيفانجيلكية في أمريكا وتأثيره على العالم الإسلامي ، ترجمة رانية خلاف ، مكتبة الشروق الدولية .

(2) د . نادية حسنى صقر ، العلم ومناهج البحث في الحضارة الإسلامية ، مكتبة النهضة ، 1991م .

ومقدساتهم وفرضت عليهم الغرامات وتعرضوا للسجن والتعذيب والإعدام ، وقد استخدمت الدولة سلطتها لهدم المعابد والأضرحة المقدسة للديانة الرومانية العامة ، وقد أخذت مواقعهم للأغراض المسيحية ، وهكذا انتشرت المسيحية بسرعة عبر الإمبراطورية الرومانية⁽¹⁾.

والروم - الإمبراطورية الرومانية بعد أن تحولت للمسيحية - كانت لهم حروب مشهورة مع المسلمين عبر التاريخ الإسلامى ومن قبل مع الإمبراطورية الفارسية - قبل تحولها إلى الإسلام - وكانت الحضارة الإسلامية متقدمة بمراحل عن الحضارة المسيحية المعاصرة لها ، وهدايا هارون الرشيد من المخترعات حين ذاك - مثل الساعة وغيرها - لملك الفرنجة من الأشياء المشهورة في التاريخ الإسلامى .

ثم كانت حروب الفرنجة - والتي أطلق عليها الأوروبيون الحروب الصليبية - والتي امتدت أكثر من قرنين من الزمان والتي انتهت بهزيمة الفرنجة وخروجهم من ديار المسلمين .

كان آخر خروج للفرنجة - الصليبيين - من ديار المسلمين سنة 1291 م .

كان للحروب الصليبية أثر كبير على الفكر الأوروبى لا تقل عن الآثار التي تركها المسلمون أثناء وجودهم في الأندلس على الفكر الأوروبى في ذلك الوقت .

ومن المعروف أن الثقافة اليونانية والرومانية اختفت تماما طوال فترة الحضارة المسيحية ، وكذلك مفاهيم الحضارة اليونانية والرومانية حتى أن المؤلفات الشهيرة لأرسطو وسقراط وغيرها لم تعرفها أوروبا إلا عن طريق العلماء المسلمين بعد أن قام المسلمون بترجمتها في العصر العباسى إلى العربية .

(1) د . محمد عارف ، صعود البروتستانتية الإيفانجيلكية في أمريكا وتأثيره على العالم الإسلامى ، ترجمة رانية خلاف ، مكتبة الشروق الدولية.

ومن السمات المميزة في تلك الفترة هو وجود نظام غريب من الإقطاع كان يسود دول غرب أوروبا مثل إنجلترا وفرنسا وغيرها .

ونظام الإقطاع في أوروبا كان نظامًا غريبًا مختلفًا تمامًا عن الإقطاع في أي مكان آخر، فنظام الإقطاع الأوروبي يمكن تشبيهه أن هناك رجالًا أحرارًا - ليسوا عبيدًا - غير قادرين على حماية أنفسهم يعرضون أرضهم وجهودهم على رجل قوى ويطلبون إليه في نظير ذلك أن يحميهم ويطعمهم⁽¹⁾.

فتكونت إقطاعيات أرستقراطية لها محاكمها الخاصة وجيوشها وكانت الملوك عندما تعوزهم الحاجة إلى المال أو السلاح والرجال وخاصة وقت الحروب ، كانوا يطلبون من رجال الإقطاع فيمدونهم بالمال والسلاح والرجال .

وكانت هناك ظروف أدت إلى قيام الإقطاع في الفترة من القرن الثالث إلى القرن السادس الميلادي ، وهي أن بعض المدن الإيطالية كانت غير آمنة على نفسها أثناء الغارات الألمانية ، فانتقل أعيان هذه المدن إلى قصورهم الريفية وأحاطوا أنفسهم باتباعهم من الزراع وأسر من « الموالى » وأعران عسكريين ، كما أن الحكومات الفقيرة كانت عاجزة عن إصلاح الطرق لتبادل التجارة ، وعاجزة عن حماية الحياة والملك والتجارة ، واضطرت قصور الأعيان في الريف أن تسعى إلى الاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية ، فأصبحت كثير من الأدوات تصنع في الضياع الكبيرة⁽²⁾ .

وفي الفترة من القرن السادس إلى القرن التاسع كانت هناك نفس الظروف التي مهدت إلى قيام الإقطاع ، وهي أن بعض الملوك كانوا يؤجرون قوادهم وموظفيهم الإداريين بمنحهم مساحات من الأرض ، وأضحت هذه الإقطاعيات وراثية في القرن التاسع الميلادي ، وعجزت الحكومات المركزية عن حماية الأجزاء النائية من

(1) ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، رقم 14 ، ترجمة محمد بدران ، ص 403 .

(2) المصدر السابق .

عواصمها وأقام الأسقف والبارون المحلى نظاما فى مقاطعته وهيئة للدفاع عنه ، وظل محتفظا بقوته ومحاكمه الخاصة ، وكان الطلب يكثر على المدافعين الذين يملكون فرسانا وكان الفرسان أهم من المشاة ، لأن أغلب المغيرين كانوا فرسانا وهكذا نشأ فى إنجلترا وفرنسا فى عهد النورمان وفى إسبانيا المسيحية طبقة من الفرسان بين الدوق والبارون من ناحية والفلاحين من جهة أخرى .

ولم ير الشعب حرجا من ذلك ، فقد كانوا يتطلعون إلى وجود نظام عسكرى يحميهم ولم يترددوا فى تقديم ولائهم وخدماتهم إلى سيد يسيطر عليهم حمايته القانونية أو دوق يستطيع قيادتهم⁽¹⁾ .

وكان الإقطاعى يملك الأرض ومن عليها من بشر ومشروعات وزروع وحيوانات... وكان هناك تحالف قوى بين الملوك ورجال الإقطاع ، فقد كان رجال الإقطاع يمدون الملوك بما يحتاجونه من مال وسلاح ورجال ، وكان الملوك يقرون لرجال الإقطاع بحرية السيطرة على إقطاعياتهم كملكية خاصة لهم .

والمجتمعات الأوروبية آنذاك كان يوجد بها نوعان من السلطات :

- سلطة الملوك المتحالفة مع رجال الإقطاع .

- وسلطة الكنيسة ورجالها وكهنوتها .

وكانت الكنيسة فى ذلك الوقت لها سلطات واسعة فمثلاً كانت سلطات الكنيسة السياسية والاقتصادية تتمثل فى أمور كثيرة منها : أن الملوك والأمراء كانوا لا يعينون إلا بموافقة الكنيسة ، كما أن رجال الدين المسيحي كانوا ملتزمين بعقيدة الحق الإلهى لملوكهم فى الحكم ، وكانت الكنيسة ، ورجالها يتمتعون بشروات طائلة « وقد وجه مجلس نورنبرج فى عام 1522م مائة تهمة للكنيسة ، منها أنها تملك نصف ثروة ألمانيا ، وقد قدر مؤرخ كاثوليكي نصيب الكنيسة بثلاث أموال ألمانيا

(1) ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، رقم 14 ، ترجمة محمد بدران ، ص 403 .

وخمس أموال فرنسا ، ولكن مدعيا عموميا في برلمان فرنسا قدر ثروة الكنيسة في عام 1502م بثلاثة أرباع أموال فرنسا كلها ، على أننا ليس لدينا من الإحصاءات ما نرجع إليه في هذه التقديرات . أما في إيطاليا فإن ثلث شبه الجزيرة بطبيعة الحال كان ملكا للكنيسة ، ونعنى به الولايات الباباوية ، هذا فضلا عما كان لها من الأملاك القيمة في غير تلك الولايات ⁽¹⁾ .

3 - الثورة على الكنيسة والحروب الدينية وقيام العلمانية في أوروبا :

بعض المؤلفات والكتب تناولت الأحداث التاريخية حول هذا الموضوع منذ القرن الرابع عشر وحتى القرن العشرين وبعضها الآخر تناول الأفكار التي جاءت فيها كتبه المفكرون والكتاب والأدباء والفلاسفة وفيما ألفوه من كتب حول هذا الموضوع في هذه الفترة ، وبعضهم تناول هذا الموضوع في القرنين الأخيرين فقط .

وطوال القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر كان النقد الشديد والمآخذ الكثيرة توجه إلى الكنيسة ورجالها وكهنوتها قبل أن يقود لوثر وكلفين الثورة عليها في القرن السادس عشر الميلادي ، وهي الثورة التي أدت إلى نشأة البروتستانت وما تبع ذلك من حروب دينية بين الكاثوليك والبروتستانت امتدت قرنين تقريبا .

والثورة على الكنيسة وما تبعها من حروب دينية بين الكاثوليك والبروتستانت أدت في الحقيقة إلى ثورة من الشك والإلحاد وعدم الإيمان بالكنيسة ورجال الدين والسيدة العذراء والسيد المسيح والنبين والكتاب المقدس .

وجاء ذلك في كتب التاريخ وفيما كتبه الكتاب والفلاسفة والمفكرون ، وخاصة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

ولا زال عدم الإيمان والشك مسيطرًا على العدد الأكبر من أفراد المجتمعات الأوروبية حتى الآن .

(1) ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، رقم 22 ، ترجمة د . عبد الحميد يونس ، اختارته وأنفقت عليه الإدارة الثقافية ، جامعة الدول العربية .

وكان يؤخذ على الكنيسة عدة مآخذ وجهها الكاثوليك المخلصون إلى الكنيسة⁽¹⁾ في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكانت سببا في سقوطها :

وأول هذه المآخذ والتهم أنها كانت تحب المال ، وكان لها منه أكثر مما يليق بها إذا أرادت لنفسها الخير ، وقد ذكرنا سابقا ما ذكره مجلس نورنبرج في عام 1522م عن ثروة الكنيسة وممتلكاتها، وكان من أسباب تجمع الثروة الضخمة في يد الكنيسة: الأموال التي كان يوصى بها المتوفون للكنيسة عند وفاتهم - كانت أموال الكنيسة بعيدة عن سرقات اللصوص والجنود والحكومات - كان الذين يشتركون في الحروب الصليبية ضد المسلمين يتنازلون عن أراضيهم أو يرهنونها عند الهيئات الدينية - كانت مئات الآلاف من الأفدنة تؤول إلى الكنيسة لأن طوائف الرهبان هي التي أصلحتها ، وكان كل ما تملكه الكنيسة لا يمكن أن يؤول إلى غيرها ، كما أن أموال الكنيسة معفاة من الضرائب ومن المصادرة التي كان يقوم بها الملوك .

ومن المآخذ على الكنيسة أيضًا وكانت سببًا في الثورة عليها : أن المناصب الكنسية لم تكن تشغل إلا بالرشاوى الضخمة ، وخاصة المناصب العليا ، مثل الكرادلة . وكان الباباوات يبيعون مناصب الكنيسة ، ويحددون لها الأسعار ، وينشئون مناصب جديدة تدر عليهم دخلاً جديداً .

ومن المآخذ الأخرى على الكنيسة فساد أخلاق رجال الدين ، وجاء في كتب قصة الحضارة كتابات كثيرة عن فساد رجال الدين مثل تعاظم الخمر والتخاذ العشيقات «وكان للألوف من القساوسة حظايا ، وفي ألمانيا كان لهم كلهم تقريباً، وفي روما كان هذا هو الأمر المتبع المؤلف . وتقدر بعض التقارير عدد العاهرات فيها بسبعة آلاف من بين السكان الذين لم يكونوا يزيدون عن مائة ألف ... ذلك أن

(1) ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، كتاب رقم 22 ، ترجمة د . عبد الحميد يونس ، اختارته وأنفقت عليه الإدارة الثقافية ، جامعة الدول العربية ، (ما يؤخذ على الكنيسة) ، ص 35 ، الفصل الخامس .

لدينا أدلة تبينها الوثائق عن فساد أخلاق القساوسة في كل بلد تقريباً من بلدان شبه الجزيرة الإيطالية⁽¹⁾.

ونفس التهمة كررها أرازمس بعد مائة عام من ذلك الوقت ، فقال : « إن أديرة الرجال والنساء قلما تختلف عن المواخير العامة »⁽²⁾.

ومن المآخذ على الكنيسة أيضاً بيع صكوك الغفران وعدم خضوع رجال الكهنوت لقوانين الدولة ، وكانت المحاكم الكنسية تتولى محاكمتهم بالين .

ومن المآخذ على الكنيسة أيضاً محاكم التفتيش والفظائع الغريبة التي قامت بها، وكان المتأثرون بأفكار ابن رشد من ضحايا هذه المحاكم ، وقد قرر مجمع لاتران سنة 1502م أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد ، وطفق الدومنيكان يتخذون من ابن رشد ولعته ولعن من ينظر في كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة⁽³⁾.

وقد نادى كثير من الكتاب والمفكرين بإصلاح الكنيسة ، أمثال : أرازمس وكوليت ومور ويوديه ، كما أن بعض الباباوات حاولوا إصلاح الكنيسة ، ولكن الكرادلة ورجال الإدارة الباباوية هزموا أولئك الباباوات ، ولقد شكى البابا ليو العاشر نفسه عام 1516م من إخفاق هذه المحاولات .

لم تجد المحاولات وقامت الثورة الدينية بقيادة لوثر وكلفن في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، وبدأت حروب طاحنة تحتاج كل أوروبا ، وانقسم العالم المسيحي إلى مذاهب وفرق ، وأصبحت بريطانيا وألمانيا والأراضي المنخفضة واسكندناوة بروتستانتية سلختها حركة الإصلاح البروتستانتي عن بقية أوروبا الكاثوليكية ، وكانت إيطاليا مقسمة إلى عدة دويلات ، وكانت روما عاصمة البابوية الكاثوليكية.

(1) المصدر السابق ص 47 .

(2) المصدر السابق .

(3) الإمام الدكتور عبد الحليم محمود ، أوروبا والإسلام ، كتاب : النظام السياسي الإسلامي والفكر الليبرالي ، د . محمد الجوهري ، دار الفكر العربي ، 1993 ، ص 34 .

وكان للفلاسفة والكتاب والمفكرين وقادة الرأي وغيرهم أثر عظيم في التغيرات الدينية والاعتقادية والثقافية والحضارية التي واكبت الثورة على الكنيسة والحروب الدينية ، وما تبع ذلك من تغييرات على مستوى المجتمعات الأوروبية - وليس على مستوى الأفراد والنخب فقط - مما أدى إلى التحول إلى العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ، فيها هو ميكيا فلي يذيع - قبل أن يكتب مارتن لوتر رسالته التصحيحية التي أدت إلى ظهور البروتستانت بأربعة أعوام - يقول : « لو أن الدين المسيحي قد احتفظ به كما صدر عن مؤسسه الأول (يقصد السيد المسيح) لكانت دول العالم المسيحي أكثر اتحادًا وأعظم سعادة مما هي عليه الآن ، وليس أدل على ضعفه من أن أقرب الناس إلى الكنيسة الرومانية التي هي صاحبة السلطة العليا في هذا الدين هم أقل الناس تدنبا ، وأن من يمعن النظر في المبادئ التي يقوم عليها هذا الدين ويرى ما بين هذه المبادئ وبين شعائرها الحاضرة وعبادتها من فرق كبير ، ليحكم من فوره بأن انبهارها أو يوم القصاص منها لآت قريب »⁽¹⁾ .

والكاهن جان مسيليه (1678-1733م) بعد خمسة وخمسين عامًا قضاها في خدمة الكنيسة كتب مخطوطة سماها « عهدى الجديد » ، وأوصى بطبعها بعد وفاته ، ونشر فولثير وديدرو وهولباخ مقتطفات منها سنة 1762م وسنة 1772م ، ولم تطبع كاملة إلا في سنة (1861-1864م) ، وكانت هجومًا قاسيًا على المسيحية ونقدًا عنيفًا للكنيسة ورجالها ، وقد شكك الكاهن جان مسيليه في نسب السيد المسيح ^{عليه السلام} واختلاف إنجيل متى ولوقا في ذلك ، وشكك في نزول هذه الأناجيل من عند الله سبحانه وتعالى ، وشكك في العهد القديم والعهد الجديد⁽²⁾ .

(1) ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، رقم 22 ، ترجمة عبد الحميد يونس ، ص 38 .

(2) ويل وإيريل ديورانت ، قصة الحضارة ، رقم 38 ، ص 10 ، ترجمة محمد على أبو درة ، مراجعة على أدهم ، اختارته وأنفقت على ترجمته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، 1983 م .

وها هو رينان يقول: «إن السيد المسيح لم يكن إلهًا ولا ابن إله ، وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامى وبالروح الكريمة»⁽¹⁾.

واسبنوزا يقرر أن الكتب المقدسة المسيحية لم تكتب بأيدي المؤلفين الذين نسبت إليهم⁽²⁾.

ويعتبر القرن الثامن عشر الميلادى هو قرن الفلسفة والإلحاد فى أوروبا ، فقد كان أغلب الفلاسفة فى فرنسا وفى بعض الدول الأوروبية من المعادين للمسيحية ، وكان لامترى وفولتير وديدرو ودالمبيرث وجريم وهلفشوس ودى هولباخ من فلاسفة فرنسا الملحدون والمعادين للمسيحية ، وكذلك كانت آراء الفلاسفة الآخرين والمفكرين فى معظم البلاد الأوروبية تعادى المسيحية والكتاب المقدس ولا تؤمن إلا بالعقل بديلاً عن الدين.

وكانت آراء وكتابات مونتاني وجاسندى ومونتسكيو وديكارت فى شكه المنهجي وتفسيره الآلى للعالم الموضوعى وبيل وشكوكه وقاموسه الذى أصبح معينا لا ينضب يغترف منه المتشككون ، كما كانت آراء بعض المتشككين من المفكرين والكتاب والعلماء الإنجليز أمثال دعوة فرنسيس بيكون إلى العلم الاستقرائى وآراء نيوتن اللاهوتية وآراء لوك - وهو الذى ساهم فى تكوين الفكر الليبرالى الحديث - المعادية للدين ، وآراء كثيرة أخرى لا تؤمن بالكتب المقدسة ولا بالدين المسيحى تحتاج أنحاء أوروبا .

وكان الفلاسفة الفرنسيين الملحدون نتاجاً خاصاً فكانوا واضحين فى أفكارهم، يتحدثون إلى الناس بلغة يفهمونها ، وكانوا أدباء وشعراء يعبرون عن

(1) ويل وإيريل ديورانت وقصة الحضارة رقم 38 ، ص 10 ، ترجمة عمد على أبو درة ، مراجعة على أدهم ، اختارته وأنفقت على ترجمته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، 1983 م .

(2) المصدر السابق .

أفكارهم بلغة الأدب والشعر بطرق بسيطة سهلة وعميقة في ثوب أدبي شيق مسل ، سواء كان قصة متبلّة بالفحش أو سخرية لاذعة يقصد بها الهجاء وعدم الرضا أو حكمة بطريقة معبرة أو موضوعات قصيرة ، وفي كثير من الأحيان وجهوا مؤلفاتهم لشهيرات النساء والشخصيات الهامة .

وقد أضفى ذلك على الإلحاد سحرًا وفتنة مما كان له أثره العميق في زرع الشك والإلحاد في جذور الفكر الأوروبي الحديث وفي نفوس الأفراد والشعوب .

وكانت أحاديث الفلاسفة في صالونات باريس لها دوى هائل في كل أوروبا حيث يتناقشها الناس ويناقشون كل ما جاء بها من أفكار ، ومن ثم أصبحت تلك الفلسفة الإلحادية قوة اجتماعية انتقلت من المدارس إلى المجتمع والحكومة وأسهمت في الصراع بين الدول وتناقلتها الأنباء .

كانت أنباء الفلاسفة المشككين في فرنسا من الموضوعات المطلوبة في كل أوروبا لمعرفة آخر النظريات والآراء .

وانتشرت مؤلفات فلاسفة الإلحاد في إنجلترا وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا وروسيا وغيرها من دول أوروبا .

وكان الملوك في أوروبا يفاخرون بأنهم من الفلاسفة مثل : فريدريك الأكبر وكاترين قيصرية روسيا .

وكان لاختراع آلة الطباعة بواسطة جوتنبرج أثر كبير في انتشار آراء فلاسفة الإلحاد في كل أوروبا⁽¹⁾ .

وكانت الدعوة لتحرير العقل في أوروبا تعنى تحريره من الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة وكهنوتها - في زعمهم - وأصبحت دعوتهم بتحرير العقل

(1) ويل وإيريل ديورانت ، قصة الحضارة ، رقم 38 ، ص 10 ، ترجمة محمد علي أبو درة ، مراجعة على آدم ، اختارته وأنفقت على ترجمته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، 1983 م .

والإعلاء من شأنه بمثابة وحى جديد عوضاً عن الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة وطالبوا بالسيادة والسيطرة على كل المجالات والميادين ، فطالبوا بإصلاح التعليم والأخلاق والأدب والاقتصاد والسياسة ، وعلوم الاجتماع وتحرير كل المعارف الإنسانية من تعاليم الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة⁽¹⁾ .

وأصبحت حركة التنوير التى نادت بتحرير العقل من تعاليم الكنيسة والكتاب المقدس ، حركة واسعة الانتشار عميقة الأثر على مستوى الأفراد والشعوب والمجتمعات فى أوروبا ، وأصبحت تعرف بحركة عصر التنوير الأوروبى .

واعتبروا عصر التنوير الأوروبى هو قمة الفكر العقلانى بعد عصر النهضة وعصر الإصلاح الدينى .

وعملت القوى الاجتماعية وازدياد الثروة بعد اتساع المستعمرات ، وما تجلبه من أموال على الانحلال والتسابق على تحقيق اللذة والمتعة المخالفة للمعتقدات الدينية ، وكان أغلب الملوك فى أوروبا يحتفظون بخليلات⁽²⁾ .

واحتلت مدام بمبادور - التى اعتبرها فولتير واحدة منهم - مكان السيدة العذراء فى قلوب الناس .

وانتشرت المطبوعات المعادية لرجال الدين المسيحى انتشاراً ذريعاً فى الأقاليم ، وانتشر الإلحاد والسخرية من رجال الدين المسيحى بين العامة فى مقاهى باريس ، بل إن عدوى الشك والإلحاد انتقلت إلى رجال الدين المسيحى أنفسهم أمثال القساوسة تورنى وفوشيه ومورى ودى بولونى⁽³⁾ .

(1) ويل وإيريل ديورانت ، قصة الحضارة ، رقم 38 ، ص 10 ، ترجمة محمد على أبو درة ، مراجعة على أدهم ، اختارته وأنفقت على ترجمته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، 1983 م .

(2) المصدر السابق .

(3) المصدر السابق .

وانتشرت بين الناس الأخلاق الإلحادية الجديدة التى سموها الأخلاق الطبيعية المستقلة عن اللاهوت والفكر الدينى المسيحى ، وحلت قضية الإخلاص للجنس البشرى محل عبادة الله ومريم والقديسين⁽¹⁾ فى العقيدة المسيحية .

وكتب جريم ومايلى ودى هولباخ وسانتا لامبير كتيبات تفسر الأخلاق الطبيعية الجديدة للأطفال وتحض على الإلحاد وتحض على حب الذات ، وأن كل اللذات مجازة ومسموح بها ، كما تدعو هذه الكتيبات إلى استعمال العقل ونهذ المعتقدات الكهنوتية الكنسية⁽²⁾ ، ولكن ظلت هناك مشكلة تواجه الفكر الأوروبى وهى مشكلة اعتبارها الفلاسفة والكتاب والمفكرون والعلماء مرهقة ومحيرة ومعلقة - لم يهتدوا إلى حل لها - وهى :

كيف يكتب البقاء لدولة دون ديانة تدعم النظام الاجتماعى وتحفظه من التحلل والفساد؟⁽³⁾

وبدأ هذا الاعتقاد اللادىنى المادى الجديد - الذى يرفض الكتاب المقدس والمسيحية ، والذى تبلور منذ القرن السادس عشر الميلادى - يتنامى ويتشرب بين أفراد الشعوب والمجتمعات الأوروبية .

وقد أطلق اسم العلمانية على هذا المعتقد اللادىنى الذى لا يعترف إلا بالعقل وبكل ما هو منظور ومحسوس ولا يعترف بكل ما هو غيب .

وقد أطلق اسم العلمانية على هذا المعتقد اللادىنى منذ القرن السادس عشر الميلادى ، وبدأت التغييرات العلمانية تشمل المجتمعات الأوروبية لتحوّلها إلى

(1) ويل وإيريل ديورانت ، قصة الحضارة ، رقم 38 ، ص 10 ، ترجمة محمد على أبو درة ، مراجعة على أدهم ، اختارته وأنفقت على ترجمته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية . القاهرة ، 1983 م .

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق ، ص 251 ، تحت عنوان : الأخلاقيات الجديدة .

مجموعات علمانية شاملة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى ، وقد أطلق الدكتور عبد الوهاب المسيرى اسم العلمانية الجزئية على المراحل الأولى أو التحولات الأولى ، والتي يعبر عنها بفصل الكنيسة عن الدولة ، والكنيسة هنا تعنى « المؤسسات الكهنوتية » عموماً . أما الدولة فتعنى « مؤسسات الدولة عموماً » ، ويوسع البعض هذا التعريف ليعنى فصل الدين عن الدولة بمعنى الحياة العامة⁽¹⁾ .

وأطلق الدكتور عبد الوهاب المسيرى اسم العلمانية الشاملة على التحولات الأخيرة من تطور العلمانية في أوروبا . وعن العلمانية الشاملة يقول : « ويمكن أن نسميها أيضًا العلمانية الطبيعية / المادية أو « العلمانية العدمية » ، وهى رؤية شاملة للكون بكل مستوياته ومجالاته ، لا تفصل فقط الدين عن الدولة وعن بعض جوانب الحياة العامة ، وإنما تفصل كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية عن كل جوانب الحياة العامة في بادئ الأمر ، ثم عن كل جوانب الحياة الخاصة في نهايته إلى أن يتم نزع القداسة تمامًا عن العالم (الإنسان والطبيعة) ، وهى شاملة تشمل كل من الحياة العامة والخاصة والإجراءات المرجعية .

و العالم من منظور العلمانية الشاملة - شأنها في هذا شأن الحلولية الكمونية المادية - مكتف بذاته وهو مرجعية ذاته ، عالم متناسك بشكل عضوى ولا تتخلله أية ثغرات ولا يعرف الانقطاع أو الثنائيات ، خاضع لقوانين واحدة كامنة فيه لا تفرق بين الإنسان وغيره من الكائنات ، فهو عالم يتسم بالواحدية المادية الصارمة - وهذه كلها صفات الطبيعة/ المادة - وأن كل الأمور مادية نسبية متساوية لا قداسة لها⁽²⁾ .

(1) د . عبد الوهاب المسيرى ، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ، المجلد الثانى ، دار الشروق .

(2) المصدر السابق .

4 - هل العلمانية معتقد وثقافة وحضارة جديدة للغرب ؟ وهل تسير نحو الانهيار ؟

بخصوص السؤال الأول :

(أ) هل العلمانية معتقد وثقافة وحضارة جديدة للغرب ؟

فقد رأينا فيما سبق كيف تحولت معتقدات الأفراد والشعوب والمعتقدات الأوروبية إلى العلمانية ، وخاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي.

ونتيجة لذلك ، فإن الإنتاج الثقافي والإنتاج في مجال الحضارة وجوانب الحياة المختلفة للمجتمعات الأوروبية ، أصبحت تحمل المفاهيم العلمانية المادية ، وترفض كل ما هو ديني وكل ما هو مقدس بل تعاديه على طول الخط .

وإذا تتبعنا عدة ألفاظ ظهرت في أوروبا في الفترة الممتدة من العقود الأخيرة للقرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، وما تدل عليه هذه الألفاظ من تغييرات في حياة وفكر المجتمعات الأوروبية ، سوف يتضح لنا أن العلمانية تعتبر بمثابة اعتقاد جديد ودين جديد للمجتمعات الأوروبية . لقد ظهرت عدة ألفاظ جديدة أو ألفاظ تحمل مفاهيم جديدة بديلا عن المفاهيم القديمة ، مثل : ثقافة ، صناعة ، فن ، طبقة ، ديموقراطية ، أيديولوجية ، فكرى ، اتجاه عقلى ، إنساني ، عالم ، من أنصار مذهب المنفعة ، رومانسية ، بيروقراطية ، رأسمالية ، شيوعية ، اشتراكية ، جماعية ، تجارية ، إلخ .

هذه الألفاظ الجديدة - في لفظها ومعناها - أو القديمة التى تغير معناها إلى معنى جديد بدلا من المعنى القديم⁽¹⁾ ، تمثل مرحلة العلمانية الشاملة التى سيطرت على الأفراد والشعوب والمجتمعات والحكومات الأوروبية .

(1) ريموند وليامز ، الثقافة والمجتمع ، 1780 - 1950 م ، ترجمة وجيه سمعان ، مراجعة محمد فتحى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986 م .

وكل باحث يتتبع تلك الألفاظ الجديدة أو القديمة والمعاني الجديدة التى اكتسبتها سوف يكتشف بمتهى الوضوح أن هذه الألفاظ والمعاني تعبر عن التغييرات العريضة للحياة والفكر فى أوروبا ، وهى التغييرات التى أحدثتها العلمانية فى جميع جوانب الحياة الأوروبية المختلفة وهى تغييرات تناقض وتناهض المعتقدات المسيحية فى أوروبا .

فإذا أخذنا لفظة ثقافة Culture مثلاً نجد أن هذه اللفظة قبل العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادى ، كان معناها فى أوروبا هو اتجاه النمو الطبيعى (للنبات) ، ولكن معناها تغير عبر عدة مراحل وعبر عدة مفاهيم لها حتى أصبحت هناك تعريفات عديدة لها ، وقد أحصى كروير وكلوكهون سنة 1952م ما يزيد عن 164 تعريفاً للثقافة⁽¹⁾ . وذكر البعض 200 تعريف لها حالياً .. ما هو السبب فى ذلك ؟

لماذا كان هناك هذا العدد الكبير من التعريفات للثقافة فى أوروبا وأمريكا ، ولم يستقروا على تعريف واحد ؟

لماذا كانت هناك تعريفات عديدة للثقافة فى أوروبا ؟

بعد سيطرة العلمانية وسيادتها على المجتمعات الأوروبية أصبحت المعتقدات المادية اللادينية هى المسيطرة على الحياة والفكر والسلوكيات والمفاهيم فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية وعلى جميع شئون حياة المجتمع .. الأوروبى .

كان كثير من المفكرين فى أوروبا فى تلك الفترة يشعرون أن هناك شيئاً ما ينقصهم ويريدون الحصول عليه ، شىء لا يعرفون اسمه ، كان إدموند بيرك ووليام

(1) نصر محمد عارف ، الحضارة . الثقافة . المدنية ، والدار العالمية للكتاب الإسلامى ، والمعهد العالمى للفكر الإسلامى .

كوييت ، وروبرت سوزي، وروبرت أوين ، وبليك، وورد زورت ، وكلوردج ،
ويرون ، وشيل ، وكيتس ، ومل وبتام ، وتوماس كارليل ، ونيومان ، ومائيو
أرنولد ، ومالك ، وجورج جيسنج ، ولورنس ، وتوني ، وإليوت ، وجورج
أرويل⁽¹⁾.

فهؤلاء المفكرون وغيرهم بدأوا مشوارًا طويلًا للبحث عن هذا الشيء الذي
ينقصهم ولا يعرفون اسمه أو مفهومه ، وأخذ كل منهم يبنى على ما يتوصل إليه
الأخر حتى تم التوصل إلى الاسم والمفهوم الذي تحمله لفظة ثقافة Culture .

فالعلمانية أصبحت بمثابة دين جديد وثقافة جديدة وحضارة جديدة تصبغ
جميع جوانب الحياة في أوروبا - حتى الدين المسيحي نفسه - بمفاهيمها ومعطياتها .
ومحاولات بلورة اسم ومعنى الثقافة في أوروبا بعيدًا عن الدين المسيحي هو
الذي أوجد التعريفات العديدة الملتبسة ، فالعلمانية كمعتقد هي سبب هذا الانسحاق
الفكري .

وهذا لا ينفي أن بعض الاتجاهات الثقافية في أوروبا في أواخر القرن التاسع
عشر والنصف الأول من القرن العشرين جعلت من الدين المسيحي جزءًا أو
عنصرًا من العناصر المكونة للثقافة العلمانية ، فقد جاء تعريف عالم الأنثروبولوجيا
البريطاني إدوارد تيلور للثقافة - ليجعل الدين المسيحي جزءًا من الثقافة العلمانية
وليست العلمانية جزءًا من الدين المسيحي .

أما الإسلام فإنه يشمل جميع جوانب الحياة بما فيها الثقافة والحضارة .

وإذا نظرنا إلى الإنتاج الثقافي والإنتاج في مجال الحضارة ، فإننا سوف نجد
تصديقًا لما ذكرناه من التحول إلى العلمانية في جميع المجالات في أوروبا .

(1) ريموند وليامز ، الثقافة والمجتمع ، 1780 - 1950 م ، ترجمة وجيه سمعان ، مراجعة محمد فتحي ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986 م .

فالإننتاج الثقافي والفكرى والفلسفى لمئات من الكتّاب والفلاسفة والمفكرين طوال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين كان يحمل مفاهيم علمانية إلحادية ، والعدد القليل الذى كان يؤمن بالله - جل فى علاه - كان إما أنه يؤمن بالله ولا يؤمن بالمسيح والكتاب المقدس ولا بالأديان الأخرى أو أنه كان يؤمن بالله ولا يؤمن بالرسل والرسالات أو كان يخلط الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - بمعتقدات هندوسية أو بوذية أو زرادشتية ، مثل : الحلول والاتحاد أو كان متقلبا بين المادية والروحية أو ينادى بالرجوع للدين.

ففى ألمانيا كان هناك هيجل (1770-1831م) وشبنهور (1788-1860م) وشلنجر (1775-1854م) وفشته (1762-1814م) ، وفويرباخ (1804-1872م) وماركس (1818-1883م) ، ونيثشة (1844-1900م) .

ومن فرنسا أوجست كونت (1798-1857م) وسان سيمون (1760-1825م) ، ولاروفيجير (1756-1837م) وكولر (1763-1843م) ، وفكتور كونان (1792-1867م) وأميرليزى (1801-1881م) ، وأرنست رينان (1823-1892م) وإيدلتي تين (1828-1893م) وأميل فانسرو (1820-1897م) .

وفى إنجلترا بتام (1748-1832م) ، وجيمس ميل (1773-1836م) وكولريدج (1772-1834م) ، وكارليل (1795-1881م) ووليم هملتون (1788-1856م) ومنسل (1820-1871م) ، وجون ستيوارت مل (1806-1873م) وداروين (1809-1882م) وسبنسر (1820-1903م) ، ونيومان (1801-1890م) وتوماس هل جرين (1836-1882م) وسترنج (1820-1909م) .

والأمريكيان بيرس ووليم جيمس (أول من أرسى دعائم الفلسفة البرجماتية الأمريكية) .

وفي القرن العشرين نجد أن الغالبية العظمى - إن لم يكن كل المشهورين من المفكرين والفلاسفة والأدباء والشعراء والفنانين التشكيليين والفنانين في المجالات المختلفة - يعتبرون من العلمانيين الذين يقفون من المسيحية والكتاب المقدس موقفًا معاديًا .

على أنه يوجد بعض المفكرين والفلاسفة يؤمنون وينادون بالعودة إلى الكتاب المقدس والدين المسيحي ، مثل المفكر الدنماركي كير كجارد (1813-1855م) . فقد دافع عن المسيحية والإيمان بها ، وعن التمييز بين الإيمان المسيحي وأنواع الإيمان الأخرى ، سواء الفلسفية المتمثلة في الدين الطبيعي أو دين العقل أو الدين الإنساني ، وكان يعارض الإلحاد⁽¹⁾ .

وإذا نظرنا إلى جوانب الحياة المختلفة للمجتمعات الأوروبية والأمريكية نجدها كلها تحمل الصبغة العلمانية والمفاهيم العلمانية والقواعد والنظم الاجتماعية العلمانية ، في مجال : الأسرة والمعاملات والسلوكيات والحياة العامة والنواحي الاقتصادية والسياسية الليبرالية العلمانية والنواحي الثقافية والمفاهيم الثقافية الحضارية العلمانية .

كما أن دساتير الدول الغربية تنص على أن هذه الدول علمانية .

وفي خطابات رؤساء الدول الغربية والسياسيين وقادة الرأي ، وفي وسائل الإعلام يتكرر دائماً أنهم مجتمعات علمانية .

والولايات المتحدة الأمريكية - والتي تنتشر فيها الحركات الإحيائية والأصولية البروتستانتية الآن - لها دستور علماني ينص على أن الدولة علمانية ، ومؤسسات الدولة وهيئاتها ومنظماتها علمانية ، ونظمها وقواعدها الاجتماعية علمانية ، والنظام السياسي والاقتصادي ليبرالي علماني

(1) زكريا فايد ، العلمانية .. النشأة والأثر في الشرق والغرب ، الزهراء للإعلام العربي .

والأصولية الأمريكية في هجومها على العلمانيين الآن تعتبر أن العلمانية هي ديانة الليبراليين⁽¹⁾.

(ب) هل تسير العلمانية نحو الانهيار ؟

بعد الحرب العالمية الأولى بدأ موقف الدولة والأفراد في أوروبا يتغير قليلا تجاه الدين ، حيث عادت السلطة الزمنية للكنيسة الكاثوليكية عام 1929م ، بإعادة دولة الفاتيكان كوحدة سياسية ، بعد أن أدمجت الولايات الباباوية في مملكة إيطاليا عام 1870م ، كما أنه سمح بقيام أهداف سياسية مسيحية في أكثر من دولة من دول الغرب⁽²⁾.

ولكن التغير الحقيقي في الاتجاه نحو الدين جاء من الولايات المتحدة الأمريكية .

ومع أن الحرب العالمية الأولى والثانية وما صاحبها من فظائع وملايين القتلى - وهو ما لم يحدث مثيل له في التاريخ - كان لها آثارها في مراجعة أطروحات ومعطيات ومفاهيم العلمانية ، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية كان لها الريادة في هذا المجال ، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب ، وأهمها هي الأسباب التاريخية التي تشمل فيما يلي :

احتلت بريطانيا أمريكا الشمالية مدة 176 عامًا ، وامتدت حرب التحرير الأمريكية ضد الاحتلال البريطاني مدة 6 سنوات ، وانتهت برحيل بريطانيا عام 1783م بعد توقيع معاهدة أنهت الحرب بينهما .

(1) د . محمد عارف ، صعود البروتستانتية الإيفانجيلكية في أمريكا وتأثيره على العالم الإسلامي ، ترجمة رانية خلاف ، مكتبة الشروق الدولية .

(2) زكريا فايد ، العلمانية .. النشأة والأثر في الشرق والغرب ، الزهراء للإعلام العربي .

خاضت أمريكا الحرب ضد بريطانيا وكانت الولايات الأمريكية لم تتحد بعد ،
وكتيجة للحرب وجدت الولايات أهمية الاتحاد بينها وإقامة سلطة مركزية ،
ووضع دستور دائم للولايات الثلاث عشرة آنذاك وقد تم قيام الاتحاد عام
1789م⁽¹⁾.

كان البروتستانت يشكلون أوائل المهاجرين إلى أمريكا في زمن الاحتلال
البريطاني ، وكانوا يمثلون الأغلبية المطلقة من المستوطنين ، فنشأت عائلات
أمريكية بروتستانتية أكثر ثراء واستحواداً على الثروة في أنحاء أمريكا وخلفوا
أحفاداً يملكون الثروة والسطوة والنفوذ ، وقد حافظوا على المظاهر المسيحية فلم
تتغير أمريكا في الناحية الدينية مثل أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي⁽²⁾.

كما أن الظروف الداخلية التي مرت بها أمريكا بعد تحررها من بريطانيا
ساعدت على المحافظة على التمسك بالمظاهر الأصولية البروتستانتية ، ففي الحرب
الأهلية الأمريكية (1861-1865م) كان الشماليون يعتبرون تقدم جيوش الاتحاد
كأنها تقدم مملكة المسيح ، وكانوا ينشدون: « عندما رأت عيناى مجد مجيء الرب »⁽³⁾.

هذه الظروف التي مرت بها أمريكا كانت السبب في عدم تشدد العلمانيين في
المجتمع الأمريكى ، كما كانت السبب في نمو الاتجاهات البروتستانتية المحافظة
والأصولية في مواجهة العلمانية المسيطرة على الثقافة والدولة والسياسة والمجالات
الأخرى وجميع نواحي الحياة المختلفة .

(1) آلان نيفنز وهنرى استيل كوماجر ، موجز تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ، ترجمة محمد بدر
الدين خليل .

(2) جورج م . مارسدن ، كيف نفهم الأصولية الأمريكية والإيقانجكية ؟ ، ترجمة نشأت جعفر ،
مكتبة الشروق الدولية .

(3) المصدر السابق .

و الظروف المحلية التي مرت بها أمريكا والتي ذكرناها سابقا يمكن إجمالها في :

(أ) مجتمع أمريكي ولید لم يشهد الثورة على الكنيسة والحروب الدينية التي مرت بها أوروبا ، فلم يتعرض للمعاناة الشديدة التي حدثت في أوروبا .

(ب) انشغال المجتمع الأمريكي الوليد بحرب الاستقلال عن بريطانيا وبعملية توحيد الولايات الأمريكية ، ووضع الدستور الاتحادي بعد رحيل بريطانيا عن أمريكا .

(ج) الحرب الأهلية الأمريكية التي امتدت أربعة أعوام (1861-1865م) .

(د) كانت هناك عائلات أمريكية ذات ثراء عريض ونفوذ اقتصادي وسياسي تميل للدين .

(هـ) المهاجرون الإنجليز الأوائل من البيورتناز الذين سكنوا نيو إنجلاند .

كانت هذه من أهم الأسباب التي جعلت المجتمع الأمريكي يبدو مختلفا عن المجتمعات الأوربية في المعتقدات وبعض مجالات الثقافة والحضارة ونواحي الحياة المختلفة ، والتي أهلتها لأن يكون سباقا في عملية الإحياء الديني قبل الدول الأوروبية .

كانت الحركة الإحيائية الأمريكية والإنجليزية قد أطلق عليها اسم الإنجيليون (الإيفانجليكيون)⁽¹⁾ . منذ القرن الثامن عشر والتاسع عشر .

وقد نمت الإنجيلية (الإيفانجليكية) ، ووصل تأثيرها في أمريكا - بوصفها أسلوبا في الحياة ، كما هي مجموعة من العقائد البروتستانتية المتعلقة بالكتاب المقدس والخلاص بالمسيح - إلى جميع الطوائف الأمريكية البروتستانتية⁽²⁾ . ويطلق على الإنجيليين أحيانا اسم المحافظين .

(1) الإيفانجليكي من الكلمة اليونانية التي تعني الإنجيل .

(2) جورج م. مارسدن ، كتاب : كيف نفهم الأصولية الأمريكية والإيفانجليكية ؟ ، ترجمة نشأت جعفر .

وبجانب هؤلاء الإنجيليين كان هناك « اللاهوتيون الليبراليون الذين كانوا على استعداد من أجل الحفاظ على الكتاب المقدس خلال العصر الحديث ، لأن يدخلوا التعديل على بعض العقائد الإنجيلية المحورية مثل مصداقية الكتاب المقدس أو الخلاص فقط ، من خلال توضيح السيد المسيح المكفرة لخطيئة الإنسان»⁽¹⁾.

وكان هناك الجناح المتشدد من الإنجيليين الذى ظهر سنة 1920م والمسمى بالجناح المقاتل من الإنجيليين والذي أطلق عليه اسم الأصوليون⁽²⁾. والذين قاتلوا اللاهوتيين الليبراليين في كنائسهم ، وإذا كانت الأصولية تطلق على صنف من المقاتلين البروتستانت فإن الإنجيلية تضم تحالفا في تنوع أكبر .

لقد كانت للأزمة الثقافية التى حدثت في مستينات القرن العشرين أثرها العميق في الاعتقاد الدينى .

وهذه الأزمة في حقيقتها أزمة روحية ، فقد أكدت هذه الأزمة أن المثل والمفاهيم والاعتقادات (اللا دينية) التى تمثل المفاهيم والمعتقدات العلمانية هى نخواء⁽³⁾.

وفي أوائل السبعينيات من القرن العشرين أصبح الدين - من أى نوع - مقبولا في الساحات إلى مدى لم يكن من الممكن التفكير فيه في نهايات خمسينيات نفس القرن⁽⁴⁾. ومع أن الإنجيليين لم يكونوا في الصفوف الأولى من الحركات الدينية الأخرى إلا أنهم كانوا يمتلكون شبكة من المنظمات القائمة بالفعل ، والتي كانت على استعداد لاستيعاب وتوجيه المتحمسين الجدد (الإنجيليون الجدد) .

(1) جورج م . مارسدن ، كتاب : كيف نفهم الأصولية الأمريكية والإيفانجيلكية ؟ ، ترجمة نشأت جعفر .

(2) المصدر السابق .

(3) المصدر السابق .

(4) المصدر السابق .

وقد استغل الإنجيليون هذه الشبكات الإعلامية والدعوية والتبشيرية حتى زاد عدد الإنجيليين الجدد - أو المحافظين الجدد - زيادة كبيرة .

وكان نجاح الرئيس الأمريكى جيمى كارتر فى الانتخابات برصفه من المحافظين مؤشرا على التنوع الذى كان يسود تلك الحركات الجديدة ، الذى وصل فيه أعضاؤها إلى أربعين أو خمسين مليوناً⁽¹⁾ .

وقد صعد بوش الابن فى انتخابات عام 2000م بواسطة أصوات الأصوليين . ومع تصاعد اليمين الدينى الأمريكى الجديد الذى نراه فى الوقت الحالى ، فلنا أن نتساءل مع جورج م. مارسدن : هل هو مؤشر جديد يفجر مرحلة روحية (دينية) جديدة ؟ أى بالعودة للمسيحية .

أو مؤشر جديد بطور من أطوار الدورات المتكررة من التوتر الاجتماعى والروحي ؟

أو هو مؤشر جديد بآخر الأنفاس الصادرة من النظام العلمانى القديم ؟⁽²⁾ .
أى باتيبار العلمانية والعودة للمسيحية .

والمشكلة لا زالت مستمرة فالعلمانيون لا يزالون يرفضون ويهاجمون ما جاء فى الكتاب المقدس ويعتبرونه غير مقبول عقلياً ، والإحيائيون يتهمون العلمانيين أنهم اتخذوا العلمانية ديناً لهم .

و الكل لا زال تحت مظلة الدستور العلمانى الأمريكى والقوانين العلمانية والمفاهيم والمعطيات الثقافية والحضارية العلمانية .



(1) جورج م. مارسدن ، كتاب : كيف نفهم الأصولية الأمريكية والإيفانجيليكية ؟ ، ترجمة نشأت جعفر .

(2) المصدر السابق .

خلاصة

التغيير في الدين والكتب المقدسة يؤدي إلى انهيار الثقافة والحضارة التي قامت عليه:

1 - عندما أدخل عمرو بن لحي عبادة الأصنام على ديانة إبراهيم - التي كانت تدين بها قريش وبعض القبائل العربية الأخرى - انتشرت عبادة الأصنام ، وعندما جاء الإسلام قضى على عبادة الشرك والمشركن تماما في الجزيرة العربية وما صاحبها من طقوس وسلوكيات وثقافات شركية وحل محلها الإسلام ، وبذلك انهارت ديانة وثقافة وحضارة المشركن .

والمسلمون على ملة إبراهيم عليه السلام ، يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ۖ ﴾⁽¹⁾.

2 - جاءت آيات قرآنية عديدة تبين تحريف الكتب المقدسة لليهود والنصارى وتغيير في ديانتهم ، وذكرنا بعضا من هذه الآيات القرآنية الكريمة .

قامت الحضارة المسيحية في العصور الوسطى في أوروبا منذ القرن الرابع الميلادي ، واستمرت حتى القرن الخامس عشر الميلادي على الدين المسيحي .

بعد انتهاء الحروب الصليبية قام هجوم ونقد شديد للدين والكتب المقدسة في أوروبا ونقد شديد للكنيسة وسلطاتها السياسية والاقتصادية والدينية ، وأدى ذلك إلى ثورة على الكنيسة قادها لوثر وكلفن في بداية القرن السادس عشر الميلادي ،

(1) النساء : 125 .

ونتيجة لذلك نشأت البروتستانتية ، وانقسمت أوروبا إلى ديانات عدة ، وقامت الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت التي امتدت قرنين أو يزيد .

وصاحب تلك الحروب ثورة من الشك والإحاد تصاعدت حتى شملت كل أوروبا ، ونتيجة لذلك تغير التعليم والأخلاق والسلوك ، وتغيرت المعتقدات المسيحية إلى معتقدات لا تؤمن بالغيب ولا بما وراء الطبيعة ولا بالأخلاق المسيحية ، وأصبح الكتاب المقدس عرضة للشك وعدم الثقة ، وهوجم هجوما عنيفا من كل الكتاب والمفكرين في كل أوروبا - إلا قلة قليلة - وأصبح رجال الدين محل هزاء وسخرية في كل المنتديات والمجتمعات الأوروبية ، وبذلك قامت العلمانية التي قامت لتناقض وتناقض المسيحية .

واضطبغت كل المفاهيم والمعطيات في مجال السياسة والاقتصاد والثقافة والحضارة والتربية والتعليم والنواحي الاجتماعية ، وفي جميع مجالات الحياة بالمفاهيم العلمانية ، وبذلك قامت العلمانية بمثابة دين جديد وثقافة جديدة وحضارة جديدة للمجتمعات الأوروبية وللمجتمع الأمريكي ، الذي قام بعد هجرة الأوربيين - وبخاصة البروتستانت - إليها في زمن الاحتلال البريطاني .

فالتغير في الدين والكتب المقدسة عند اليهود والنصارى ، كان السبب في انهيار الحضارة المسيحية .

وبعد الحرب العالمية الأولى والثانية وبعد ما حدث فيها من فظائع وملايين القتلى الذي لم يكن له مثل في التاريخ ، بدأت صهوة دينية وخاصة في أمريكا ، وبدأت حركات الإحياء الديني الأمريكي تتنامى ، وبعد الأزمة الثقافية في ستينيات القرن العشرين - وهي في حقيقتها أزمة روحية - أصبح هناك قبول بكل الأديان في سبعينيات القرن العشرين .

ونشطت حركات الإحياء البروتستانتية الأمريكية نشاطا كبيرا ، وخاصة حركة الإنجيليين (الإيفانجليكيين) ، وحركة الأصوليين التي كانت قد ظهرت في عشرينيات القرن العشرين .

وكانت حركة الإنجيليين - رغم أنها لم تكن في الصفوف الأولى من الحركات الدينية الأخرى - إلا أنهم كانوا يمتلكون شبكة من المنظمات القائمة بالفعل ، والتي كانت على استعداد لاستيعاب وتوجيه المتحمسين الجدد .

وبذلك قامت تلك الحركة الإحيائية الدينية ، والتي كان أساسها هؤلاء المتحمسين الجدد من الإنجيليين البروتستانت - والتي شملت طوائف عدة - وقد أطلق عليهم اسم المحافظون الجدد .

وكانوا سببا في نجاح بوش الابن في انتخابات الرئاسة الأمريكية عام 2000 م . ومع تصاعد اليمين الديني الأمريكي ، فقد تساءل الكاتب الأمريكي المتخصص في حركات الإحياء الديني الأمريكية :

هل هي بداية مرحلة دينية جديدة ونهاية العلمانية ؟

أم هي دور من أدوار الدورات المتكررة من التوتر الاجتماعي والروحي ؟ والمشكلة ما زالت مستمرة ، فالعلمانيون مازالوا يرفضون ويهاجمون الكتاب المقدس ويعتبرون ما جاء به غير مقبول ، والإحيائيون يتهمون العلمانيين بأنهم اتخذوا العلمانية ديناً لهم .

والكل مازال تحت مظلة الدستور الأمريكي العلماني والقوانين العلمانية والمفاهيم والمعطيات الثقافية والحضارية العلمانية .

* * *

الْفَضْلُ الْكَبِيرُ

العلم والحضارة

لقد أكدت آيات القرآن الكريم أهمية العلم في حياة الأمم والشعوب .
يقول تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ ^(١) .

ويقول تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝ ^(٢) .

ويقول تعالى : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ^(٣) .

والعلم والجهل لا يستويان ، يقول تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءِثْمَ الْيَلِّ سَاجِدًا ۖ وَقَآئِمًا يَتَذَكَّرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٔئِكَ ۚ أُولَٔئِكَ ۝ ^(٤) .

والعلماء ورثة الأنبياء ، يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۖ يُؤْذِنُ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝ ^(٥) .

(١) المجادلة : ١١ .

(٢) طه : ١١٤ .

(٣) العلق : ٥ .

(٤) الزمر : ٩ .

(٥) فاطر : ٣٢ .

ويقول تعالى : ﴿ قَالُوا مُبِحَثْكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (1).

ويقول تعالى : ﴿ وَعَلَّمْتَهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (2).

ويقول تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (3).

والحضارة الإسلامية قائمة على الدين الإسلامى الذى تدبى به المجتمعات الإسلامية .

والدين الإسلامى آخر الرسالات السماوية ، ولذلك جاء مستوعباً كل تقدم إنسانى وكل تطور علمى وكل حقائق علمية مكتشفة .

كما أنه دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ولذلك جاءت الحضارة الإسلامية التى تقوم عليه صلبة العود .. راسخة المكانة ، تتحمل التقلبات والأعاصير التى تهب عليها من كل حذب وصوب .

وفى تاريخنا الإسلامى وحاضرنا الذى نعيشه براهين كثيرة تدل على ذلك :
أولاً : عندما هاجم المغول بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية ودمروها واحتلوا أجزاء كبيرة من العالم الإسلامى ، وآمن أحد حكامهم بالإسلام ، قام بنشره فى الإمبراطورية المغولية .

وهذا يعتبر دليلاً أكيداً على قوة الدين الإسلامى وقوة الحضارة الإسلامية التى قامت عليه ، بالرغم من أن المغلوب - عادة - هو الذى يدين بدين الغالب ، وليس العكس !

(1) البقرة : 32 .

(2) الكهف : 65 .

(3) الأنبياء : 80 .

ثانياً : لقد احتلت الدول الإسلامية في معظمها بواسطة المستعمر الأوربي منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين ، وحاول المستعمر تغيير مناهج التعليم والتربية ومناهج الدين في المدارس ، وقام بنشر ثقافته العلمانية في مجالات الإعلام والحياة العامة وتغيير السلوكيات والعادات وبعد رحيله ترك نخبا متغربة في قيادة المجالات المختلفة ظنا منه أنه سوف يغير المعتقدات والثقافات ... كما حدث في أوربا ، وما حدث كان عكس ما كان يتوقعه .

وها هي أمريكا تحتل أفغانستان ثم العراق .. وتعلن عن مشروع الشرق الأوسط الكبير وهو في حقيقته محاولة لتفكيك بنية المجتمعات الإسلامية وعلمنة البلاد الإسلامية ، فهل تنجح ؟!

أعتقد العكس ، وما حدث للمغول سيحدث لها .

المسلمون أول من قاموا بوضع المنهج التجريبي العملي

كان المسلمون هم أول من وضع المنهج التجريبي العملي وليست أوروبا بواسطة روجر بيكون ، وروجر بيكون قام بنقل المنهج التجريبي العملي عن المسلمين ، يقول بريفولت مؤلف كتاب بناة الإنسانية : « إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربي في مدرسة إكسفورد على يد خلفاء معلمي العرب في الأندلس وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليها الفضل في ابتكار المنهج التجريبي . فلم يكن بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلامي التجريبي إلى أوروبا المسيحية »⁽¹⁾ .

وها هو جابر بن حيان رائد الكيمياء الحديثة (721-815م) يقول في كتابه عن نتائج تجاربه العلمية : « يجب أن تعلم أننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط

(1) يوسف كمال ، الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة ، دار الوفاء للطبع والنشر .

دون ما سمعناه أو قيل لنا وما قرأناه ، بعد أن امتحناه وجربناه فما صح أوردناه وما بطل رفضناه»⁽¹⁾ .

ويعتبر كتاب « سر الأسرار » الذي ألفه أبو بكر الرازي - المولود سنة 854م - تبياناً واضحاً لطريقة إجراء التجارب الكيميائية ، فهو يصف المواد المستخدمة والأدوات والآلات التي يستخدمها ، وبعد ذلك يصف طريقة تحضير كل مادة مبينا نتائج التجربة ، وقد وصف ما يزيد على عشرين جهازاً بعضها زجاجي وبعضها معدني على غرار ما يستخدم الآن في معامل الكيميائي الحديثة ، وقام الرازي بتحضير عدد من الأحماض ، ولا زالت الطريقة المستخدمة في تحضير هذه الأحماض هي الطريقة المتبعة الآن ، وقد ترجم كتاب الرازي سر الأسرار إلى اللغة اللاتينية في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، وكان المرجع المعتمد في مدارس أوروبا لمدة طويلة⁽²⁾ .

وكل تجارب العلماء المسلمين العملية في العصر الأموي والعباسي كانت تشمل جميع المجالات مثل علم الجغرافيا ، وقد قام هارون الرشيد بتأسيس لجنة برئاسة ثابت بن قرة لقياس قطر الأرض ومحيطها ، وقد قامت تلك اللجنة بإجراءات عملية صحيحة لإتمام هذه المهمة⁽³⁾ .

وصلة العلم بالحضارة تنبع من أن الدين الذي يدين به المجتمع إذا كان به من التحريف والتبديل أو كان به ما يتصادم مع العقل أو العلم أو مع الحقائق الكونية أو مع الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها ، فإنه يكون عرضة للنقض

(1) د . محمد جمال الدين الفندي ، تراث المسلمين في مجال العلوم ، كتاب دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري ، المجلد الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985م .

(2) المصدر السابق .

(3) المصدر السابق .

والطعن والمآخذ عليه مثلما حدث عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى في أوروبا ، مما أدى إلى سقوط الحضارة المسيحية في العصور الوسطى (عصور الظلام كما يقول العلمانيون الأوروبيون) .

ومن المعروف أن رجال الكنيسة في أوروبا وقفوا من العلم موقفا سلبيا في العصور الوسطى ، وتعرض العلماء للسجن والتعذيب نظرا لأرائهم العلمية ، فعندما قام جاليليو ببناء منظاره الفلكى المكبر ورصده القمر ورأى ما على سطحه من تضاريس شبيهة بتضاريس الأرض ، تعرض للمحاكمة أمام محاكم التفتيش ، ففى 22 يونيو سنة 1633م ، وكان جاليليو - وهو فى التاسعة والستين من عمره - قد حضر أمام قضاة محكمة التفتيش ، حيث أقسم ووعد بالتنازل عن مكتشفاته العلمية ثمنا لإنقاذ حياته .

وبواسطة المنهج التجريبي العلمى استطاع العلماء المسلمون أن يحضروا كثيرا من المواد الكيماوية التى تدخل الآن فى الصناعات الحديثة مثل صناعة الورق والصابون والحبر والمفرغعات والأصبغ والسماد الصناعى ، فمثلا كان الرازى أول من قام بتحضير حمض الكبريتيك ، وأطلق عليه اسم زيت الزاج أو الزاج الأخضر ، وتم نقله إلى أوروبا وأطلقوا عليه اسم كبريت الفلاسفة .

وكان للمسلمين إسهاماتهم المعروفة فى وضع أسس علوم جديدة ، مثل : علم الجبر بواسطة الخوارزمى ، وعلم الاجتماع بواسطة ابن خلدون ، وعلم أصول الفقه بواسطة الإمام الشافعى .

المسلمون من رواد الفكر العلمى

كان للمسلمين إسهاماتهم العظيمة فى اختراع علوم جديدة لم تكن موجودة من قبل ، والمهم فى هذا المجال هو الكيفية التى توصل بها المسلمون إلى هذه العلوم ، لأنها تبين المدى الواسع الذى بلغه المسلمون فى مجال التفكير العلمى ، فالمسلمون عبر عصورهم المختلفة لم يتخلوا عن التفكير العلمى المنظم .

أما ما فعله الاستعمار والغزو الفكرى طوال القرن العشرين ، فإنه لم يستطع أن يمحو هذه الحقيقة ، لأن القرآن الكريم والسُّنة المطهرة تحث على التفكير العلمى المنظم .

ويتضح هذا التفكير العلمى المنظم فى الكيفية التى قام بها الإمام محمد بن إدريس الشافعى القرشى 150-204هـ بوضع أسس علم جديد فى الفكر الإسلامى هو علم « أصول الفقه » ، وذلك فى رسالة رواها وكتبها تلميذه المصرى الربيع بن سليمان المرادى ، (وعلم أصول الفقه هو علم يختص بضبط القواعد التى يعتصم بها المجتهد عن الخطأ فى الاستنباط كتقديم النصوص على القياس ، وتقديم القرآن الكريم على السُّنة ، وتعريف دلالات ألفاظ نصوص هذين المصدرين ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، وقواعد القياس الصحيحة ، والمصالح ومقاصد الأحكام ، وغير هذا مما احتواه هذا العلم من قواعد وأصول⁽¹⁾ . والفقه اصطلاحاً هو العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية⁽²⁾ .

ويتضح هذا التفكير العلمى المنظم أيضاً فى الكيفية التى قام بها الخوارزمى فى وضع علم الجبر ، والكيفية التى توصل بها ابن خلدون إلى علم الاجتماع .

كيف توصل ابن خلدون إلى علم الاجتماع ؟

إن عبد الرحمن بن خلدون بجانب أنه منشئ علم الاجتماع لأول مرة فى التاريخ - قبل أن تعرف أوروبا علم الاجتماع بأربعة قرون - فإنه مؤرخ وواضع نظريات حديثة فى علم التاريخ، بل إن كثيراً من المصطلحات التى نعرفها اليوم ، والتى أطلقت على العلوم الإنسانية كعلم الحضارات وعلم فلسفة التاريخ وعلم

(1) الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر السابق ، بحث فى الفقه الإسلامى ، المجلد الثالث ، «دراسات فى الحضارة الإسلامية» ، بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985م .

(2) المصدر السابق .

الاجتماع وعلم الاقتصاد السياسى ، ما هى إلا ترجمة وتفريغ واستنباط لما ورد فى مقدمة ابن خلدون .

وقد دَوّن ابن خلدون خلاصة فكره فى كتاب ضخّم⁽¹⁾، مكوّن من سبعة أجزاء، والجزء الأول أو (المقدمة) هو المشهور منها .

وقد أطلق ابن خلدون على علم الاجتماع اسم : «علم العمران البشرى» أو «العمران» أو «الاجتماع الإنسانى»، وذلك عندما كان يبحث عن العوامل التى تجعل المؤرخ ينحرف عن جادة الصدق فى كتابة التاريخ، وقد وصل فى بحثه فى هذا المجال إلى نتيجة مهمة وهى : (أن التاريخ فى حقيقته ليس إلا خبراً عن الاجتماع الإنسانى)، وأن تمحيص الخبر لتعرف صدقه من كذبه يقتضى معرفة طبائع العمران البشرى (أى طبيعة علم الاجتماع)، ثم يبين ابن خلدون أهمية وخصائص هذا العلم فى كتابه «المقدمة»، وهو ما سوف يتضح فى السياق التالى :

1- رأى عبد الرحمن بن خلدون فحول المؤرخين العظام فى الإسلام، أمثال : ابن اسحاق والطبرى وابن الكلبي ومحمد بن الواقدي وسيف بن عمر الأسدي وغيرهم من المشاهير، الذين خلفهم بعض المؤرخين المتفطلين ممن خلطوا الحقائق بالروايات الملقفة. يقول ابن خلدون : «إن فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها فى صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطوها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح فى الغالب قليل،»⁽²⁾.

(1) هذا الكتاب هو : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر.

(2) عبد الرحمن بن خلدون، (مقدمة العلامة بن خلدون)، بيروت، 1988م، دار ومكتبة الهلال .

2- رأى ابن خلدون أوهام وأكاذيب وأرقام وحوادث لا يصدقها العقل جاءت في كتابات هؤلاء المؤرخين المتطفلين مثل جيش بنى إسرائيل، كما أحصاهم سيدنا موسى وعدد أفراد هذا الجيش الذى يتجاوز الحد، حيث إن عدد أفراد الدول في ذلك الوقت قليل، ومثل الأخبار الواهنة عن التبابعة ملوك اليمن والعرب، ومثلما جاء في تفسير سورة الفجر عن مدينة إرم من أن قصورها من الذهب والزرجد والياقوت، وما نقله بعض المؤرخين (المسعودى) عن (أن الإسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء مدينة الإسكندرية اتخذ صندوقاً زجاجياً وغاص به في قعر البحر حتى صور تلك الدواب الشيطانية التى رآها وعمل تمثيلها من أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان، ففرت تلك الدواب حين خرجت من الماء ورأت تلك التماثيل⁽¹⁾، وغير ذلك من خرافات .

3- أخذ ابن خلدون يبحث عن أسباب ذلك الانحراف في رواية التاريخ، وعن الطرق والوسائل والمعارف التى يجب أن يتسلح بها المؤرخ في روايته التاريخ، حتى تجيء روايته صحيحة وحقيقية وخالية من الأوهام والخيالات ويتقبلها العقل .

وقد عدّ ابن خلدون عدة أسباب تؤدي إلى الانحراف في رواية التاريخ مثل: التقرب من أصحاب المناصب والرتب، وتزلف وتلق أصحاب السلطان، والثقة فيما ينقل عن سابقه وتمحيص ذلك، وغير ذلك من أسباب.

غير أن ابن خلدون يعتبر أن من أهم الأسباب المؤدية للانحراف في رواية التاريخ هو الجهل بطبيعة الأحوال في العمران - سواء أكان هذا العمران يختص بالمدن والبناء كما جاء في رواية المسعودى عن بناء الإسكندر لمدينة

(1) عبد الرحمن بن خلدون، (مقدمة العلامة بن خلدون)، بيروت، 1988م، دار ومكتبة الهلال .

الإسكندرية ، أم كان هذا العمران هو العمران البشرى الذى هو الاجتماع الإنسانى - وجعل ذلك أهم الأسباب على الإطلاق .

4- وقد ركز ابن خلدون على العمران البشرى ، وجعله الغرض من تأليف كتابه فى وضوح تام لاليس فيه ، وجعل العمران البشرى أو الاجتماع البشرى علماً مستقلاً بنفسه ، وناقش جوانب كثيرة من ذلك العلم ، ويقول عنه إنه علم مستحدث الصنعة غريب النزعة ، عثر عليه فى أثناء بحثه ، وهو ليس علم خطابة أو علم سياسة فموضوعه مخالف لعلم الخطابة وعلم السياسة ، ويقول : إن علم العمران البشرى (علم الاجتماع) علم مستنبط النشأة ، وإنه لم يعثر على أحد من الخليقة قد تكلم عنه قبله ، ثم تكلم عن علم الاجتماع وجوانبه المختلفة ، وعن أهمية وضرورة الاجتماع البشرى لتستقيم حياة الأمة فى فصول تالية ⁽¹⁾ .

كيف ابتكر الخوارزمى علم الجبر ووضع أسسه ؟

محمد بن موسى الخوارزمى عالم مسلم نبغ فى علوم الحساب والفلك والجغرافيا ، مبتدع علم الجبر ووضع أسسه ، ومبتكر حساب اللوغاريتمات ، لا يعرف تاريخ ميلاده ، على وجه الدقة ، وهناك رواية تقول إنه ولد عام 780م وتوفى عام 850م ⁽²⁾ . (وقد عاصر الخليفة المأمون (198 - 218هـ) .

وقد وضع كتابه «الجبر والمقابلة» ، وبه العديد من المعادلات الرياضية فى علم الجبر التى نستخدمها الآن ، وحلولها مثل : $م س 2 ن + ب س ن = ج د$.

(1) عبد الرحمن بن خلدون ، (مقدمة العلامة بن خلدون) ، بيروت ، 1988م ، دار ومكتبة الهلال .

(2) د . محمد جمال الدين الفندى ، تراث المسلمين فى ميدان العلوم ، كتاب دراسات فى الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى ، المجلد الثانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . 1985م .

وكذلك المعادلة : $س4 + 5س2 = 126$. وأورد الخوارزمي حلها وغير ذلك من المعادلات الجبرية الكثيرة التي نستخدمها في العصر الحديث ، مثل : $س2 + 5س = 24$.

يقول الخوارزمي في كيفية ابتكاره لعلم الجبر :

وإني لما نظرت فيما يحتاج إليه الناس في الحساب وجدت جميع ذلك عددًا ، وجميع الأعداد إنما تركبت من الواحد والواحد داخل في جميع الأعداد ، ووجدت جميع ما يلفظ به من الأعداد ، ما جاوز الواحد إلى العشرة بخرج مخرج الواحد، ثم تثنى العشرة وتثلث كما فعل بالواحد فتكون منها العشرون والثلاثون إلى تمام المائة، ثم تثنى المائة وتثلث مثلما فعل بالواحد والعشرة إلى الألف ، ثم كذلك تردد الألف عند كل عقد إلى غاية المدرك من العدد. ووجدت الأعداد التي يحتاج إليها حساب الجبر والمقابلة على ثلاثة ضروب، وهي جذور وأموال وعدد مفرد لا ينسب إلى جذر ولا إلى مال . فالجذر منها كل شيء مضروب في نفسه من الواحد، وما فوقه من أعداد وما دونه من كسور. والمال كل ما اجتمع من الجذر المضروب في نفسه . والعدد المفرد كل ملفوظ به من العدد بلا نسبة إلى جذر ولا مال . فمن هذه الضروب الثلاثة ما يعدل بعضه بعضًا⁽¹⁾.

ويرمز إلى الجذر بالرمز س ، وإلى المال بالرمز س2 . وأما العدد المفرد فهو خال من س ، س2 مثل :

$$س2 + ب س + ج = صفر^{(2)}$$

(1) د . محمد جمال الدين الفندي، تراث المسلمين في ميدان العلوم ، كتاب دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري ، المجلد الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985م .

(2) المصدر السابق.

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

ليس القرآن الكريم بكتاب علوم طبيعية ، ولكنه يحتوى على آيات كثيرة تدل على الإعجاز العلمي التى تجعل العقول تقف مشدوهة أمام روعته وبهائه .

فهناك آيات قرآنية عديدة بها إشارات كونية لها دلالات علمية أكيدة .

وهذا الإعجاز فى آيات القرآن الكريم الذى نزل منذ أكثر من أربعة عشر قرناً يدل على أن هذا القرآن المعجز منزل من عند الله سبحانه وتعالى على رسوله الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ليبلغه للناس كافة .

وهناك كثير من العلماء كتبوا عن التفسير العلمى للقرآن الكريم ، ويعتبر الدكتور زغلول النجار من أهم هؤلاء العلماء ، وله مقالة أسبوعية فى جريدة الأهرام تحت عنوان : «من أسرار القرآن الكريم : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ⁽¹⁾ . الإشارات الكونية فى القرآن الكريم ومعزى دلالتها العلمية» .

وفى كل أسبوع يقوم بشرح آية من تلك الآيات القرآنية المعجزة المبدعة :

يقول تعالى : ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ ⁽²⁾ .

ويقول تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٠﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦١﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ⁽³⁾ .

(1) آل عمران : 190 .

(2) الطارق : 12 .

(3) الواقعة : 68-70 .

ويقول تعالى : ﴿ فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَسٍ وَذَرَعٌ وَخَيْلٌ صَبْتَوَانٌ وَعَمِيرٌ صَبْتَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَتُفْضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1).

ويقول تعالى : ﴿ اللَّهُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (2).
ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (3).

ويقول تعالى : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (4).
وغير ذلك من الآيات القرآنية .

يقول تعالى : ﴿ ائْتَسَّبَ إِلَّا نَسْنُ الْنَ جَمْعَ عِظَامَةٍ ﴿٢﴾ بَلَى قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ يُسَوَّى بَنَاتُهُ ﴿٣﴾ ﴾ (5).

ويقول تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (6).

ويقول تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَبَقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ (7).

(1) الرعد : 4 .

(2) الزمر : 62 .

(3) الأنبياء : 33 .

(4) فصلت : 11 .

(5) القيامة : 3 ، 4 .

(6) الأنبياء : 30 .

(7) الأنعام : 125 .

ويقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾⁽¹⁾.

ويقول تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴾⁽²⁾.

ويقول تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ بَنَاتٍ بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾⁽³⁾.

ويقول تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٦٧﴾ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعِلَّمُونَ عَظِيمٌ ﴾⁽⁴⁾.

ويقول تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾⁽⁵⁾.

وغير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة .

* * *

(1) الأنبياء : 32 .

(2) الذاريات : 7 .

(3) الذاريات : 47 .

(4) الواقعة : 75 ، 76 .

(5) الإسراء : 85 .

خلاصة

1- أكدت آيات القرآن الكريم أهمية العلم في حياة الأمة ورفعتها ، كما أكدت العديد من الآيات أهمية دور العلماء في هذا المجال، وقد ذكرنا بعضاً من هذه الآيات .

والحضارة الإسلامية قائمة على الدين الإسلامى آخر الرسالات السماوية وقد جاء مستوعباً لكل جوانب الحياة، ولكل تقدم إنسانى، ولكل تطور علمى .

ولذلك جاءت الحضارة الإسلامية صلبة العود، راسخة المكانة تتحمل الثقلات والأعاصير التى تهب عليها من كل حذب وصوب، وهناك براهين عديدة تدل على ذلك منها : تحول الغالب إلى دين المغلوب، أى تحول المنتصر إلى الإيوان بالدين الذى يدين به المهزوم، مثلما حدث للمغول الذين دخلوا فى الإسلام بعد غزوهم للبلاد الإسلامية، ومن البراهين أيضاً ثبات الثقافة والحضارة الإسلامية في وجه الغزو الفكرى الاستعماري العلماني طوال القرن العشرين وحتى الآن .

2- كما أن المسلمين كانوا أول من قاموا بوضع المنهج التجريبي العلمى ، كما كانوا من رواد التفكير العلمى المنظم، كما يتضح من الكيفية التى قام بها الإمام الشافعى بوضع علم أصول الفقه الإسلامى، ومن الكيفية التى قام بها ابن خلدون في ابتكار علم جديد هو علم الاجتماع، وكذلك في الكيفية التى قام بها الخوارزمي في ابتكار علم الجبر .

3- وهناك آيات قرآنية كثيرة تشير إلى الإعجاز العلمى في القرآن الكريم ذكرنا بعضاً منها .



أهم المراجع

القرآن الكريم .

كتب السنة :

1 - صحيح البخارى ، دار الحديث خلف الجامع الأزهر ، القاهرة .

2 - صحيح مسلم ، طبعة القاهرة ، 1954م .

كتب التفسير :

1- تفسير الشعراوى ، خواطر فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى حول القرآن الكريم ، أخبار اليوم ، إدارة الكتب والمكتبات .

2- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، للإمام الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ، المتوفى سنة 774هـ ، دار الحديث ، القاهرة .

3- تفسير الجلالين ، تفسير الإمامين الجليلين العلامة جلال أحمد المحلى وجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى . مذيّل بكتاب : لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ، الناشر مكتبة المدنى ودار إحياء التراث العربى ، بيروت .

4- تفسير القرطبى .

5- فى ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة 1402هـ / 1982م .

6- فتح الرحمن فى تفسير القرآن ، أ.د. عبد المنعم أحمد تعيلب ، أستاذ التفسير بجامعة الملك عبد العزيز بجدة سابقاً ، طبع ونشر دار السلام ، القاهرة .

الكتب :

1- أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الطبرى ، دار الكتب العلمية بيروت .

- 2- ابن تيمية ، السياسة الشرعية في إصلاح الراعى والرعية ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ، طبعة القاهرة ، 1971م .
- 3- ابن هشام ، السيرة النبوية لابن هشام ، طبعة القاهرة .
- 4- السيد سابق (الشيخ) فقه السنة ، دار الكتاب العربى ، 1404هـ - 1984م .
- 5- ت . س . إليوت ، ملاحظات حول تعريف الثقافة ، ترجمة د. شكرى محمد عياد ، مكتبة الأسرة ، 2003م .
- 6- جورج . م . مارسدن ، كيف نفهم الأصولية البروتستانتية الإيفانجلية؟ ، ترجمة نشأت جعفر ، مكتبة الشروق الدولية ، 1425هـ - 2005م .
- 7- ريموند وليامز ، الثقافة والمجتمع 1780 - 1950م ، ترجمة وجيه سمعان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986م .
- 8- زكريا فايد ، العلمانية : النشأة والأثر في الشرق والغرب ، الزهراء للإعلام العربى .
- 9- صفى الرحمن المباركفورى ، الجامعة السلفية بالهند ، الرحيق المختوم ، البحث الفائز بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التى نظمتها رابطة العالم الإسلامى 1398هـ ، دار إحياء التراث .
- 10- عبد الحلیم محمود (الإمام العارف بالله د .) الإسلام والإيمان ، الناشر دار الشعب ، 1404هـ - 1984م .
- 11- عبد الوهاب المسيرى / د . العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ، دار الشروق 1423هـ - 2002م .
- 12- عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مكتبة الهلال بيروت .
- 13- عبد المنعم الحفنى / د . موسوعة القرآن العظيم ، الناشر مكتبة مدبولى 2004م .
- 14- فرنسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ وخاتم البشر ، ترجمة حسين أحمد أمين . مركز الأهرام .

15- محمد الجوهري حمد الجوهري / د. النظام السياسي الإسلامي والفكر الليبرالي دار الفكر العربي 1993 م.

- الثقافة العربية والحضارة الإسلامية ، دار الأمين ، 1998 م.

- العولمة والثقافة الإسلامية ، دار الأمين 2002 م ، أعيد طبعه 2004 م.

- الديمقراطية الأمريكية والشرق الأوسط الكبير ، دار الأمين ، 2005 م.

16- محمد خاتمي (رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية السابق) ، الدين والفكر في فسخ الاستبداد ، تعريب واختصار وتعليق ، د. ثريا محمد علي ود. علاء عبد العزيز السباعي ، مكتبة الشروق ، 1421 هـ - 2001 م.

17- محمد محمد عبد القادر الخطيب / د. (أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد بجامعة الأزهر) ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، مطبعة الحسين ، 1411 هـ - 1991 م.

18- منير محمد الغضبان ، المنهج الحركي للسيرة النبوية ، مكتبة الأردن الزرقاء ، الطبعة السابعة ، 1412 هـ - 1992 م.

19- محمد عارف / د. ، صعود البروتستانتية الإيفانجيلكية في أمريكا وتأثيره على العالم الإسلامي ، ترجمة رانية خلاف ، مكتبة الشروق الدولية ، 1427 هـ - 2006 م.

20- نادية حسني صقر / د. ، العلم ومناهج البحث في الحضارة الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، 1991 م.

21- نصر محمد عارف ، الحضارة . الثقافة . المدنية ، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الطبعة الثانية 1415 هـ - 1995 م ، نشر وتوزيع الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، الرياض .

- 22- ويل وإيريل ديورانت ، مجموعة كتب قصة الحضارة ، ترجمة نخبة من المترجمين ، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية .
- 23- يوسف القرضاوى / د . (الشيخ د .) ، كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟ ، دار الشروق ، الطبعة الثالثة ، 2000م .
- 24 - نخبة من العلماء ، دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة بداية القرن الخامس عشر الهجرى ، 3 مجلدات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985م .

* * *



يحتوي الكتاب موضوعات مهمة وجذابة تتعلق بالثقافة والحضارة، وهي موضوعات كثر الخلاف حولها عندنا وعند الآخرين، وأصبح هناك خلط في مفاهيمها ومعانيها ليس بين أصحاب الثقافات والحضارات المختلفة فحسب، بل بين أبناء الثقافة والحضارة الواحدة أيضًا!.. لذا، فقد حاول المؤلف أن يصل إلى جذور هذه الموضوعات ويحلل عناصرها، بمنهجية علمية رصينة، من خلال أربعة أبواب، شرح فيها المؤلف في الباب الأول عبر فصليه الأول والثاني كيفية نشأة فكرة الثقافة والحضارة - كل على حدة - وما مفهومهما. كما جاء في الباب الثاني في فصليه الأول والثاني كيفية قيام كل من الثقافة والحضارة الإسلامية وتعريف كل منهما. كذلك أشار في الباب الثالث في الفصل الأول إلى المقومات الأساسية التي جاء بها الدين الإسلامي وقامت عليها الثقافة والحضارة الإسلامية، وفي الفصل الثاني أجاب عن سؤالين مهمين:

- هل الحضارات الجديدة تقوم بقيام اعتقاد ديني جديد؟..
- هل تنهار الحضارات بانقراض الاعتقاد الديني الذي قامت عليه؟..
أيضًا في الباب الرابع والأخير أجمل المؤلف عوامل قيام الحضارات وانقراضها في القرآن الكريم.

إن الدار المصرية اللبنانية، وهي تقدم هذا العمل العلمي الشائق إلى قرائها لتأمل أن يكون بمثابة شعاع ضوء يزيد هذه المصطلحات وضوحًا، ويزيل عنها أي لبس أو غموض!

صميم القرآن حسين الخطيب

Bibliotheca Alexandrina



0672717

الدار المصرية اللبنانية



6222006319168